تاريخ المسلمين وحضارتهم

في بلاد الهند والسند والبنجاب



تاريخ المسلمين وحضارتهم في بلاد الهند والسند والبنجاب

دكتور

محمد عبد العظيم أبو النصر الصوفى

أستاذ التاريخ الإسلامى المساعد

الناشر

شركة نوابع الفكر

للنشر والتوزيع

الطبعة الاولى
١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩

شركة نوابغ الفكر
19 القطامية (القاهرة)
هاتف:25936402 ،فاكس: 27865553
E-mail: nawabgh_elfekr@hotmail.com

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

الصوفى ، محمد عبد العظيم ابو النصر
تاريخ المسلمين وصفاتهم فى بلاد الهند والسند
تاليف/ محمد عبد العظيم ابو النصر الصوفى
- ط 1 – القاهرة : شركة نوابغ الفكر 2009
320 ص : 24 سم
تدمك : 978-977-6305-27-4
1- المسلمين فى بلاد الهند
2- الحضارة الاسلامية
ا-العنوان
ديوى: 301.4529

رقم الايداع : 2008/20624



الفصل التمهيدى

جغرافية السند والهند والبنجاب

* التسمية
* المناخ
* الحدود
* وادى السند
* التربة والنبات
* الهضاب والجبال
* الأنهار
* التقسيم السياسى والجغرافى
* القبائل والأقوام فى السند البنجاب قبل الإسلام
* أهم القبائل العربية فى السند قبل الإسلام.

الوصف الجغرافى
لبلاد السند والبجاب

كانت شبه القارة الهندية فى القديم تنقسم إلى جزأين جغرافيين، فكان الجزء الأكبر يسمى بلاد الهند والجزء الأصغر يسمى بلاد السند والبنجاب.

تسمية بلاد السند

اختلف المؤرخون بشأن اسم بلاد السند، حيث أشاروا إلى أن الاسم القديم لبلاد السند كان "سندهو" الذى أطلقه أهل هذه البلاد فى بداية الأمر على نهر السند ثم أطلق الاسم "سنده" على المنطقة التى كان يجرى عليها الجزء الأسفل لنهر السند، كما أطلق اسم فارسى "بنجاب" أى المياه الخمسة على المنطقة التى كانت تجرى عليها الأنهار الخمسة لبلاد السند حتى الموضع الذى كانت تتجمع عنده تلك الأهالى بما فيها الجزء العلوى لنهر السند، وكان من المناسب أن يطلق الاسم "سند" منذ البداية على بلاد السند كلها، وهى الأرض الممتدة إلى مئات الأجيال وعرضها نحو مائة ميل التى أخضر كل جزء منها بفضل هذا النهر العظيم، ولولاه لكانت بلاد السند صحراء جرداء لا زرع فيها ولا حياة.

ويذكر بشأن الاسم سندهو بأنه كان اسما سنسكريتيا قديما لنهر السند والمنطقة معا، ويعتقد البعض بأن اليونانيين بدلوا لفظ "سندهو" إلى لفظ "أندلس" وأطلقوه على نهر السند نقلوه إلى شعوب أوربا، ويرى البعض بأن "سندهو" الذى كان اسما قديما لنهر السند معناه فى اللغة السنسكريتية "البحر" كما كان المراد بكلمة "سند" فى قديم الأزمان هو وادى بالسند.

ونجد هناك اسما قديما لبلاد السند عند اليونانيين وهو "سنتهوس" وقد ورد ذكره فى كتاب يونانى قديم مؤلفه غير معروف. بينما ذكر فى كتابه اسما صينيا

قديما آخر لنهر السند وهو "سنتهـو" يرجع تاريخه إلى ما قبل الميلاد فى الغالب، وربما أخذ اليونانيين اسم سنتهوس من هذا الاسم الصينى وأطلقوه على بلاد السند مع إضافة الحـرف الأخير وهو حرف السين، على أن الاسم (سنتهـو) يشبه الاسم المعـروف (سندهو) عند أهل السند قديم الـزمان وعلى ذلك يمكن لنا القـول بأن أقدم اسم لبـلاد السند هو "سندهو" بمعنى وادى السند، ثم خـفف بعد ذلك فى اللغة السندية إلى (سنده) وكتب فى اللغة الأردية (سند) فسميت البلاد عند العرب ببلاد السند ونهرها بنهر السند.

وهناك رواية شـرقيـة تقول بأن اسم السـند منسوب إلى "سند بن حـام بن نوح" ولا يمكن لنا الاعـتماد على هذه الـرواية لعدم وجود دليل تاريـخى عليه، وقد ظل الجـغرافيـون والمؤرخون العرب والفـرس بعد الإسلام لمدة عـدة قرون لا يعقلون شـيئا على تسمـية السند فى كتـبهم ومذكراتهـم، وإنما يطلقون اسم السند بصفة عامة على المناطق المحيطة بنهر السند الكبير، وإن اختلفوا بالنسبة لحدود بلاد السند.

المناخ:

يمكن لنا القـول بأن المناخ بصفة عـامة فى بلاد السند شـديد الحرارة سيـفا وشديد البرودة شتاء، والمطر قليل جدا فى فصل الصيف.

والمناخ فى جنوب السند معـتدل أى لا حار شديد ولا بارد جـدا فى معظم شـهور السنة، ولكن المناطق الجـبليـة منها باردة جـدا فى الشتـاء وحار جـدا فى الصيف، إلا أن الجهات الجنوبية من هذه المناطق تمتاز بالاعتدال.

والمناخ فى شمـال بلاد السند شديد الحـرارة فى الصيف وشـديد البرودة فى الشتـاء. وتعتبـر مدينة جيكب آباد الحـالية أشد المدن حـرارة ببلاد السند وربما فى القارة الهندية كلها.

والمناخ فى وسط بلاد السند معتـدل عموما بسبب وجـود نهر السند والنهار

المتفرقة الأخرى، ولكن المناطق الصحراوية به شديدة الحرارة صيفا وشديدة البرودة شتاء يمطر قليل بداخل السند لا بسبب الرياح، وإنما بسبب الانقلابات الجوية المحلية.

وموسم الحر فى بلاد السند يستمر لمدة سبعة أشهر كاملة، وفى الشهرين الأخيرين منها تبلغ درجة الحرارة من ١٢٠ إلى ١٢٥ درجة.

وتنقسم بلاد السند من حيث العرض إلى ثلاث مناطق مناخية، وهى: منطقة السند الشمالية العليا، ومنطقة السند الوسطى، ومنطقة السند الجنوبية السفلى، وأهالى بلاد السند يطلقون على تلك المناطق السماء بالترتيب: سيرو - فيكهولا - لارا. ولكن معظم الجغرافيين الأجانب يقسمون بلاد السند إلى قسمين كبيرين هما: السند الشمالية والسند الجنوبية، وبناء على هذا التقسيم ينطبق التقسيم السياسى أيضا عندهم فى الأزمان القديمة.

الحدود:

كانت حدود بلاد السند تتغير كثيرا فى العصور القديمة، بحيث كانت المناطق التى تقع فى قبضة حكام السند، يطلق عليها اسم السند، وفى عهد الملك داهر الذى كان يحكم بلاد السند قبل الفتح العربى كانت الحدود كالتالى، يحد السند من الشمال العربى منبع نهر جلهم وسلسة جبال كابل، وكانت هذه الحدود تمتد حتى نهر هلمند، وفى الجنوب الغربى كانت حدود إيران تتصل بالحدود الساحلية للسند عند منطقة مكران، ومن الجنوب كان يحد السند بحر العرب، ومن الجنوب الشرقى كان يحد السند خليج كش (كجة) وفى الشرق كانت حدود السند الشرقية تتصل بحدود الهند عند مدينتى راجبوتانة وجسلمير.

وفى عهد العرب كانت بلاد السند تتكون من الإقليم الشمالى الغربى ومنطقة البنجاب مع المنطقة المجاروة الممتدة إلى أرض أفغانستان حتى نهر هلمند، ومنطقة بلوجستان، بالإضافة إلى منطقة السند الحالية، ومنطقة كش (كجة) وكان هذه المناطق كلها تسمى بلاد السند فى عهد العرب.

والجغرافيون الغرب قد اختلفوا بشأن حدود السند فى عهد العرب، وقد ذكر بعضهم شيئا من التفصيل وبعضهم اكتفى بالإشارات البسيطة الغامضة والخاطئة أحيانا، ولعل ذلك كان بسبب الظروف السياسية التى مرت على بلاد السند، بحيث كانت بعض المناطق تخرج من أيدى العرب ثم تعود إلى حكمهم، ولذلك يصعب بيان حدود بلاد السند وتعيينها من أقوال هؤلاء الجغرافيين.

الصحارى:

سبق أن اشرنا أنه لولا نهر السند العظيم لكانت بلاد السند صحراء جرداء لا زرع فيها ولا حياة، ومع ذلك لا يزال جزء كبير من بلاد السند عبارة عن مناطق صحراوية شاسعة ذات صفات عجيبة، وأهمها الصحراء الشرقية.

يلاحظ فى الصحراء الشرقية أن رياح مالون الساحلية تحمل الرمال من الغرب الجنوبى لصحراء نهار وتسقطها على شكل هضبتين عظيمتين، ويتكون وسطهما واد طويل ممتد مع اتجاه الرياح، ومع طول الهضبتين إلى مسافات طويلة جدا.

السهول ووادى نهر السند:

يلاحظ أن معظم أجزاء وادى السند سهولة منبسطة خضراء، وهذه الخضرة مختلفة الأنواع، ويتوقف هذا الاختلاف على نوع التربة فى كل منطقة، فهذا ألقيت نظرة عابرة على وادى نهر السند الجنوبى من منطقة عالية فإن شبه من الأنهار تجذب الأنظار إليها، ويعتقد المشاهد أن هذه المنطقة التى تبلغ من الطول ٣٠٠ ميل والعرض بين ٣٠ إلى ٨٠ ميلا منطقة خصبة للغاية، فهو يشاهد فى ركن من الوادى سنابل والشعير واشجار القطن، وعلى ضفتى النهر بيوت الفلاحين ومخازن الغلات والقنوات وأشجار الزيتون، كما يشاهد فى ركن آخر من الوادى الهضبات الرملية والراضى البور المرتفعة عن سطح البحر، وكذلك يشاهد فى بعض أجزاء الوادى غابات صغيرة، بينما لا يشاهد فى سهول جتى

سالت وفى منطقة شهداء كوت وصحراء بت أى أثر للزرع أو للخضرة، بل يجدها منطقة صحراوية خالية من الحياة، ويشاهد فى جزء من منطقة روهرى ميادين ملئية بالمزروعـات والخضـروات، وفى الجـزء الآخر منهـا مـجمـوعـات من الأشجـار والأحواض.

ومن مميزات المناظر الطبيعية ببلاد السند أنه تكثر بها بحيرات صغيرة وأراضى وحلة كما تكثر بهـا والطيور المائية مثل الأوزة وأهم هذا البحيرات بحـيرة منوجهر الواقعة فى منطقة دادو بالسند.

التربة والنبات:

من ميزة تربة بلاد السند أنها تخـتلف من مكان إلى مكان، وبالتالى تختلف المزوعـات والخضـروات والفواكـه والأشجـار، وإن التـربة السندية عمـوما تمتـاز بالصلابة، وأهل السند يمسونه "بكى" ولونها أصفر ترابى فاتح، ولذلك تكثر فى السند الأشجار الشوكية المتنوعة، وفى جهة من السند على شاطئ البحر يوجد نوع من التربة تسمى " التربة البحرية" أى التربة الرملية الخليطة بنوع من التربة البيضاء الدقيقة.

وفى دلتا السند تسـمى التربة "التربة الخـام" فمن ميـزاتها أنها تجذب مـياه الفيضان إلى جوف الأرض، ثم تتكون على سطحـها طبقة أخرى من التربة، وهى الغرين الناتج عن رواسب مـياه الفيـضان، ولذلك تكثر النبـاتات التى تحافظ على الدلتا من أخطار البحـر والأمطار والفيضانات، بحيث تقع فى الجهـة العليا للدلتا غابة تمارسك وأسفلها الحشائش الطويلة التى تغطى الأرض فى هذه المنطقة.

وكـانت الحرف لكثـير من سكان بـلاد السند قديمـا، رعى المواشى والإبل والأغنام، وكذلك صيـد الأسماك والطيور وبعض الحيوانات فى مناطق مـختلفة، كمـا كانوا يزرعون الغـلات الضرورية ثم فى عهـد العرب تحسنت الحـياة فى بلاد السند ففـى شتى المجالات، فى الزراعـة والتجـارة والصناعة وفى ميـادين العلوم والفنون، بحيث تقدمت البلاد من كل ناحية.

الهضبات والجبال:

يقول العلماء الجيولوجيون بعد البحث والتنقيب فى المنطقة الجبلية الغربية ببلاد السند، وكذلك بمنطقة الهضبات الحجرية الواقعة على الأراضى العالية بوادى السند، بأنها قد تكونت فى الدورة الثالثة للتقلبات والهزات الأرضية الكثيرة، فظهرت هذه المناطق بعد انسحاب مياه البحر منها، وتدل على ذلك الآثار البحرية الباقية مثل الودع التى وجدت على عمق آلاف من الأقدام.

وأهم السلاسل الجبلية ببلاد السند يسمى (سلسلة كرنهار) وهى تقع فى الجهة الغربية بحيث تبدأ من الشمال الغربى للسند وطولها ١٥٠ ميلا وارتفاعها ما بين ٤٠٠٠ و٧٠٠٠ قدم.

والسلسلة الجبلية الثانية تسمى (لاكهى) وهى تقع فى الجنوب الشرقى لسلسلة كرتهار وتمتد إلى مسافة ٧٠ ميلا والطبقات العالية منها مكونة من طبقات جيرية والطبقات السفلية منها متكونة من طبقات نارية، ويصل ارتفاع هذه السلسلة إلى ٢٣٠٠ قدم.

وهناك سلسلة ثالثة تسمى (جبال راجبوتانة) التى تقع على الحدود السندية الهندية، وتعتبر من أقدم الجبال فى العالم، ويقع فى وادى هذه السلسلة إقليم كش (كجة) التابع لبلاد السند.

ومن مميزات هذه المناطق ببلاد السند، أنه تكثر فيها عيون ساخنة مفيدة للصحة، وتندر النباتات، ولكن تكثر الأشجار الجبلية الصغيرة والحشائش التى تستخدم كعلف للأغنام والمواشى، وبها أيضا بعض الحيوانات الجبلية، ومن أهم ميزات هذه المناطق الجبلية أيضا هو وقوع أودية أسفل كل سلسلة جبلية.

وكان هناك فى القديم طريقان تجاريان بالقرب من بحيرة منجهر، وكانت القوافل التجارية بالجمال تسير فى هذه الطرق لنقل البضائع من جهة إلى جهة أخرى حيث لم تكن توجد أسواق تجارية منظمة فى تلك المناطق الجبلية التى كانت

تعيش فيها القبائل السندية القديمة منذ زمن بعيد، وكان هذه القبائل كثيرا ما تهجم على القوافل التجـارية وتنهب الموال والبضائع التجارية، وتضر بالمصـلحة العامة، والدليل على وجود تلك القبائل قديما فى هذه المناطق الجبلية هو المقابر المنثورة هنا وهناك، وبالنسبـة لهذه المناطق الجبليـة لا توجد معلومـات كافيـة فى كتب تاريخ السند.

الأنهار:

نهر السـند: لقد اختلف الـباحثـون الغربيـون والكتاب الشرقـى من العرب والفرس والهنود بشأن الاسم القـديم لنهر السند ومصدره، وأعطوا للنهـر أو نسبو إليه أسمـاء كثيرة منها: سندهو - سنده - السند - مهـران - سنتو - ملان - آب سند - بنج آب - أندلس - وغيرها.

وأما معظم الجغرافييـن والمؤرخين العرب (فى القرون الثانى والثالث والرابع للهجـرة) يذكرون اسما واحـدا للنهر وهو (نهر السنـد) على أنه منسوب إلى اسم البلاد.

من صـفـات نهـر السند: إن كل مظـاهر النعم والخـيـرات من المزوعـات والخضروات ومن لعقاقير والتوابل والأزهار والعطور، ومن الطيور والحيوانات التى تشاهد بـبلاد السند بفضـل نهر السند العظيم الذى أجـراه الله من الإنسان، فـماء النهر كلما وصل بقعـة من الأرض جعلها خضراء يانعة وملأها بالحـياة والرفاهية، مـصداقـا لقوله تعـالى: «وجعلنا مـن الماء كل شىء حى» فلولا وجود هذا النهـر لكانت بلاد السند منطقة صحراوية جرداء خالية من جمال الزرع وبهجة الحياة.

وينبع نهر السند من جبال كيلاس ببلاد التبت.

* * *

التقسيم الجغرافى والسياسى لأقاليم بلاد السند والبنجاب

أولا: التقسيم الجغرافى:

كانت بلاد السند تنقسم قديما إلى أربعة أقاليم جغرافية وهى:

السند العليا والسند الوسطى والسند السفلى وإقليم كش (كجة).

السند العليا: تبلغ مساحتها ١٠٣٠ ميلا مربعا، وتقع فى غربها منطقة كش (كجة).

السند الوسطى: تبلغ مساحتها ٤١٧ ميلا مربعا، ويبلغ الطول فى الجهة الشمالية وكذلك الجهة الجنوبية ١٦٠ ميلا، وفى الجهة الشرقية وكذلك فى الجهة الغربية ٤٥ ميلا، ومن أهم مدنها القديمة مدينة سهوان.

السند السفلى: تبلغ مساحتها نحو ٥٠٠ ميل مربع، تمتد الجهة الشرقية منها إلى صحراء عمر كوت.

إقليم كش (كجة): يقع هذا الإقليم فى الجنوب الغربى لمدينة الور عاصمة بلاد السند على بعد ٢٦٧ ميلا.

ثانيا: التقسيم السياسى:

تنقسم بلاد السند من ناحية التقسيم السياسى إلى خمسة أقاليم هى: إقليم برهمن آباد، وإقليم سيوستان، وإقليم اسكلنده، وإقليم الملتان (البنجاب) وإقليم الور، وكان الور، عاصمة المملكة السندية عند فتح العرب لبلاد السند أى فى نهاية القرن الأول الهجرى (السابع الميلادى وذلك فى عهد الملك اهو.

إقليم برهمن آباد: كانت تقطع فى إقلـيم برهمن آباد من المدن سهيـرة مثل النيرون والديبل ومناطق لوهانة وسهت وسمة وغيرها.

إقليم سيوسان: كانت تدخل فى نطاق هذا الإقليم منطقة الـبودهية ومدينة جهنكان حتى حدود مكران.

إقليم اسكلنده: كانت تقع فى دائرة هذا الإقليم من المدن القديمة مثل بابيا، وبوده وبور وغيرها.

إقليم الملتـان (البنجاب): كانت تدخل فـيه من المدن القـديمة مـثل سكهر وبرهمبور وكرور واشهار (شاهار) وكبة (كبنة) حتى حدود بلاد كشمير.

إقليم الور (أرور): كانت الور عاصمة بلاد السنـد ومركز هذا الإقليم ومقر الملك السندى، وكـانت تقع من المدن القديمـة مدينـة كروان والقـيقان ونيـرهاس (برهاس) وغيرها.

وكان على كل إقليم حاكم برتبـة نائب الملك من أقرباء الملك داهر الذى فى عهده فتح العرب بلاد السند.

* * *



الفصل الأول

الأحوال السياسية والمذهبية والاجتماعية فى السند والهند قبل الإسلام وعلاقاتها بالدول المجاورة

* حالة بلاد السند والبنجاب سياسيا ومذهبيا واجتماعيا.
* الديانات القديمة فى بلاد الهند والسند
* العقيدة الجينية
* العقيدة البوذية
* البرهمية
* علاقات بلاد السند والبنجاب مع إيران قديما.

الأقوام والقبائل بلاد السند والبنجاب فى العصور القديمة قبل الإسلام ثم من صدر الإسلام إلى العصر العباسى

أولا: أهم القوام القديمة ببلاد السند قبل الإسلام:

سكنت بلاد السند أقوام عديدة قبل الإسلام بزمن بعيد، ويرجع تاريخ بعضها إلى ما قبل خمسة الآف سنة، أهما القوم الداوردى والقوم الآرى.

(أ) القوم الداوردى:

يعتبر القوم الداراوردى أول قوم من بين الأقوام القديمة التى أتت إلى بلاد السند من الخارج، وسكنتها قبل قدوم الآريين إليها، والقوم الداوردى هم أصحاب الحضارة العظيمة التى كانت فى منطقة موهنجود أرو الأثرية ببلاد السند ومنطقة هربا الأثرية وكان زمنهم ببلاد السند ما بين سنة ٣٢٥٠ وسنة ٣٨٠٥ قبل الميلاد.

وتدل الآثار القديمة على أن سكان وادى نهر السند قد ظلوا فترة من الزمن تحت سيطرة قوم البربر الذين أتوا إلى بلاد السند قبل الفرس عند زحفهم نحو الشرق عن طريق بلوجستا، ونتيجة للحملة التى قام بها هؤلاء البربر على بلاد السند من جهة الشمال والغرب، قد أجبر بعض القبائل السندية القديمة المتفرعة من القوم الدراوردى أن تترك مواطنها الأصلية لتسكن أماكن أخرى فى الشمال والغرب ببلاد السند، كما اضطر بعض القبائل الأخرى إلى أن تندمج بعضها ببعض بسبب عوامل كثيرة.

(ب) القوم الآرى (الفارسى):

يعتبر القوم الآرى هو القوم الثانى الكبير الذى أتى إلى بلاد السند من الخارج، وقد تحركوا فى قوافل عديدة على شكل هجرات كبيرة من وسط آسيا وزحفوا نحو الشرق والغرب حتى وصلوا إلى بلاد السند، وأن القافلة الأولى

وصلت بلاد السند فى سنة ٣٥٠٠ قبل الميلاد، والقـافلة الخيرة فى سنة ٦٠٠ قبل الميلاد، وقـد قضى الآريون بعد قـدومهم على نفوذ الدراوورديـن الذين كانت لهم حضـارة موهنجود أرو العظيـمة، وثبتوا أقـدامهم فى البلاد وحكمـوها، فى حين تشتت أمر القوم الداوورى وسـاءت حالة قبائله المختلفة، وكـانت للآريين حضارة بسيـطة فى بداية المر ثم ارتقت بمرور الزمن، ولكنهـا لم تصل إلى درجة حـضارة موهنجود أرو وهربا التى كانت للدراورديين السكان الأصليين لبلاد السند القديمة.

ثانيا: اهم الأقوام ببلاد السند بعد الإسلام:

بعد الإسلام أتت أقوام أخرى إلى بلاد السنـد، وسكنتها واندمجت بالأقوام القديمة وكان لهذه الأقوام الجديدة أثر كبير على اهل بلاد السند من نواح مختلفة.

(أ) العرب سكنوا إقليم مكران:

العرب هم الـقوم الثالث الكبـير الذى أتى إلى بلاد السنـد من الخارج، فى أواخر القرن الأول الهجـرى (السابع الميلادى) وفتحوها وحكمـوها أكثر من قرون من الزمان، والعرب من النسل الـسامى، وقد تركوا آثارهم العظيمـة فى كل بقعة من بقاع بلاد السند فى النواحى المختلفة، السـياسية والدينية والثقافية والاجـتماعية والعمرانيـة وأعادوا إلى بلاد السند مجدها فى صورة حضـارة أعظم من حضارتهم السابقة.

على أن البعض يرى بأن القـوافل العربية كـانت تأتى إلى بلاد السند والهند منذ أكثـر من ٢٠٠٠ سنة قبل الميلاد، وانهـا سكنت المناطق الساحليـة واندمجت بمرور السنين بأهالى تلك المناطق، وإن القافلة الأولى من الحملة العربية البرية التى وصلت إلى حدود بلاد السند بعد ظهور الإسلام فإنها سكنت إقليم مكران، وأنها اقتربت من نهر السند ثم تراجعت إلى مكران وذلك فى سنة ٢٣هـ/ ٦٤٣مثم بعد فتح العـرب لبلاد السند فى سنة ٩٢هـ/ ٧١٠م سكنت قبـائل عربية مخـتلفة فى المدن والمناطق الكبـيرة بها، واندمج العـرب مع أهلها مما كـان لذلك أثر كبـير فى انتشار الإسلام والثقافة الإسلامية فى هذه البلاد الواسعة.

(ب) أقوام أخرى:

بعد انتهاء العهد العربى ببلاد السند فى سنة ٤١٦هـ/ ١٠٢٥م بدأت أقوام أخرى مختلفة تأتى إلى بلاد السند، وذلك منذ القرن الخامس الهجرى، وتسكن هذه البلاد وهى: الترك والتاجيك والمغول والتتر والفرس وغيرهم، وهذه الأقوام أيضا اندمجت فى الأقوام الموجودة من قبل فى بلاد السند ولعبوا أدوارهم على مسرح التاريخ السندى.

(ج) الأوروبيون:

وفى القرن الأخيرة جاء الأوروبيون وسكنوا مناطق مختلفة من شبه القارة الهندية مشتغلين بالتجارة فى أول كالبرتغاليين والإنجليز ثم انتهى نشاطهم فى القرن الماضى باستعمار الإنجليز للقارة الهندية بما فيها بلاد السند، ولكن الأوروبيين لم يدمجوا بأهالى هذه البلاد كغيرهم من الأقوام.

ثالثا: أهم القبائل السندية القديمة:

من الأقوام التى سكنت بلاد السند على شكل قبائل كبيرة بأسماء مختلفة قبيلتان كبيرتان وهما الرط Jote والميد Meds وكانتا تسكنان مناطق مختلفة فى بلاد السند، وقد دخل معظم القبائل الزطية والميدية فى الإسلام فى عهد العرب.

ويؤخذ من البيانات الو رادة فى الكتب السنسكريتية بأن قوم الرط كانوا يشتغلون على السفن الصغيرة بالتجارة والنقل، بينما قوم الميد كانوا يشتغلون بالرعى، ويظن البعض بأن أحد الكتاب قد أخطأ فى استعمال الاسمين بحيث وضع أحدهما موضع الآخر، بدليل أن نسل قوط الرط لا يرالون يعملون بالرعى، فى حين أن نسل قوم الميد يعملون بالسفن، ويشكنون نواحى مكران ويستخدمون البحر فى الأسفار.

والحقيقة أن الجغرافيين والمؤرخين العرب أيضا اختلفوا بشأن القومين وقبائلهما بالنسبة للمناطق التى كانا يسكنانها، وكذلك بالنسبة لأعمالها وحرفهما

وصفاتها. يذكر الأصطخرى بأن قوم الميد كانوا يسكنون أحصاصا واجاما ويتغدون بالسمك وطير الماء، بينما قوم الرط كانوا سكنون على شطوط نهر السند من حد الملتان حتى البحر وكانت لهم مراع كثيرة فى البرية بين نهر مهران وبين مدينة قامهل التى تقع على الحدود السندية الهندية.

ويذكر ابن خرداذبة بأن قوم الزط كانوا يحافظون على الطريق بين كرمان والمنصورة بينما كان قوم الميد لصوصا وقطاع طرق، ويقول ابن حوقل بأن جماعات من الزط كانت تقيم فى المنطقة الواسعة ما بين المنصورة ومكران على طول نهر السند فى الأكواخ المبنية من الخوض، وكان غذؤاهم السمك والطيور المائية، كما أن جماعات أخرى منهم كانت تسكن بعيدا عن النهر فى مناطق صحراوية ورعوية وكان طعامهم اللبن والجبنة والخبز، أى أنهم كانوا رعاة مواش وأغنام وكانت حياتهم كحياة البدو.

وقد ورد فى كتاب حجنامة - وهو يعتبر أقدم مرجع تاريخى لبلاد السند - بأن قوم الزط كانوا قطاع طرق وكانوا يهجمون على القوافل التجارية المارة بطرق السند المختلفة.

ويعلق البعض على ذلك بأن الميد والزط كانوا من الأقوام القديمة ببلاد السند، وكان الميد معروفين بالوحشية والنهب والسرقة ولذلك كانوا يتخذون قرب الصحارى مساكن لهم، وكذلك الزط حتى يسهل عليهم القيام بعمليات النهب والسرقة والإضطرابات والفتن بعيدا عن سلطة الحكومة.

وخلاصة القول: يرى المسعودى بأن قوم الميد كانوا يشتغلون فى البحر بالقرصنة وأما قوم الزط فكانوا يشتغلون بالرعى، ويرى الأصطخرى وابن خرداذبة والإدريسى بأن الميد كانوا يسكنون فى المناطق الصحراوية، بالقرب من نهر السند، وكانوا يشتغلون بالرعى، فى حين يرى صاحب جحنامة وابن حوقل وصاحب نخبة الدهر بأن قوم الزط كانوا يقيمون على طول شاطئ النهر فى أماكن عديدة

وكانوا قطاع الطرق وحدد البلاذرى بأن أهم منطقة كان يسكنها قوم الميد هى منطقة القيقان وكانت سلطتهم بها قوية.

رابعا: أهم القبائل السندية فى عهد العرب:

لقد أشرنا بأن القومين الزط والميد كانا قومين سنديين كبيرين معروفين، وقد استمر وجودهما منذ مئات السنين إلى عهد العرب، وقد امتازوا بتعصبهما القومى والوطنى، وكان كلاهما يتنافسان على حكم البلاد، وكان الزط أكثر عددا وأقوى نفوذا وأخطر على الأمن والدولة من المد، ولذلك نرى محمد بن القاسم الثقفى فاتح بلاد السند (٩٢ - ٩٥هـ/ ٧١٠ - ٧١٣) قد اهتم بدراسة حياة قبيلة الزط الكبيرة التى تنتسب أصلا إلى قبيلة لوهانة Luhans الهندية ببلاد السند، وقد علم أنهم قوم ليست بينهم الطبقات، بل كلهم طبقة واحدة يعيشون عيشة وحشية كسكان الغابات، وأن الجهل منتشر بينهم، وهم قطاع الطرق الذين يهجمون على القوافل التجارية المارة بطرق السند فينبهون الأموال ويقتلون الأنفس بغير الحق، كما أنهم يقومون دائما بالإضطرابات والفتن ضد الحومة، ولذلك عاملتهم معاملة شديدة مثل معاملة الملك جج ملك السند الأسبق لهم، فقد علم محمد بن القاسم الثقفى من الوزير سياكر السندى وبعض زعماء السند بأن الملك جج كان قد وضع قيودا فى تصرفات وتحركات هذه القبيلة وخاصة بمنطقة اللوهانة بإقليم برهمنا باد، مثلما فعل قديما مع قبيلتى سرانه وساكا القديمتين الطاغيتين، فقد أمر الملك جج بأن يسحب كل فرد من الزط كليا حتى يكون معروفا بين الناس، وأخذ منهم الضمانات على سلامة القوافل التجارية وسلامة المسافرين، وفرض عليه عقوبة الموت أو الحرق لمن يسرق منهم، فقد اضطر محمد بن القاسم الثقفى أيضا إلى وضع نفس القيود عليهم حتى يضمن الأمن والاستقرار فى البلاد، لكنه خفف عنهم تلك القيود بالتدريج، بينما كان محمد بن القاسم الثقفى يعامل القبيلتين سما وسهيتة اللتين تسكنان أيضا بنواحى برهمنا باد معاملة طيبة للغاية لسلوكهما الحسنة فى حياتهما الاجتماعية.

ويذكر البعض بأن فى الفترة ما بين عهد الدولة المارية القديمة وبين عهد العرب كان سكان بلاد السند متأثرين بثقافات وعادات وتقاليد مختلفة للأقوام السابقة التى حكمتهم أو سيطرت عليهم مثل الفرس والبربر وغيرهم، بل امتزجت الدماء المحلية بدماء تلك الأقوام الورادة من الخارج حتى ظهر ببلاد السند نتيجة لذلك الخلط قومان مشهور أن بقبائلهما المتفرقة الكثيرة، وهما قوم الزط وقوم الرجبوت، وحين جاء العرب إلى بلاد السند كان معظم القبائل السندية تنتسب إلى هذين القومين المعروفين بالإضافة إلى وجود قوم الميد بقائله المتفرقة فى مناطق مختلفة ببلاد السند.

ومن الجدير بالذكر هنا أن التاريخ قد أثبت بأن العرب المسلمين كانوا يعاملون هذه الأقوام أو القبائل الكبيرة حتى التى لم تدخل الإسلام معاملة طيبة وعادلة ما دامت تطيع الحكومة، كما يعترف التاريخ أيضا بأن العرب الذين فتحوا بلاد السند وحكموها رغم قلة عددهم، وقد استطاعوا بفضل سياستهم الحكمية وأخلاقهم الحميدة أن يؤثروا تأثيرا قويا من الناحية الاجتماعية والمذهبية فى تلك الأقوام أو القبائل المختلفة ذات تقاليد عجيبة وعادات سيئة وصفات وحشية.

خامسا: القبائل الأخرى المتفرعة فى عهد العرب:

ورد فى جچنامة فى عدة مواضع بأن قواد الجيش فى عهد الملك داهر السندى كانوا من البرهميين وكان عليهم اسم التهاكرة وهم كانوا أصلا ينتسبون إلى قبيلة الراجبوت الهندية القديمة ويتصفون بالمهارة الحربية والشجاعة، وكان يطلق عليهم أيضا اسم سودها sodhas، وقدج انضم عدد كبير من هؤلاء القواد التهاكرة إلى محمد بن القاسم الثقفى أيام الفتوحات، وخدموا الجيش العربى فى أثناء حملاته الحربية، وكان لهم دور فعال فى انتصارات العرب.

وقد نزحت قبائل قبائل سندية مختلفة من شمال وشرق بلاد السند، وسكنت إقليم البنجاب واشهرها قبيلة عرفت باسم "زط البنجاب" التى تفرعت

من قبيلة الزط الكبيرة ثم تفرعت هذه القبيلة فى البنجاب إلى قبائل كثيرة مثل وجوبو وكوهاوا.

وكانت ببلاد السند قبيلة أخرى باسم قبيلة سومرا وهى متفرعة من قبيلة سودها التى استمرت بالتمسك بمذهبها البرهمى الهندى ولم تدخل فروع منها فى الإسلام فى أواخر عهد العرب وفيما بعد، كما كانت هناك قبيلة تعرف باسم كوكهر التى تفرعت من قبيلة راتهور المتفرعة من قبيلة راجبوت الكبيرة، وقد دخل معظم أفرادها فى الإسلام واشتهروا باسم قبيلة سيراى فى بلاد السند، وأما قبيلة لوهانة البرهمية التى لم تدخل الإسلام فى عهد العرب فكانت تسكن بعض الأجزاء من إقليم كش (كجة) ومنطقة ماتياوار وبعض أجزاء من بلاد السند.

وقبيلة سهتا Shatas التى كانت تسكن بلاد السند، وخاصة فى إقليم برهمنا باد فقد دخلت جماعات كبيرة منها فى الإسلام فى عهد العرب، وعاملهم محمد بن القاسم الثقفى وغيره من حكام العرب فى كل وقت معاملة طيبة، وكانت هناك قبيلة سمه sammah التى دخلت الإسلام فى عهد العرب وكانت تسكن المناطق الزراعية، بينما كانت قبيلة لوهانة غير المسلمة تسكن المدن وتشتغل بالأعمال التجارية، ولذلك كان بين القبلتين المسلمة وغير المسلمة فرق من الناحية الفكرية والبدنية، كما كانت فى إقليم البنجاب قبيلة تسمى الورة Alora لها صلة بقبيلة لوهانة ببلاد السند وقد أخذت إسمها من اسم المدينة المعروفة.

ومعظم سكان صحراء تهار Thar فى النصف الجنوبى منها ينتسبون إلى قبيلة سيودى الرجوبوتية. وقد دخلت جماعات منها فى الإسلام، وأما القبيلة الشهيرة ماهار Mahars التى كانت تسكن فى المناطق الشمالية الشرقية لصحراء السند، فقد دخل معظم أفرادها فى الإسلام فى عهد العرب، بينما قبيلة ماهار الراجبوتية التى كانت تسكن السند الشرقية والشمالية أيضا لم تدخل الإسلام فى عهد العرب.

حالة بلاد السند والبنجاب سياسيا ومذهبيا واجتماعيا قبل الفتح الإسلامى

بالرغم من دخول بلاد السند فى الدور الأول للفتوحات، فإن المعلومات عن هذا الدور غير كافية، وإنما المرجع الوحيد الذين يمكن لنا الاعتماد عليه والذى يعطى لنا فكرة اجمالية عن الفترة هو كتاب جچنامه الذى جمع مواده وكتبه بالعربية مؤرخ عربى فى أواخر العصر الأموى، ثم قام عالم عربى أخر بترجمته إلى الفارسية فى سنة ٦١٣ هجرية، وقد أخذ منه المؤرخون القدماء مثل صاحب تاريخ المعصومى وصاحب تاريخ فرشنه وغيرهما، وكذلك اعتمد عليه كثير من المؤرخين الشرقيين والغربيين، ومعنى ذلك أنه لا يوجد أى كتاب فى تاريخ بلاد السند قبل جچنامه عن العصر الذى سبق صدر الإسلام، وعلى العموم نحاول الاستفادة من هذا المرجع بقدر الإمكان.

كانت الدولة الهرشية الهندية يؤيدها أصحاب المذهب البرهمى الهندى وهم البراهمة الذين أوجدوا نظام الطبقات، بحيث قسموا الشعب إلى أربع طبقات: الطبقة الأولى تسمى طبقة البراهمة أو الكهان والسدنة ورجال الدين، والطبقة الثالثة تسمى الأكشترية وهى الطبقة الحاكمة والمحاربة، والطبقة الثالثة تسمى طبقة الفيشية وهى طبقة التجار والصناع والزراع التى توفر وسائل العيش للبراهمة والحكم، ثم الطبقة الرابعة تسمى طبقة الشودرية ووظيفتها خدمة تلك الطبقات الثلاث فى أحقر الأعمال كنظافة البيوت ورفع القاذورات، على أن أفاد الطبقات الثلاث الكبرى من أصل أرى، وقد أتوا إلى بلاد السند قبل الميلاد بزمن بعيد وحكموها، بينما أفراد طبقة الشودرية أصحاب البلاد الأصليين قد أخرجهم البراهمة منى ميدان السياسة والحكم والتعليم بل أذلوهم واعتبروهم طبقة المنبوذين وحرموهم من كل حقوقهم الطبيعة الشرعية، فهم ليسوا حتى فى منزلة العبيد وقد أخرجوهم من دائرة الإنسانية حسب نظام الطبقات هذا.

ونتيجة لمظالم نظام الطبقات وأصحابه البراهمة، ظهر ببلاد الهند مصلح اجتماعى وهو بوذا بمذهبه الاجتماعى الجديد، ويبدأ يحارب مظالم البراهمة: بآرائه الثائرة، يريد الخلاص للطبقة الشودرية المظلومة من تلك العبودية والذلة، ويريد الوصول بهم إلى حياة العزة، والسعادة، وسرعان ما انتشرت مبادئ هذا المذهب بعد عهد هرشا حتى أيده بعض البرهمى القديم والمذهب البوذى الجديد، واستطاع البراهمة أن يطردوا الكثيرين من البوذيين والشودرية من وسط بلاد الهند، فانتشروا فى الجنوب والغرب وخاصة فى بلاد السند.

ورغم وجود الاختلاف الكبير بين البوذيين والشودرية من الناحية الفكرية والاجتماعية، فقد نشأ بين الفرقين نوع من الاتحاد السياسى، وأصبحت لهم قوة أيضا فى بلاد السند ضد البرهميين حتى جاء عهد الملك جج (سنة ١ - ٤٠هـ ٦٢٢ - ٦٤٠م) الذى كان ابنا لسادن البراهمة مرة أخرى فى بلاد السند، واشتد الصراع المذهبى فى أنحاء البلاد، مما أثر ذلك كثيرا على تدهور الحالات الاجتماعية والفكرية والمذهبية والاقتصادية، لدرجة أن معظم الشعب السندى كانوا يتمنون أن تتاح لهم فرصة ليتخلصوا من هذه الفوضى المذهبية والمظالم الطبقية واستبداد الحكام، ولينجوا بأرواحهم من أنواع وسائل التقتيل والتشريد والتعذيب من جانب البراهمة، وأن يشعروا بالطمأنينة والسلم فى ظل العدالة الاجتماعية حتى ينعموا بالرفاهية الاقتصادية ويتمتعوا بالحركة الفكرية والمذهبية.

هكذا كانت بلاد السند تعيش فى هذه الفترة من التاريخ فى حالة سيئة من الناحية الاجتماعية والمذهبية بصفة خاصة، ومن الناحية الاقتصادية والفكرية والسياسية بصفة عامة، ونتحدث الآن عن الحالة السياسية لبلاد السند ابتداء من عهد الملك سهرس الثانى بن ساهسى الأول إلى عهد العرب.

عهد دوائج وعهد سيهرس الأول:

حكمت بلاد السند أسرة حاكمة قبل الإسلام لمدة ١٣٧ سنة وذلك سنة ٤٨٥ - ٦٢٢م أى حتى السنة الأولى الهجرية، وأسماء ملوكها بالترتيب: دوائج ثم

سيـهرس الأول ثم سـاهسى الأول ثم سيـهرس الثـانى، ثم ساهسى الثـانى وفى عهـدها انتقل البوذيون على شكل هجـرات كبيرة إلـى بلاد السند بعد طردهم من بلاد الهند، ولذلك يمكن التخمين بأن حكام الدولة كانوا بوذيين غير متعصبين.

عهد الملك سيهرس الثانى:

إن أول ضوء يلقـيه التـاريخ على بلاد السند يبدأ فى عـهد الملك سيـهرس الثـانى بل سـاهسى الأول، الذى كـان يجلس على عـرش بلاد السند فى القـرن السادس الميلادى وكانت بلاده تنقسم إلى خمس ولايات هى: برهمنا بادوسيوستان واسكلنده والملتان والور، وكانت الور عاصمة البـلاد كلها يقيم بها الملك وأما بقية الولايات فكان يحكمها أمراء من أقرباء الملك وقد حكم هذا الملك بلاد السند فترة من الزمن حكما عادلا ونشر الأمن الاستقرار.

عهد ساهسى الثانى:

ولما وصل خبـر موت الملك السندى إلى العاصـمة قام رجال الدولة بتـتويج ولى العد سـاسهى الثانى بن سـيهرس وأجلـسوه على عرش أبيـه، وحكم البلاد بالعدل والانصاف سنوات طويلة، وفى عهده حضـر شاب برهمى فقير إلى القصر وقابل الحاجب رام والوزير برهمـين وقال لهما: أن اسمى جج بن سـيلائد السادن وأبى وأخى يعملان فى مـعبد الور، وقد بادرت أن اتشـرف بمقابلة الحاجب الذى اشتهر بالفصاحة والبلاغة، وأرجو منه أن يتكرم بإعطاء عمل لى فى الديوان فأقوم بانجازه بكل أمـانة وإخلاص، حـيث أنتى أحفظ كتب الهـند الربعة (رك - جج - أسـام - أثرين) وفى هذه الثناء وردت رسـائل من مدينة الـديبل فأعطى الحـاجب خطابا إلى جج فقرأه جيدا وكتب الرد بأسلوب جـميل وألفاظ رقيقة وخط حسن، فأعجب به الحـاجب وعينه كاتبا فى الديوان، ولما توفى الحاجب تعـين جج رئيسا للديوان واستطاع أن يضبط أمور القصر والدولة بسياسة وحكمة.

عهد جج بن سيلائج:

وهكذا وصل جج البرهمى إلى العرش والحكم بمساعدة الملكة الأرملة. وبعد أن نظم الملك جج أمور مملكتــه الداخلية، أراد الاستفــادة من الاضطرابات السائدة فى مملكة فارس الجارة، فسار إلى مكران واستــولى عليها بعد أن كانت دولة إيران تسيطر عليها.

ثم توفى الملك جج فى مدينة الور عــاصمة البلاد بعد أن دام حــكمه أربعين عاما.

عهد جندربين سيلائج:

بعــد وفاة الملك جج جــلس على العرش أخــوه جندر فى سنة ٤٠ هجــرية ٦٦٠م وحكم بلاد السند لمدة سبع سنوات وقضى على بقية الفتن، ونشر الاستقرار فى البلاد حتى توفى فى العام الثامن من حكمه وذلك فى سنة ٤٨ هجرية ٦٦٨م.

عهد الملك داهر بن جج:

بعد وفاة جنــدر ساد الاضطراب أنحاء المملكة السندية وانقســمت البلاد إلى قسمين، وجلس داهر بن جج على العــرش بمدينة الور بداخل السند، بينما اعتلى عرش إقليم برهــمناباد الأمير دارج بن جندر ابن عــم داهر لمدة سنة واحدة (٤٨ - ٤٩هـ، ٦٦٨ - ٦٦٩م) وبذلك تقاسم الأخوان حكم المملكة لمدة ثلاثين سنة وكانا يتبــادلان نقل مقر الحكم، فتــارة كانت العاصــمة مدينة الور وتارة تكون العصــمة مدينة برهمناباد، ثم وقع الخلاف بين دهر سببه وبين سبب اتخاذ القرار من جانب داهر بالرواج من أجله الأمــير مــانى (مايين) وكل ذلك القــرار نتــيجة لــرأى أحد الملجمين حين أخــبر الملك داهر بأن حقه لأميره ماييــن سيكون من نصيب شخص يصبح ملكا على كل بلاد السند فانشغل فكر داهر بهذا الخبر الخطير واستشار وريره الذى نصحه بالزواج منها حــتى لا يفلت زمام الحكم من يده، وبذلك قرر الزواج مضطرا لأسباب سياســية، وقد استنكر هذا الخبر شقيقه الكــبير دهرسيه الذى كان

ملكا على إقليم برهمناباد، فنصحه بالعدول عن هذه الفكرة لكنه لم يقبل ذلك، فتوجه الأمير دهرسيه بجيشه نحو العاصمة الور لمحاربة الملك داهر ولكنه فشل فى القضاء عليه، وكان قد عسكر بالقرب من قصور الور وقلعها ـ ومرض فجأة متأثرا بقتله وحرمه ومات فى دل المعسكر، وبعد ذلك رواج الملك داهر من أخته مايين.

وبذلك استقل الملك داهر بحكم البلاد ابتداء من سنة ٧٩ هجرية ٦٩٨م، ووحد الملكة وحكمها لمدة ثمان سنوات أخرى، حتى فوجئ بهجوم حاكم ولاية الباتية عليه وكان يلقب بنائب الملك ويسمى الأمير رمل (رنمل) ويبدو أنه كان من أقرباء الملك داهر وحصل خلاف بينهما، واقترب حاكم الباتيه من العاصمة فى سنة ٨٧هـ ٧٠٥م، واستطاع داهر أن يقهره بسهولة بع أن ظن أنه كاد يفقد الحكم، وذلك لمساعدة محمد العلاقى العربى ورفاقه العرب.

وبعد ذلك حكم الملك داهر بلاد السند بضع سنوات أخرى حتى وقع النزاع بينه وبين العرب فى إثر حادثة بضع سنوات أخرى حتى قراصنة السند على السفن العربية التجارية المارة بموانى السند، وعدم هنمام الملك بذلك بالإضافة إلى حمايته للمتمردين العرب وتشجيعه لهم بمحاربة ولاة العرب بإقليم مكران، وعلى ذلك قرر العرب فتح بلاد السند فى سنة ٩١ هجرية ٧٠٩م.

الديانات القديمة ودخول الإسلام
فى بلاد السند والبنجاب فى عهد العرب

الديانات القديمة ببلاد السند والبنجاب:

أهم الأديان القديمة التى كانت موجـودة ببلاد السند عند الفتح العربى، هى البرهمية والبوذية والجيـنية، كما كان فيها اليهودية والمسيـحية إتباع قليلون من قبل الإسلام، وكان المذهب البرهمى يعتبر أقدم هذه الديانات وأوسعها انتشارا وأكثرها نفوذا فى بلاد السند والبجاب، ثم جاء من بعـده المذهب الجيبى وظهر معه المذهب البوذى قبل الميلاد بنحـو خمسمائة سنة، وهما معاصران، وقـد ظهرا بضد تعاليم المذهب البرهمى، على أتبـاعه حتى أتى عهـد كانت له أهمية ومـقبولية أكـثر مما للمـذهب البرهمى القـديم، ثم جاء الإسـلام إلى بلاد السند والبنجاب فى نـهاية القرن الأول الهجرى (القرن الثامن الميلادى) مع الفتوحات العربية الإسلامية واحد فى الانتشار يوما بعد يوم فى هذه البلاد.

ليس للدين البـرهمى مؤسس حتى يـعتبـره مرشدا مـعينا لأتبـاعه من أهل الهند، كما لا يوجد شخص مـعين ذو مركز روحى عظيم فى ذلك النظام المذهبى عند البراهمة حتى نسب إليه الكتب المقدسـة لهؤلاء البراهمة فى الأزمان القديمة، وإن ظهر بعض شخصيـات كبيرة فيما بعد وبسبـب كثره عددهم لا نجد فى الدين البـرهمى، التوحـيد فى العـقـيدة، لا لمذهب ولا القـانون ولا العادات، ولكثـرة الاختـلافات فى طرق العبـادة وكثرة عـدد المعبود من الأصـنام، وهذا الدين يبدو كالغابة التى تتخللها آلاف الطرق، ولكن لا يوجـد بينهما طريق واحد يكون سهلا واضحا مستقيما ليرضى به جـميع أتباع هذا الدين، ومع ذلك فهناك عقيدة برهمية تشترك فيها الفرق البرهميـة المختلفة بصفة عامة، وهى فكرة التناسخ والحلول التى لها علاقة كبيرة بالفلسفة.

وقد عرفت بلاد السند والبنجاب قبل البرهمية كثيرا من معتقدات الآريين الذين كانوا قد وفدوا إليها قبل الميلاد بأكثر من خمسة عشر قرنا، فاعتنت الناجا الطوطية وعبدت إلهها الأفعوان كما عبدت هانون الإله القرد وعبدت ناقوس الإله الثور، وقدست الشجار والموتى من الأسلاف اعتقادا من بخلود أرواحهم وقدمت لهم القرابين، استخدمت الرقى والتعاويذ والسحر لجلب السعادة وغطالة العمر ودفع الأرواح الشريرة وإيقاع الارتباك بالأعداء، وما زال اليوم قلة منعزلة الويدا وهى أقدم أساطير الهند والسند تفصيل لآلهة الآريين والهنود الكثيرة هذه ومن ينسب إليه البعض تسمية الهند، وهو إله السماء والعواصف الذى يجلب الأمطار أو الماء والذى هو أصل الحياة، وشوريا إله الشمس، ولكن اختلف الرأى فيمن ينسب إليه خلق العالم من بين هذه الآلهة، فقد أجمعوا على كل حال على وجوب رد الأمر إلى خالق واحد وذلك فيما بعد متأثرين بمسألة التوحيد فى الإسلام.

وصار للبراهمة (أصحاب الدين البرهمى) بعد العصر الويدى السلطان والقوة فثبتوا نظام الطبقات الذى كانوا قد أقاموه من قبل، ووضع قديسهم الأكبر "منو" شرائعه وفقه الذى غدا بلاد الهند والسند وقانونها الأساسى فى كافة نواحى الحياة بها وظهر فى ذلك العصر قبل الميلاد بقرون أربعة، ملاحم المهابهارتا والراماتيا فالأولى تشتمل اليوم على قرابة ربع مليون بيت من الشعر فى حين تضم الثانية بين دفتيها ثمانية وأربعين ألف بيت، أى أضعاف أضعاف الياذة هوميروس، وبذلك كانت أضخم آثار العالم الأدبية القديمة على الإطلاق، ولا شك فى أنها قد تعرضت إلى إضافات كثيرة على مر القرون حتى بلغت صورتها الخيرة، وللمهابهارتا على الخصوص قداسة عظمى عند البراهيمة كقداسة الإنجيل عند أتباع المسيح حتى ليعدون قراءة ما تيسر منها مجلبة للرحمة والمغفرة ومن أعظم وأقدم كتبهم المذهبية التى تقوم عليها طقوسهم ويستمدون منها عقائدهم أربعة كتب يرجع تاريخ أقدمها إلى ٤٥٠٠ سنة قبل الميلاد والأخير منها إلى حوالى ١٢٠٠ سنة قبل

الميلاد، وهى هذه الكتب بالترتيب أهمها كتاب (ركفيدا) يشتمل على مجموعات من الناشيد التى كانوا ينشدونها فى تقديم القرابين للآلهة وكتاب (سام فيدا) أيضا يشتمل على الأناشيد المذهبية وكتاب (ويكرفيدا) يشتمل على الصلوات والأدعية شعرا ونثرا ثم كتاب (أشهر فيدا) يصف عقائد الجمهور فى الأرواح الشريرة والرقى والسحر وهو آخر مجموعة من هذه الكتب، ولذلك ظل مدة غير معترف به فهو لا يلقى ما تلقاه الكتب الثلاثة السابقة من التقديس.

يبدو أن هذا النظام قد وضع من جانب البراهمة لتوزيع العمال على لناس فى المجتمع.

البراهمة (برهمن) أى الكهان من رجال الدين البرهمى ومن واجباتهم الإشراف على الشؤون المذهبية وخدمة المعابد، وهم أعلى الناس درجة.

الأكشترية (جهترى) أى الطبقة الحاكمة والمحاربة، وهم الذين يشرفون على الشؤون الإدارية والعسكرية ومسئولون عن الأمن فى البلاد.

الفيشية (ويش) أى طبقة التجار بصفة خاصة وتنضم إليها طبقة الزراع والصناع وأصحاب الأعمال الاقتصادية ومن واجبتهم توفير وسائل العيش للبراهمة والأكشترية.

الشودرية (جودر) وهم السكان الأصليون فى البلاد ولا ينتمون إلى الآريين بصلة الدم، وهم أسفل الطبقات فى نظر البراهمة وأحقر الناس وعملهم خمة الطبقات الثلاثة الكبيرة فى أخس حاجاتهم من أعمال النظافة، وهم يسمون أيضا الطبقة المنبوذة.

وتنص شرائع منو على امتيازات للبراهمة لا يرقى إليها الملك نفسه الذى كان عليه ألا يقطع أمرا دون الرجوع فيه، فهذه الشرائع التى رسمت لكل طائفة من الطوائف حدودا لا تتعداها قد أطلقت فى الوقت نفسه أيدى البراهمة من كل قيد وجعلت لهم زعامة الناس جميعا، فالبرهمى لا يدنس ولو قتل أهل الكون جميعهم، فهم وما يملكون على يمينه وأمره نافذ مطلق.

وقد أباح منو لأبناء الطبقات الثلاث الكبيرة حق المصاهرة فيما بينهم على قدر، بحيث يستطيع الرجل أن يتزوج من طائفته أو من طائفة أدنى منها وليس أعلى منها، وزاما طبقة الشودرية الرابعة (طبقة المنبوذين) فقد حرم عليهم مخالطتهم بأفراد الطبقات الأخرى ولا يجوز لهم الزواج إلا من طبقتهم الحقيرة فقط، ومن يتزوج بواحدة من الشودرية يصبح مفضوحا مذموما ويطرد من طائفته لينزل إلى طائفة المنبوذين العبيد ويصيبه خزى الدنيا، ولكن يمكن للبرهمى أن يتزوج امرأة أكشترية من الطبقة الحاكمة أو حتى من الطبقة العالية أن تتزوج من طبقة أقل منها، لأنها حينئذ تلد أولادا يرثون صفات أبيهم التى هى اقل من صفات طبقة أمهم وكم من شودرى نفى من الأرض لمحاولته التطلع إلى من هم أعلى منه طبقة، وكم من مرة جرع الجحيم من الزيت الحار أو قطعت يداه لمجرد معرضته لرأى البراهمة فقط كان السبب فى وضع نظام الطبقات الجائرة هو أن البراهمة خافوا من أن يختلط بنو قومهم الآريين بعناصر الهند والسند وأهمها القوم الدراوردى الذى سمى بالشودرية المنبذين بواسطة البارهمة الآريين الذين استولوا على السلطة فى البلاد ويخشون من الشودرية فى الفقر والجهل حقوقهم فى أراضهم الأصلية، فبقاء هؤلاء اشودرية فى الفقر والجهل والحرمان يضمن للبراهمية دوام الاستمرار فى الحكم والجاه فى البلاد.

ويعيش البراهمة معززين مكرمين على ما تقدم لهم من القرابين والهدايا والأموال، وإن كان قد أذن لهم أيضا فى حالة القيام ببعض الوظائف والعمال التجارية، وقد وردت فى شريعة منو نصوص كثيرة تشير إلى مكانة كل طبقة فى المجتمع:

وعلى هذا الأساس الذى وضعته الكتب المذهبية قامت الحياة الاجتماعية للبراهمة الهندوس وظلت كذلك عبر القرون تزداد كل يوم شدة وتمكينا وتزداد كل طبقة تمسكا بموفقها من غيرها حتى رأيت طبقة الشودرية المنبوذين وكأنهم أشد إيمانا بذلتهم من غيرهم فهم لا يسكنون مع بقية الأهالى داخل المدن بل يتخذون

لهم مساكن حقيرة قذرة فى أطراف المدن فى غاية الذلة فهم لا يحاولون أن يرتفعوا عن وضعهم هذا والجهل بينهم متمكن.

ولذلك كله قد ضاق الناس ذرعا باستمرار السلطة للبراهمة واشتداد وطأنهم عليهم، حتى بدت لهم تباشر الخلاص على أيدى مصلحين قد ظهرا من بين الأكشترية الحاكمة فى القرن السادس قبل الميلاد وهما (مهابير) صاحب الديانة الجيبة وصاحب الديانة البودية ولقد كانت حياة هذين المصلحين غامضة على كثير من الباحثين أرادوا أن يتبوا عنها وعن مبادئها فلم يجدوا ما يعتمدون عليه فى الغالب إلا الأساطير.

العقيدة الجينية:

كان الدين الجينى أحد العقائد المنتشرة فى بلاد الهند والسند قديما ولا يزال له أتباع قليلون مثل أتباع البوذية فى تلك البلاد، والجينيون يعتبرون دينهم دينا مستقلا بذاته كالبودية ولا يعترفون بالبرهمية، ولكن بعض المؤرخين يعتبرون الجينية مشقة من البراهيمة الهندوسية، بينما يعالى الجينيون فى ادعائهم بأن ديانتهم أقدم الديانات كلها فى شبه القارة الهندية، على أن المؤرخين لا يعرفون حقيقة الجينية إلا منذ القرن السادس قبل الميلاد، ويعرفون مؤسسها أو منظمتها الأخير باسم "مهاديرا" الذى يؤرخون ميلاده لسنة ٥٩٩ قبل الميلاد أى قبل اثنتين وأربعين سنة من ولادة بودا صاحب الديانة فى سنة ٥٥٧ قبل الميلاد، وعلى ذلك يعتبر الذين الجينى أقدم فى الظهور من الدين البوذى، وإن كان كلا المؤسسى لهذين المذهبين قد تعاصرا فى الحياة ثلاثين سنة، ولكنهما لم يتقابلا مع أنهما كانا يعيشان فى منطقة واحدة تعرف باسم "بيهار" بلاد الهند فى الوقت الحاضر، وقد مات مهايرا قبل بودا بحوالى خمسين سنة.

والجينية من ناحية أخرى تعنى عقيدة قهر النفس، وفيها ينظر مهاديرا (مهابير) أى البل العظيم إلى الحياة بأنها لعنة وعلى المرء أن يتخلص منها بنعمة الانتحار البطئ جوعا ليبلغ سر الوجود، ويدرك الحقيقة والمعرفة عند الدنيا المتعلقين

بأهداب الحياة فيها ولا تتجاوز النسب فى الزمان والمكان فيهال، فما عند فريق منهم حق محسوب هو عند غيرهم باطل معلوم فى الغالب وطريق الخلاص عند الجينيين يقتضى الامتناع عن إيذاء أى كائن حى حتى امتنعوا عن ممارسة أى عمل من العمال وغطوا أفواههم بأيدهم لكى لا تتسرب إليها كائنات من الهاء فتقتل، ولذلك كنسوا الأرض برفق زائد أمامهم ومن تحتهم خوف من القضاء على ما يسرح فيها من هوام، حين يمشون وحين يجلسون أو يرقدون ويفعلون ذلك كله إلى أن يتم لهم أعظم انتصار تظفر به الروح على إرادة الحياة وهو انتحار البطئ جوعا وحرمانا ومشقة.

والجينية تخالف أيضا الديانة البرهمية فى أنها لا تعترف بمسألة تعدد الولاة التى يقول بها البراهمة نتيجة لفكرة التناسخ التى تقول بأن الإنسان لا يزال يموت ويولد.

حتى تظهر نفسه تماما فتصل إلى الخلود والنعيم، وتقول الجينية بأن الإنسان يستطيع أن يتحرر من دورة الولاة هذه بتعطيل حياته وذلك بالتخلى عن كل عمل وكل ما يغذى جسمه حتى تنتهى حياته، وكأنها ترغب بذلك فى الانتحار حتى سميت بالانتحارية.

من مبادئ الجينية:

أهم شيء فى الجينية هو الدعوة إلى تجرد الإنسان من شرور الحياة وشهواتها حتى تدخل النفس فى حالة من الجمود لا تشعر فيها بأى شيء مما حولها، والناسك الحق هو الذى يقهر جميع مشاعره وعواطفه، وحوائجه فلا يحتاج إلى شيء حتى اللباس، لأنه لا يشعر بحر ولا برد ولا حياء، ويهتم الكهان الجينيون بنتف أشعارهم كلها كدليل على أنهم لا يهتمون بالجسد المادى لأن الذى يشعر بالحياء يشعر بالتالى إلى ستر عورته، وإن فى الحياة خيرا وشرا وحسنا وقبيحا، ومعناه أنه لا يزال متعلقا بها خاضعا لمقاييسها، ويقول الجينيون: إن أدم وحواء كانا يعيشان فى الجنة بطهر كامل لا يشعران بحياء ولا خير ولا شر ولا يحملان هما أو

غما حتى تسلط عليهما الشيطان ليحرمهما من هذه اللذة، فحملهم على أن يأكلا من شجرة العلم بالخير والشر، فأخرجا من الجنة، وبهذه الطريقة يعيش كهانهم عراة لا يسترهم شيء مطلقا لأن هذا هو المثل الأعلى عندهم، أى أن الناسك تجرد من كل أحساس بالدنيا وآراء الناس فيها، فأصبح لا يهتم فيها بخير أو شر أو حسن أو قبيح ويفلسفون فى هذا المعنى ويقولون إن الشعور بالحياء يتضمن تصور الإثم، فلو لم يكن الإثم فى الحياة لما كان الحياء، فترك اللباس هو ترك للإثم وبصوره، وعلى ذلك يجب على كل ناسك يريد أن يحيا حياة بريئة من الإثم أن يعيش عاريا ويتخذ من الهواء والسماء لباسا له.

الديانة البوذية (البدهية أو السمينة):

البوذية إحدى الديانات القديمة المعروفة التى ظهرت فى بلاد الهند وبلاد السند قبل أكثر من خمسمائة سنة قبل الميلاد، وبقيت مئات السنين ثم انتقلت إلى البلاد المجاورة كسيلان وبورما وسيام والصين واليابان حتى أصبحت هذه البلاد الآن هى الموطن الحقيقى لازدهار البوذية بعد أن اضمحل شأنها من منبعه الأصلى بلاد الهند نفسها، وبقدر معتنقوها فى هذه البلاد بحوالى خمسمائة مليون نسمة.

حياة بوذا ونشأته:

ولد بوذا مؤسس الديانة اليوذية فى سنة ٥٥٧ قبل الميلاد، وبوذا هذا لقب له ومعناه "العارف المستنير" أما اسمه فهو "كوتاما" أو "سدهارتا" وكانت ولادته فى أسرة حاكمة غنية من الطبقة الأكشترية، فنشأ على طبع أسرته مترفا منعما، ولكن لفت نظره ما كان يراه من مظاهر البؤس والشقاء والمرض والتفاوت الاجتماعى بين الطبقات، فأخذ يفكر فى هذه المظاهر وفى الحياة ولذاتها وانقطاعها بع حين، فأفزعته هذه الحقيقة فترك حياة القصور والنعيم، وانقطع يفكر ويبحث عن مخرج من هذه الآلام، وكان يلازم شجرة يجلس تحتها يفكر، وقد صارت هذه الشجرة بعد ذلك ذات مكانة مقدسة ما زال البوذيون ينظرون إليها نظرة تقديس، وهى الآن فى منطقة كايا بولاية بيهار ببلاد الهند.

وعاش بوذا حياة مـرة قاسمة فى الغابات والصحارى فـترة من الزمن يعانى آلام البؤس والفقر والجوع ويمارس أنواع الرياضات الجسمية والروحية حتى استطاع أن يصل إلى حالة من التجرد من الماديات، ويعلو بنفسه عن الشهوات، حتى أدرك أن الشهـوة هى أم الشرور فى الحـياة، وأنه لابد من القضـاء عليهـا، حتى يحس الإنسان بالسـعادة والراحة، وأخذ يدعـو الناس إلى هذا التحرر نحـو أربعين سنة مرتحلا من مكان إلى مكان، يبشر بالمحبة بين الناس، ويدعو إلى الزهد المخلوقات كلها نظرة فيها رحمة وحنان بعيدا عن التعالى والغرور، وعمل بوذا نفسه بما يدعو إليه من مبادئ، فكان يقاسم الناس آلامهم، ويدعوهم إلى مبادئه الرحيمة، مبادئ الحب والعطف والتسامح.

ويذهب البعض إلى أن هناك تشابها بين مـا نسج حول بوذا وحياته وبين ما قاله أتباع عيسى عليه السلام عنه.

تعاليم البوذية:

لم تبحث البوذية فى أمر الإله كما هو الشأن فى البرهمية، وقالوا أن القصد الأول لبوذا كان تطهـير النفس من شهواتهـا ونحليها بالأخلاق فى معـاملاتها مع الناس، وتنظيم الأمـور الاجتمـاعية والقـضاء على نظام الطبـقات، ولذلك تدور تعاليم بوذا كلها حول هذا الأساس الخلقى والاجتماعى: لا تقتل، لا تسرق مالا، لا تشرب خـمرا، لا ترقص، لا تكذب، لا تزن، لا تكن مـترفـا، لا تتكبر، لا تكن ظالما.. إلخ وكـان أهم شىء اهتم به بوذا نفســه هو العمل على إلغـاء نظام الطبقـات الذى أوجدته الديانة البـرهمية الـقديمة لمصلحـة البراهمـة، وأن البوذية الأصلية لم تحـتفل بالطقـوس البرهمـية الرسمـية كنالغـسل فى الأنهار المقـدسة، والمداومة على الصـيام والاشتغـال بالعبادات المتعبـة والجولان عراة حفـاة، وتقليد الرهبان فى حلق الرؤوس أو تلبيد الشعر وتتريب الجسد وعرض النذور والقرابين، فكل ذلك ليس له حظ فى النجاة عند البوذية.

وتنكر البوذية وجود خالق للعالم وأن الموجودات كلها ليست إلا وهما وظواهر باطلة فانية، وأن الحديث عن الكون وهل هو متناه أو لا متناهى والروح وامتزاج النفس والبدن أو انفصالهما ما هو إلا أسطورة وخرافة من خرافات الأساطير، وكذلك أنكر بوذا القضاء والقدر وقال بأن مصير كل حى منوط بسلوكه الذى قد يقوده إلى السعادة أو إلى الشقاء، فلا أخره ولا جنة بنعيم ولا سقر بحميم، كما أنكروا فكرة التناسخ والحلول وغيرها، وقد سخر بوذا من البراهمة سخرية شديدة فهدم كيانهم حين أعلن بأن الطقوس وشعائر العبادة وما وراء الطبيعة والهوت مسائل لا تستحق النظر، وأن القرابين والدعية ما هى إلا من صناعة الكنهوت، كما هاجم نظام الطبقات ضمنا حين صرح بأن الناس أشرافهم أدنياءهم كلهم سواء فهو يشير بذلك إلى أنه ليس من العدل أن تتمتع البراهمة بكل شىء وأن يحرم الشودرية من كل شىء، وإلى أنه ليس من الحكمة أن لا يكون للاكشترية الحاكمة إلا سلطة ظاهرية جوفاء وأن لا يكون للغيشية الأعيان والتجار حق الخروج من دائرة طبقتهم الثالثة مهما بلغوا من الكمال والعلم أو الجاه والثروة.

انتشار البوذية وزوالها ببلاد الهند والسند:

ظهر بوذا فى الوقت الذى كان الناس يعيشون تحت ظلم الديانة البرهمية التى قسمت الناس إلى طبقات غير عادلة فى بلاد الهند والسند، وكانوا ظامئين إلى مذهب جديد ليخلصهم من الأفكار السيئة والطقوس الصعبة، ومن تعالى وغطرسه البراهمة، ومن الذل والعبودية، ولما ظهر بوذا بالمبادئ الأخلاقية الاجتماعية التف الناس حول ودخلوا فى مذهبه وأيدوه ونصروه، وظل بوذا يدعو إلى مبادئه مدة حتى توفى سنة ٤٨٠ قبل الميلاد، ولم تكن البوذية قد أخذت شكلا رسميا حتى لفتت هذه المبادئ نظر الإمبراطور أشوكا إمبراطور الهند الشمالية فى القرن الثالث قبل الميلاد، بعد أن خاض حروبا قاسية حتى مال إلى حياة الرحمة والحب والسلام، فاعتنق دعوة بوذا ودعا إليها فى حماس وأرسل رسله إلى الممالك

المختلفة يدعون إليها وبذلك صار الإمبراطور داعيا علميا للبوذية حتى انتشرت واكتسحت فى طريقها الديانة البرهمية القديمة.

على أن الذين دخلوا الديانة البوذية من أهل الهند والسند ظلوا معترفين بآلهتهم التى كانوا يعبدونها فى البرهمية القديمة، ومن هنا بدأت البوذية تختلط فى مظاهرها بالبرهمية وبدأ البوذيون الذين يقوم مذهبهم على عدم الاعتراف بالإله يعترفون بالإله، وبالتالى اندمج فريق من البوذية فى طقوس البراهمة حتى ظهرت البوذية بمظهر البرهمية وبدأت معابدهم تظهر فيها البراهمة، ومن ثم أخذت البوذية تتلاشى شيئا فشيئا، وأصبح بوذا بعد حين إلها يعبده البوذيون، وبهذا مهد السبيل إلى انحسار موجة البوذية من بلاد الهند والقضاء عليها فى القرن السادس الميلادى بعد مرور ألف سنة من ولادة بوذا ورجعت البرهمية إلى مكانتها القوية وصارت دينا رسميا فى بلاد الهند وكذلك فى القرن السابع الميلادى فى بلاد السند.

ومما أدى إلى زوال البوذية أيضا فى بلاد الهند والسند أنه فى الوقت الذى لم يأبه البراهمة بأمر الديانة الجينية التى لم تكن خطرا بالنسبة لهم لمبالغتها فى التقشف والزهد، انصرفوا بقوة طاغية إلى العمل على تقويض صرح البوذية المتسامحة التى غدت تناوئ سلطانهم حتى أحدثت تغيرات غير قليلة فى النظم الاجتماعية والسياسة، وصار لها أتباع كثيرون، وبمرور السنين استطاع البراهمة أن يقضوا على البوذية بقوة وسياسة مذهبية جديدة، ذلك أن رؤساء البراهمة عمدوا إلى إدخال قدر غير يسير من تطور وتسامح فى شعائرهم بغية إعادة مجدهم وسلطتهم الدينية، فى الوقت الذى انحرف سندنه البوذية عن مبادئها الأولى البسيطة إلى مستحدثان معقدة أقحموها على عقيدتهم السهلة، وراحوا ينشدون لأنفسهم وبذلك وسعوا الشقة فيما بينهم وبين أتباعهم الذين ما لبثوا أن جذبهم تسامح البراهمة الطارئ وتدبيرهم المحكم حين أخلوا لبوذا نفسه مكانا بين آلهتهم البرهمية وكذلك لمهاديرا نبى الجينية أو إلهها وأعلنوا لهما قدسيتها، وكانوا قد أنكروا ذلك من قبل.

وهكذا ظهرت برهمية جديدة لا تختلف عن البرهمية القديمة فى كثير وقد ساعدت على استرداد أصحابها تحت سيطرة البراهمة بفضل سياستهم المذهبية الجديدة من جهة وبفضل ما وجدوه عند الأمراء الراجبوتيين الأقوياء الذين ظهروا فى القرن السادس الميلادى، من مناصرة وتشجيع مما يسر لهم ذلك فى نشر مدارسهم فى كل مكان، حتى انتشرت عقيدتهم وهى البرهمية الجديدة فى القارة الهندية كلها لا يضرها وجود تلك الجينية الضئيلة ولا البوذية الضعيفة.

موقف أصحاب الديانات القديمة ببلاد السند والبنجاب من العرب:

كانت بلاد السند تحكمها قبل الإسلام زهاء قرن أسرة مالكة تعرف فى التاريخ بأسرة سيهاسى وكانت هذه الأسرة بوذية المذهب، ثم فى أول سنة من القرن الأول الهجرى أى فى مصدر الإسلام انتقل حكم البلاد إلى رجل يسمى جج وكان برهمى المذهب وحافظا للكتب البرهمية المقدسة لأنه كان من أسرة دينية برهمية، فقد كان والده سادن معبد الور بينما كان شقيقة جندر الزاهد بوذيا وباستيلاء جج على الحكم صارت الديانة البرهمية هى الدين الرسمى للدولة وسيطرت على الدين المنتشر فى البلاد رغم كون الأغلبية فيها من البوذيين.

وبذلك استطاع البراهمة أن يسيطروا على جميع مناطق بلاد الهند، بل حتى على المنطقة المعزولة عنها جغرافيا وهى بلاد السند، بينما كاد لا يوجد لأتباع الجينية من وجود فى بلاد السند فى صدر الإسلام وبعد ذلك، حيث أننا لا نجد لنشاطهم أثرا واضحا فى التاريخ، لأن هؤلاء كانوا مسالمين هادئين ورهادا مغالين فى زهدهم بصفة عامة، ولذلك كان البراهمة يتجاهلوهم لقلة خطرهم على الديانة البرهمية، فى الوقت الذى شنوا حملاتهم العنيفة فى القضاء على البوذيين بشتى الطرق الوحشية من القتل الجماعى والإحراق العام وأنواع التعذيب، إذن كانت الديانة البرهمية هى دين أغلبية الشعب قبيل الفتح العربى لبلاد السند.

وموقف أصحاب الديانات القديمة ببلاد السند مع العرب أيام الفتح العربى يختلف من ديانة إلى ديانة حسب ظروفها السياسية والمذهبية فى البلاد،

فالصراع المذهبى الذى كان قائما فى تلك البلاد قبيل الفتح العربى لها بين أصحاب المذهب البرهمى الطغاة وأصحاب المذهب البوذى المتظلمين، يعتبر أهم عنصر لتلك الحياة المذهبية القاسية، ففى بداية القرن الأول الهجرى حين قام (هواين تسانغ) الرحالة الصينى المعروف بجولته فى شبه القارة الهندية ذكر فى مذكراته أن البوذيين كانوا منتشرين فى ذلك الوقت بكثرة فى وادى نهر السند وفى الوديان الواقعة فى المناطق الجبلية ببلاد السند والمجاورة للحدود الهندية وذلك بعد أن سكنوا هذه الأماكن هاربين من ظلم البراهمة فى بلاد الهند وقد ورد فى مواضع كثيرة من كتاب ججنامه ذكر هؤلاء البوذيين ومعابدهم وحكامهم والمناطق التى كانوا يسكنونها فى بلاد السند أيام الفتوحات الإسلامية، فيدل ذلك على أيضا على وجود الجماعات الكثيرة منهم فى بلاد السند وسيطرتهم على مناطق مختلفة مهمة وعلى وجود الزعماء والحكماء الكبار الأقوياء بينهم، وخاصة فى مدينة النيرون ومنطقة البودهية وإقليم سيوستان ومنطقة بت وغيرها كما كان زعماء البوذية يسيطرون على قلاع كبيرة وحصون عظيمة وإن كانوا من كبار الراهبان السمنيين البوذيين، وكانت لهم قطاعات واسعة منيعة وكان لهم حراس مستقلون محاربون أقوياء، فقد جاء فى ججنامه أن الملك جج أراد القضاء على كاهن بوذى معروف بصاحب القلعة الذى اشتهر بعدواته ومخالفته للبراهمة وحكامهم، فوجه الملك جج بنفسه إلى تلك القلعة ليقضى على ذلك الكاهن، ولكنه سرعان ما انخذل أمامه وفقد قوته وجبروته حين واجهه وجها لوجه، فقد استولت عليه هيبة ذلك الرهب البوذى فخرج من عنده منهزما نفسيا ومعنويا وسياسيا، بل وعده بتقديم المساعدات اللازمة للمعبد البوذى هناك كما كان كثير من البوذية من التجار والصناع والعلماء يعيشون فى المناطق التى كان معظم حكامها وسكانها من البرهميين مثل مدينة التى كان معظم حكامها وسكانها من البرهميين مثل مدينة الديبل وكان بها أيضا للبوذيين معبد معروف، ومدينة الور العاصمة السابقة لبلاد السند وكان بها معبد عظيم لهم، ونواحى إقليم سيوستان التى كان بها معابد كثيرة للبوذيين بجانب المعابد البرهمية.

كذلك يفهم من بيانات ججنامه أن البـوذيين لم يكونوا يسعون لحماية السرة الحاكمة من البراهمة أيام الفتـح العربى، ذلك أنهم لم ينسوا تلك المظالم الوحشية التى لاقوها من هؤلاء البـراهمة فى شبه القارة الهندية لمئـات السنين حتى اضطروا فى النهـاية للانتـقال إلـى شمـال الهند ولا سـيمـا إلى بلاد السند واسـتـوطنوها واسـتطاعوا أن يتنفـسوا قلـيلا الحـرية المذهبيـة، ولكنهم لم يتـخلصوا تمامـا من الاضطهاد المذهبى والاجتماعى ولا من عـداوة البراهمة لهم من النواحى الأخرى، فتلك العوامل المذهـبية والسياسيـة والنفسية والاجتـماعية كلها، شـجعت البوذيين على الترحـيب بالعرب الفاتحيـن أصحاب الدين الإسلامى، دين العـدل والمساواة والرحمـة، فتعاون البـوذيون معنويا وماديا مع العـرب للقضاء على جـبرت حكام البراهمـية وظلمـهم الذى ملأ البلاد، وقـد عد بعض المؤرخـين مسانـدة البوذيين للعـرب من أهم السبـاب التى أدت إلى زوال الدولة البـرهميـة بسهـولة فى بلاد السند.

وعلى العمـوم فإن العـموم فإن البـوذيين فى كل بقعة من بـلاد السند كانوا يسالمون العرب ولا يرغبون فى القتـال ضدهم بل كانوا يرحبون بهم ويعاونوهم فى الخطط العسكرية لإتمام مـهمة الفتح العـربى حتى تزول الدولة البرهميـة ويتخلص البوذيون من ظلمهم، لم يكتف البوذيون على مساعدة العرب بل نجد أن كثيرا من الجماعات البوذية قد دخلت الإسلام أفواجا أيام الـفتوحات وبعدها باستمرار حتى يكاد لا يسمع عن وجـود البوذيين بعد ذلك فى بلاد الـسند، وهذا يؤيد ما نذهب إليه من أن أغلبية البوذيين قد دخلوا الإسلام فى عهد العرب.

وأما موقف أتباع البراهمة فكان بصفة عامة ضد العرب مذهبيا وسياسيا فهم لم يرغبوا جـماعية فى الدخول فى الإسلام كـالبوذية إلا فى حالات قليلة، ولكن بعض البرهمـين من الزعماء والقواد وزعـماء القبائل ببـلاد السند دخلوا فى طاعة العرب أيام الفتوحات حين وجدوا كـفة الميزان فى صالح العرب وسالموهم وعملوا تحت رايتهم حـتى تم الفتح ودخل البقـية فى طاعة العـرب أيضا مرغمـين وقبلوا حكمهم.

ونذكر هنا بعض الأمثلة للحكام البوذيين وكذلك للبرهمين الذين انضموا برغبتهم وبدون قتال إلى الفاتح محمد بن القاسم الثقفى أيام الفتوحات، وكانوا خير معيين له سياسيا وعسكريا، فمن الحكماء البوذيين مثل بهندركن حاكم مدينة النيرون والأمير كاكه بن بسايه حاكم منطقة البودهية ومعظم قوداه والأمير موكه بسايه حاكم منطقة بت والأمير راسل الحاكم الثانى لمنطقة بت وكان من كبار قواد الملك داهر حتى قبيل المعركة المصيرية بين محمد ابن القاسم والملك داهر، وكذلك الأمير ككسه بن جندر حاكم منطقة باتيه وكان فى الغالب بوذيا لأنه كان ابن الملك جندر البوذى وأما من كبار الشخصيات السياسية والعسكرية للبرهميين الذين لجأوا إلى محمد بن القاسم ودخلوا تحت لوائه مثل قبلة بن مهترائج المشرف على سجن الديبل، وسياكر وزير الملك داهر وبالإضافة إلى عشرات من القواد الذين استسلموا أثناء القتال وبعد فتح المدن والقلاع فى راور والور وبرهمناباد والملتان وغيرها، ومن الجماعات البوذية التى قبلت الطاعة للعرب بدون قتال مثل قوم جنه المقيمين فى ناحية من إقليم سيوستان وكذلك جماعات من القواد والجنود البرهميين الذين انضموا إلى العرب أثناء القتال بين محمد بن القاسم والملك داهر وأيضا قدمت الطاعة قائل سندية مختلفة مثل زط اللوهانة، وقبيلة السمة وقبيلة السهته ومعظم هؤلاء الأفراد وتلك القبائل قد دخلوا الإسلام أيام الفتوحات وبعدها فى عهد العرب ببلاد السند والبنجاب.

***

علاقات بلاد السند والبنجاب
مع الدول المجاورة قبل الفتح الإسلامى

علاقات بلاد السند والبنجاب مع بلاد إيران قديمة

نجد أن العلاقات بين بلاد السند وبلاد إيران، كانت علاقات مختلفة منذ عصور قديمة جدا، وكانت مستقرة بحكم الجوار، وكان من الطبيعى أيضا أن تقع حروب بينهما فى بعض فترات من التاريخ، فقبل الإسلام كانت الجيوش السندية تصل أحيانا إلى داخل بلاد السند إلى أن فتح العرب هذه البلاد، وبذلك انتهت السيطرة العسكرية والسياسية المتقطعة للفرس على بعض أجزاء بلاد السند.

(أ) علاقة بلاد السند ببلاد إيران قبل الميلاد:

لقد عثر بين الآثار القديمة على خطابات لملوك الدولة الإكمينة الإيرانية (٥٥٠ - ٣٢٣ق. م) فى القرن السادس قبل الميلاد، وذلك فى الجزء الشمالى الغربى من بلاد السند، مما يدل على وجود العلاقات بين بلاد إيران وبلاد السند فى ذلك العهد القديم جدا، ومن الناحية السياسية دلت الآثار الحجرية القديمة على أن الملك دارا الأول (٥٢٥ - ٤٨٦ق.م) الذى حكم إيران حكما قويا قد فتح وادى السند ابتداء من منطقة بنجاب إلى بعض الأجزاء المحيطة لنهر السند فى ذلك العهد،ـ وتعتبر حملة دارا الأول سنة ٥١٨ قبل الميلاد أول حملة إيرانية على بلاد السند.

وبعد دارا الأول جاء الملك زيراس الذى حكم إيران فترة قصيرة (٤٦٤ - ٤٦١ق. م) وكانت جيوشه تشتمل على الهنود والسند أيضا. ثم ابتداء من عهد الملك دكار إلى عهد الملك دارا الثالث كانت بلاد السند تحت سيطرة الحكم الإيرانى

حتى استولى الإسكندر الأ:بر المقدونى على منطقـة بنجاب التابعة لبلاد السند فى سنة ٣٢٣قبل الميلاد. فزالت بذلك السيطرة الإيـرانية من بلاد السند البنجاب لفترة من الزمن.

ويتبـين لنا من النقـوش التاريخـية التى وجـدت فى إقليم برهمن آباد (آباد) ببلاد السـند على وجود علاقـات سيـاسية بين الدولة الإيـرانية الكمينيـة وبالدولة السندسة فى تلك العصور القديمة.

ومن الناحية الثقافية، فـإن الآثار القديمة التى وجدت فى منطقة موهنجود، وتدل أيضا على وجود العلاقـات الفكرية بين أهل السند وأهل إيران قبل التاريخ، وكانت هذه العلاقات الثقافية مستمرة بين الدولتين إلى القرن الثالث قبل الميلاد.

ومن الناحيـة التجارية أيضـا تدل تلك الآبار القديمة التى عـثر عليهـا ببلاد السند على وجـود العلاقات التـجارية بين بلاد إيران وبلاد السند والبـلاد المجاورة منذ آلاف السنين، فمن بين ما عثر عليه بعض الأخـتام التى كانت تستخدم للختم على الأوراق الرسميـة المرسلة إلى الخارج، والطرود الكبيرة، ولعـلها كانت طرود القطن، ومنها البـضائع التى كانت تتـبادل كالأحجـار الكريمة والتماثل الحـجرية والكؤوس والطوب الأحمـر، وكان يستورد حـجر الفيـروز من إيران، وربما كانت الخشاب أيضا تصدر إلى إيران.

(ب) علاقة بلاد السند بإيران فى العهد الساسانى:

أسس أرد شير الأول الدولة الساسانيـة فى إيران التى دامت نحو أربعة قرون من الزمان (٢٢٦م - ٦٥٢م) واتسـعت سيطرتها بعـد فترة قصـيرة حتى اشـتملت على غـرب الهند ووسطهـا والجزء الشـمالى الغـربى منهـا، وأرسل ملوك طوران ومكران بالبيـعة إلى أردشير الأول، وكـان إقليم طوران وإقليم مكران يدخلان فى نطاق الدولة السندية فى ذلك العهد.

وتشيـر بعض الروايات إلى أن بلاد السند كـانت مفـصلة عن بلاد الهند فى عهد الدولة الهيلينية الهندية فى القرن الرابع الميلادى.

(ج) علاقات بلاد السند ببلاد إيران فى عهد انوشيروان:

عادت العلاقات السياسية بين بلاد السند وبلاد إيران فى عهد انوشيروان الملك الساسانى بعد انقطاعها فترة من الزمن، فامتدت السيطرة الإيرانية حتى نهر السند وقد صالح كثير من ملوك أقاليم السند والهند انوشيروان وأرسلوا إليه بهداياهم الثمنية معبرين بذلك عن تقديرهم له، وكان ذلك خوفا من كثرة جيوشه وسعة ملكه وغلبته على البلاد الأخرى وقتله لكثير من حكامها الذى رفضوا البيعة له.

ومن الناحية الثقافية فإن العلاقات كانت طيبة بين الطرفين، فقد طلب الحكيم برزويه الإيرانى من الهند كتاب كليلة ودمنة وموضوعه فى إصلاح الأخلاق وتهذيب النفس، وترجمة من السنسكريتية إلى الفارسية وقدمه إلى كسرى انوشيروان، وكذلك نقلت لعبة الشطرنج ؟إلى إيران فى عهد انوشيروان.

وهكذا كانت العلاقات السياسية والثقافية وكذلك التجارية قائمة بين بلاد السند وبلاد إيران فى العهد الساسانى، حتى عهد يزدجرد الثالث آخر ملوك الساسانيين الذى قضى العرب عليه فى سنة ٣١هـ / ٦٥١م، هجرية أى فى القرن السابع للميلاد،ـ وبذلك زالت الدولة الساسانية الكبيرة عن الوجود ودخلت بلاد إيران تحت حكم العرب.

(د) علاقة بلاد السند ببلاد إيران قبيل عهد العرب:

فى بداية القرن السابع الميلادى، وبعد ظهور الإسلام قام الحاكم الإيرانى هرمز بعدد من الحملات البحرية على سواحل بلاد السند، حتى وقع فى أسره عدد كبير من أهالى السند وأخذهم معه إلى إيران وكان معظمهم من وقوع الزط لأن أغلبية أفراد الجيوش السندية كانت منهم، ولما أراد العرب الحملة على إيران عقدت الدولة الساسانية معاهدة الصلح مع بلاد السند وبموجبها جامل الملك هرمز قوم الزط بإيران وأدخلهم فى الجيش الإيرانى لمحاربة العرب بهم، ثم فى عهد أبى بكر

رضى الله عنه وقعت حرب ذات السلاسل بين إيران والعرب فى سنة ١٢هـ (٦٣٤م) وقتل خالد بن الوليد هرمزا، ووقع ألاف الأسرى من الزط فى أيدى نعرف وفتنو الإسلام عنهم وسكنوا العراق، ثم سنة ١٤ هجرية (٦٣٦م) فطلب الملك يزدجرد الثالث مساعدة عسكرية من حلفائه ولا سيما ملك بلاد السند الذى أرسل إليه الأسلحة والفيلة وأهدى له فيله البيض المقاتل الذى كان بمثابة قائد لتلك الفيلة المحاربة، وقد قتل فى الميدان فى اليوم الثالث من السهل للعرب إبعاد بقية الفيلة وقتل المعركة، وبعد ذلك أصبح من رستم القائد الإيرانى المشهور، والقضاء على جيش إيران فى هذه الحرب وفى القرن السابع الميلادى فى عهد الدولة الهرشية الهندية أيضا كانت بلاد السند تابعة للحكم الإيرانى سياسيا ثم ضعفت إيران بسبب حملات العرب المتكررة عليها، فانتهز الملك جج ملك بلاد السند هذه الفرصة واسترجع منطقة مكران التى كانت تحت سيطرة إيران وبعد وفاة جج جاء ابنه الملك داهر، ووحد البلاد كلها وظل سنوات طويلة، حتى حصل الفتح العربى الكبير بقيادة محمد بن القاسم الثقفى فى سنة ٩٢هجرية / ٧١٠، وبذلك انتهت سيطرة إيران على بلاد السند بصفة نهائية.

ومن الناحية التجارية فقد أشار بعض الجغرافيين العرب ومؤرخيهم إلى أن العلاقات التجارية بين بلاد السند وبلاد إيران كانت مستمرة فى عهد العرب، فيذكر المسعودى بأن العوامل التجارية كانت متصلة بين خراسان وبين الملتان بإقليم البنجاب والمنصورة بإقليم السند من خراسان ويذكر الأصطخرى بأن البل السندية كانت تصدر إلى خراسان وفارس وغيرها.

ومن الناحية الثقافية والفكرية فقد كانت اللغة العربية مكانة كبيرة فى بلاد السند فى عهد العرب بحكم الظروف السياسية ودخول الكثيرين من أهل السند فى الإسلام، ومع ذلك كانت اللغة الفارسية رائجة فى أماكن مختلفة من بلاد السند بسبب الجوار والتبادل بين بلاد السند وبلاد إيران، وكذلك بسبب وجود كثير من الفرس فى بلاد السند حتى فى الجيش العربى منذ عهد بن القاسم الثقفى، فقد

ذكر الأصطخرى بأن لسان أهل مكران كان الفارسية والمكرية (المكرانية) وزيه أيضا مثل زى أهل فارس والعراق ويقول المقدسى بأن الفارسية كانت مفهومة فى إقليم أيضا ونلاحظ أن الجغرافيين العرب لم يذكروا أهمية اللغة الفارسية عند ذكرهم للغة العربية ببلاد السند ذلك لأن إيران ولغتها كانت محكومين فى ذلك الوقت، إلا أن الفارسية مع ذلك كانت لها أهمية كبيرة عند أهل السند.

وهكذا كانت العلاقات بين بلاد السند والبنجاب وبلاد إيران قديمة ومستمرة فى صورها المختلفة فى كل العهود السابقة حتى عهد العرب ببلاد السند والبنجاب وبعد ذلك.





الفصل الثانى
الفتح الإسلامى للسند والبنجاب

* علاقات شبه القارة الهندية ببلاد العرب قبل الإسلام.
* المحاولات الأولى للفتح زمن الخلفاء الراشدين.
* الحملات الإسلامية فى العصر الأموى.
* محمد بن القاسم يفتح بلاد السند والبنجاب.
* انتشار الإسلام فى السند والبنجاب.

علاقات شبه القارة الهندية ببلاد العرب قبل الاسلام

انقسمت شبه القارة الهندية فى القديم إلى قسمين جغرافيين كبيرتين هما بلاد السند والبنجاب وبلاد الهند، وتضرب هذه البلاد بجذورها فى أعماق التاريخ، فهى من البلاد ذات الحضارات القديمة بل الموغلة فى القدم.

وقد دلت الحفريات والكشوف الأثرية التى قامت بها بعثة مارشال سنة ١٩٢٢ والتى أسفرت عن العثور على مدينين قديمتين بغرب بلاد السند هما "مهنجوذارو" و"هربا" دلت على وجود حضارة هندية يرجع تاريخها إلى عصر بناة الأهرام، وتمتد فى أغوار الزمان - مثلما تمتد الحضارة اليونانية والعراقية - إلى آلاف السنين قبل ميلاد المسيح، عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام.

ويفصل البحر بلاد الهند هذه عن الجزيرة، ولهذا كان من الطبيعى أن يكون البحر هو أول حلقة اتصال بين بلاد العرب من ناحية وبلاد الهند والسند من ناحية أخرى، وقد قامت الصلات التجارية بين الجانبين منذ آلاف السنين قبل الميلاد، فكانت القوافل تأتى بتجارتها إلى بلاد الهند. بل استقر بعض العرب فى مناطقها الساحلية واندمجوا فى أهلها، كما حمل العرب منتجات شبه القارة الهندية، وثمارها إلى بلادهم الأصلية، بل حملوها إلى أوروبا عن طريق مصر وبلاد الشام ونقلوا التجارات الأوربية والعربية إلى الهند والصين، بل ذهب البعض إلى أن الروابط العربية الهندية ترجع إلى زمن سيدنا سليمان - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - فقد كان يستورد الذهب والفضة والعاج والطواويس من بلاد الهند.

وعندما فتح المسلمون بلاد فارس واستقروا بها، استمرت العلاقات بين بلاد السند وبين الجزيرة العربية عن طريق بلاد فارس، ويذكر المسعودى أن القافل التجارية كانت متصلة بين خراسان وبين الملتان بإقليم البنجاب وبينها وبين المنصورة بإقليم السند، ونص عبارته "وبلاد الهند متصل ببلاد خراسان" والسند مما يلى

بلاد المنصورة والملقان والقوافل متصلة من السند إلى خراسان وكذلك إلى الهند ويذكر ابن الفقيه فى كتابه "البلدان" أن البضائع الإيرانية كانت تصل إلى بلاد السند من خراسان فمن أراد السند أخذ من ناحية فارس على سيراف "ويقول" الاصطخرى" فى المسالك والممالك" أن البل السندية ذات السنامين كانت تصدر إلى خراسان وفارس وغيرها" هذا الفالج (الجمل ذو السنامين) الذى يحمل إلى الأفاق بخراسان وفارس وسائر البلاد التى يكون بها البخاتى إنما يحمل منهم.

لقد كانت التجارة العربية مع الهند تسير برا من مصر والشام على ساحل البحر الأحمر إلى اليمن، ثم تبدأ الرحلة البحرية عن طريق حضر موت وعمان والبحرين إلى كراتشى، أو عن طريق المحيط الهندى إلى موانى الهند، ولما جاء الإسلام استمرت صلة الهند قوى بالعرب، وهناك كلمات من اللغة الهندية موجودة فى القرآن الكريم مثل مسك وزنجبيل وكافور، وقد أهدى بعض ملوك الهند للرسول ﷺ، جرة فيها زنجبيل فأطعم ﷺ أصحابه منها.

ولأن نشاط العرب نشاط تجارى، فإن لنا أن نتوقع أن يقتصر اتصالهم على السواحل الهندية التى كانوا يعرفونها جيدا، ويعرفون المدن الواقعة على الساحل الطويل لبحر العرب، كما كانوا ينطلقون من هذه البلاد إلى ما وراءها، فيذهبون إلى خليج البنغال وبلاد الملايو وجزر أندونسيا.

وقد بقيت بعض الموانى الهندية التى اشتهرت منذ العهد العربى محتفظة بأسمائها حتى الآن مثل ميناء تيز بإقليم مكران، وميناء الديبل ببلاد السند، وميناء تانة (تهانه) وكهمبانت وسوبارة وجيجو فى إقليم كجران ببلاد الهند، ومن هذه الموانى كانت سفن التجار العرب تتجه إلى ميناء البنغال وموانى الجزر الهندية وميناء القامرون (كامروب)، وتستمر فى سيرها حتى تصل إلى بلاد الصين، وقد ذكر الجغرافيون العرب هذه الموانى ووصفوها فى كتبهم.

وفكرة العرب عن الهند أنها بلاد وافرة الغنى والثراء "بحرها در وجبالها ياقوت وشجرها عطر" حسب وصف واحد من الأعراب وقد استورد العرب من

الهند الأقمشة والعاج والذهب والفضة والعملات الذهبية، وأنواع التوابل والسكر والأرز والمسك وجوز الهند وغيرها" وقد تبارز المقاتلون بسيوف الهند البتارة، وتعطرت النساء بعطورها ورفلن فى حريرها وازين بلآلئها، وازدحمت الجموع حول الملاعب ليشاهدوا نمور الهند وفيلها فى المعترك" وصدر العرب لبلاد الهند الجلد المصبوغ والدقيق وتمر البصرة وخمرة العراق، والزمر من مصر، والخيول العربية الأصلية، والعود الذى كان يستخدم فى المعابد السندية. . على غير ذلك.

باختصار كانت هناك علاقات تجارية بين العرب وبين سكان الهند والسند منذ آلاف السنين، وقد أقام بعض التجار العرب فى الموانى والمدن الساحلية الهندية واستوطنت جاليات عربية هناك قبل الفتح الإسلامى لهذه البلاد، كذلك كان هناك هنود أقاموا بين العرب وأخذوا عنهم لغاتهم وتعلموا لسانهم، وعرفوا بينهم واشتهروا بألقابهم مثل الزط والميد والتكاكرة. . إلخ.

الهدف من السطور السابقة بيان وجود علاقات متينة بين الجزيرة العربية وشبه القارة الهندية، وأن العرب قد عرفوا هذه البلاد ومارسوا التجارة معها واستقر التجارة معها واستقر بعضهم فيها خاصة على سواحلها، فإذا أدركنا ذلك ووضعنا فى الاعتبار طبعة الرسالة الإسلامية وأنها دعوة عامة أرسل الله بها محمدا ﷺ، للناس كافة، مصداقا لقوله عز وجل «وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين» "الأنبياء: ١٠٧"، «قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا»، وقول النبى ﷺ - "كان النبى يبعث لقومه خاصة وبعثت للناس عامة، إذا عرفنا ذلك واستحضرنا ما قام من علاقات بين الشعبين قبل الإسلام، تصونا أنه كان من الطبيعى أن يفكر المسلمون فى تبليغ كلمة الله إلى سكان هذه المناطق.

والسؤال الذى يفرض نفسه الآن هو:

هل ترجع محاولات تبليغ الدعوة الإسلامية لسكان شبه القارة الهندية إلى زمن رسول الله ﷺ؟

الواقع أننا أمـام روايتين: الأولى منهـما تقول إن النبى ﷺ أوفـد رسله إلى الملوك والحكام فى زمنه، وأرسل بعـض أصحـابه إلى "سرباتك" حـاكم "قنوج" بالهند وأن هذا قد أسلم على أيـدى هؤلاء الصحابة، ولكن الحافظ "ابن حـجر" يضعف هذه الرواية، ويعلق عليها بقوله: "زعم أن النبى أنقـذ إليه حذيقة وأسامة وصهـيبا يدعونه إلـى الإسلام، فأجاب وأسلم وقـبل كتاب النبى ﷺ، وقـد قال الذهبى فى تجريد أسماء الصحابة، إن هذه الرواية كذب واضح.

أما الرواية الثـانية: فـتذكر أن خـمسة من الصـحابة - رضوان الـله عليهم أجمعين قد وصلوا إلى بلاد السند، وإن اثنين منهم رجعا وبقى ثلاثة، وتضيف أن النبى ﷺ قد أرسل كـتابه إلى أهل السند مع هؤلاء الخـمسـة وأنهم لما جاءوا إلى هذه البلاد نزلوا فى قلعة يقال لها "نيرون" ثم رجع اثنان بعد أن أظهر أهل السند الإسلام وبقى الثلاثة هناك يبينون لهم الحكام حتى ماتوا بتلك البلاد.

والقواقع أن الكتاب الذى وردت فيه هذه الرسالة غير معروف وقد استبعدها تماما الإمام السيوطى.

ومن هنا لا يمكن الاطمئنان إلى وصول صحابة يحملون دعوة الإسلام إلى شبه القارة الهندية زمن رسول الله ﷺ.

وعندما تولى الخلافة أبو بكر الخلافة أبو بكر الصديق رضى الله عنه، أقر أبا العلاء الحضرمى على ولاية البحرين، أحد مـراكز التجارة العربيةم الهند والصين، ولما آلت الخلافة إلى عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - جعل أبا هريرة واليا على هذه البلاد، فلمـا كانت سنة ١٥ هجرية أسند منطقـة البحرين إلى عثـمان بن أبى العاص الثقـفى، وكان عثمان هذا قـد اسلم فى السنة التاسعة من الهـجرة وعندما وقف أمام رسول الله ﷺ مع وفـد ثقيف الطائف، لمس فيه النبى مـا يتمتع به من مميزات فـأقره حاكما علـى الطائف وبقى كذلك حتى جاء عـمر - رضى الله عنه فنقله من ولايته وولاه عمان والبحرين سنة ١٥هـ، والثابت أنه أول من طرق الهند من ثلاث جهات.

١ - في عهد الخلفاء الراشدين

قام عثمان بن أبى العاص الثقفى والى عمان والبحرين بإعداد ثلاث حملات بحرية، وقد تولى بنفسه قيادة واحدة منها اتجهت إلى ناحية "تهامه" عاصمة أحدى محافظات ولاية مهاشترا الجديدة الآن، وتقع على بعد ٣٢ميلا من مدينة "بومباى" الحالية، بينما توجهت الثانية يقودها أخوه الحكم بن أبى العاص الثقفى نحو ميناء "بهروج" على الساحل الهندى شمال إقليم "سورت" ببلاد الهند الحالية، أما الثالثة فقد تولى أمرها أخ ثالث اسمه "المغيرة بن أبى العاص الثقفى، ويممت شطر "الديبل" الذى يغلب على ظن المتخصصين أنها كانت ميناء، موقعه قرب ميناء "كراتشى" الحالى فى جمهورية باكستان.

وكان الهدف من هذه الحملات الإعداد لفتح تلك المناطق، وتأديب قراصنة الهند والسند الذين كانوا يغيرون على السفن التجارية وينهبون ما تحملع من بضائع، ويتخذون من موانيهم قواعد لمهاجمة بعض مناطق الدولة الإسلامية فى الخليج العربى، بالإضافة إلى محاولة معرفة بلاد السند واختبار طاقة القوة العربية والتوصل إلى أى مدى يمكن الاعتماد عليها فى فتح هذه البلاد مستقبلا، وأيضا أراد المسلمون تأديب ملك السند انتقاما لما حدث منه أثناء معركة القادسية سنة ١٦هـ = ٦٣٧م، عندما زود ملك الفرس بالمال وبالسلاح وأعانه فى حربه مع المسلمين وتأديب بعض المرتدين ومن أيدهم من رجال القبائل الدين هربوا إلى هذه البلاد بعد فشل حركتهم زمن الصديق رضى الله عنه.

ويبدو أن هذه لم تكن حملات منظمة هدفها الاستقرار، وإنما هى حملات أوليه أقرب إلى فريق استطلاعية هدفها الاستكشاف والتعرف وجمع المعلومات عن هذه البلاد، وقد اعتمدت على المتطوعين من المسلمين ذوى الأصل الهندى خاصة، ولعل من بينهم قبائل (الزط) المعروفين بالمهارة فى التجارة والزراعة،

والذين يقال أن على بن أبى طالب استخدمهم لحراسة أموال البصرة فى موقعة الجمل، وشاركوا فى حماية ثغور الشام بعد ذلك زمن الأمويين ثم وطنهم الحجاج فى سهول العراق بهدف استصلاح بطائحها وزراعته، واشتركوا بعد ذلك فى فتح البلاد وعلى حال فهذه الحملات لم تزد عن أن تكون مناوشات، لم تصل إلى مستوى الحرب بمعناها المعروف، ولعل هذا هو سر عودة هذه القوات إلى قواعد انطلاقها فى عمان بعد أن تمكنت من تحقيق مهمتها.

وبمجرد عودة قوات هذه الحملات، ورجوع المجاهدين، كتب الوالى إلى الخليفة يشرح له ما حدث وما تحقق من نتائج، فلم يبد الخليفة رضى الله عنه ارتياحا لهذه العمل، لأنه لا يتصور أن يقوم الوالى بكل ذلك دون إذن الخليفة وبغير تشاور مع السلطة المركزية فى المدينة المنورة، ذلك أن الدولة الإسلامية لم تكن كونت قوة بحرية منظمة تستطيع التعامل مع الدول ذات القدم الراسخة فى هذا المجال، ثم إن القوات الإسلامية كانت مشغولة بالقتال على جبهتى الفرس والروم فى ذلك الوقت ولم يكن من المصلحة فتح جبهة جديدة دون اتخاذ الأهمية والعدة لذلك،ـ خاصة إذا كانت الجبهة واسعة وبعيدة عن الجزيرة العربية مثل بلاد السند والهند، إن هذا يمثل نوعا من المغامرة وتعريض الجند الإسلامى للخطر بصورة لا يرضى عنها أمير المؤمنين ولعل هذا هو السر وراء توعده للوالى نفسه عندما أبلغه أبناء هذه الحملات، لقد قال له غاضبا "يا أخا ثقيف حملت دودا على عود، وغنى أحلف بالله لو أصيبوا لأخذت من قومك مثلهم" وبرغم ذلك فإن احتكار السفن العربية بقيادة المغيرة مع البحرية الهندية قبالة "الديبل" كان له أثره فى ظهور ثم فى نمو البحرية الإسلامية، إن انتصار المسلمين هنا أشبه بنصرهم فى حوض البحر المتوسط، بموقعة ذات الصوارى وما تم فى عهد عمر كان غارات خاطفة تمهد لتطور كبير.

وكان لابد من مرور سنتين أذن الخليفة بعدهما بتجهيز قوات برية لا بحرية لفتح إقليم مكران غرب بلوجستان ببلاد السند، وإقليم كرمان الفارسى الذى يقع

على حدود فارس مع بلاد السند، وكانت السند وتتبعها مكران إمارة مستقلة يحكمها ملك بوذى اسمه "هراش" وقد جعل الخليفة قيادة الجيش الأول للحكم بن عمرو التغلبى، وقيادة الجيش الثانى لسهيل بن عدى، وقد أخذت هذه القوات تواصل استعدادها ويزودها الخليفة بما تحتاج إليه من جند وقادة بحيث أيتح لها أن تبدأ مهمتها فى سنة ٢٢هـ، ٦٤٢م، وقد نجحت فى الوصول إلى كرمان ببلاد العجم وتم فتحها.

وفى سنة ٢٣هـ = ٦٤٣م وقد نجحت فى الوصول إلى كرمان وصلت طلائع جيش الحكم بن عمروا التغلبى إلى إقليم مكران وزوده الخليفة رضى الله عنه بثلاثة قواد أخرين وبعد فتح مكران توغل الجميع فى بلاد السند إلى أن اقتربوا من نهر السند.

أما أهل مكران فقد عسكروا على شاطئ نهر السند حيث أمدهم ملك البلاد بقوات هائلة جعل قيادة عليها لحاكم من أبرز حكام الولايات عنده اسمه "راسل" وقد عبر هذا بقواته النهر والتقى مع جند المسلمين فى معركة حامية كانت نتيجتها انتصار المسلمين، وقد قتل القائد السندى ومعظم قواده وتقهقرت قواته وتبعهم المسلمين حتى نهر السند أو نهر "مهران" فى إقليم السند وتولى أمر البلاد بعد هذه الهزيمة وزير الملك البرهمى، واستمر يحكمها مدة أربعين سنة، ولما هلم تولى شئون الحكم ابنه "داهر" أخر أمراء السند الذى هزمه المسلمون وتم لهم فتح بلاده بعد ذلك.

أما فى هذه المرحلة فقد صدر أمر الخليفة بأن تعود الجيوش الإسلامية إلى مكران فقد كان رضى الله عنه يخشى أن يستدرجوهم ويتوغلوا فى عمق بلاد لا يعرفونها حق المعرفة، لما يمثله ذلك من خطورة على المسلمين، فكان أمره صريحا بألا يعبر أحد إلى الضفة الشرقية من نهر السند، وقال لقائديه: الحكم وسهيل "لا يجوزن مكران أحد من جنودكما، واقتصرا على ما دون النهر، وأمر ببيع الفيلة بأرض الإسلام، وقسم أثمانها على من أفادها الله عليه. فعادت الجيوش لتستقر

فى مكران واستمر الحال هكذا فلم يحاول المسلمون التقدم أو فتح مناطق جديدة حتى نهاية عصر عمر بن الخطاب رضى الله عنه.

وفى عهد الخليفة الثالث عثمان رضوان الله عليه، يبدو أن قادة المسلمين ألحوا عليه وطالبوه بأن يأذن بالتوغل بالجند الإسلامى وتعريضه لمخاطر فى مناطق واسعة وبعيدة لم تكتمل للمسلمين معرفة طبيعتها بعد، وقد رغب أن يحتاط للأمر، فكتب لواليه على بلاد العراق عبد الله بن عامر وكانت بلاد فارس تتبعه، أن يواجه إلى إقليم السند من يراه ويصفه للخليفة بعد معاينة ومباشرة" بحيث يعلم علمه وينصرف إليه بخبره فعهد الوالى بهذه المهمة إلى "حكيم بن جبلة العبدى" الذى ذهب إلى هذه البلاد ودرس أحوالها وجمع معلومات عنها، ورجع إلى والى العراق الذى أوفده إلى الخليفة فلخص له ما انتهى إليه بهذا الصدد فى الكلمات الآتية أثناء حواره مع عثمان بن عفان رضى الله عنه.

يا أمير المؤمنين قد عرفتها وتنحرتها قال الخليفة: صفها لى: قل ماؤها وشل وثمرها دخل ولصها بطل، إن قل الجيش فيها ضاعوا. وإن كثروا جاعوا، فقال له الخليفة: أحابر أنت أم ساجع؟

قال بل حابر، فاكتفى الخليفة - رضى الله عنه بالبقاء فى إقليم مكران ورفض عبور النهر والانطلاق إلى داخل البلاد.

وعندما تولى عبد الله عامر بن كرير القشيرى ولاية العراق سنة ٢٩هـ عين عبد الله بن معمر التيمى حاكما على مكران، فأثخن حتى بلغ نهر السند وظل يحكم إقليم مكران إلى أن استشهد الخليفة عثمان رضى الله عنه.

وفى خلافة الإمام على كرم الله وجه وبرغم الفتن والمشاكل الداخلية، توجه الحارث بن مرة العبدى سنة ٣٩هـ= ٦٥٨ - ٦٥٩م على رأس ألف من خيرة المسلمين ومجموعة من القادة إلى مكران حيث انضمت إليه قوات أخرى من أهل البلاد، وسار الجميع إلى القيقان "الكيكان" - وهى جزء من بلاد السند يتصل

بالخراسـان، ويسمى الآن "قـلات"، وهناك قابله قوات غـفيرة لأعـدائهم بلغت عدتها عشرين ألفا، ودخلوا معها فى معركة دامية، وتمكنوا من تحقيق نصر مشرف عليها واسروا الكثيرين من أفرادها.

ولكن الإمام على استشهـد للأسف فى هذه الظروف ـ وتلقى المسلمون خبر استشـهاده فتأثرت مـعنوياتهم واضطروا للعمل على العودة مـرة أخرى إلى مكران وقد شجع ذلك الأعداء فتجمعـوا بأعداد غفيرة من جديد، وكان على الحارث بن مـرة أن يلقاهم مـرة أخـرى فى نفس القيـقـان سنة ٤٢هـ = ٦٦٢م - أوائل زمن معاوية رضى الله عنه وقد أبلى المسلمون بلاء حسنا وثبتوا فى أماكنهم، ولم يهنوا أو يضعفوا وواجهـوا الجموع الكثيرة فى بسالة منقطعة النظير حتى اسـتشهد القائد نفسه ومعظم القـادة والجند، ومن بقى منهم اضطر للعودة إلى ثغر السند - مكران ذلك الإقليم الذى بقى وحده بأيدى القـوات الإسلامية، يتبع إقـليم العراق، أحد أقاليم الدولة الإسلامية، وكان الولاة يفدون منه إلى إقليم مكران السندى.

* * *

ب - زمن الدولة الأموية

استمر الاحتكاك العسكرى والمناوشات بين المسلمين وأهل مكران أيام معاوية - رضى الله عنه" الذى كانت بلاد الهند ترتعش فى أيامه، فقد أتى المهلب بن أبى صفرة إلى ذلك الإقليم سنة٤٤هـ، نائبا عن عبد الله بن عام والى العراق، فوصل إلى "بنة"و"الأهواز" وبنه الآن هى بنوكوهات بباكستان - وهما بين الملتان وكابل - فلقيه العدو وقاتله هو ومن معه، كما لقى المهلب ثمانية عشر فارسا من الترك ببلاد القيقان الحصينة، فقاتلوه وقتلوا جميعا.

وفى زمن معاوية أيضا جاء عبد الله بن سوار همام العبدى على رأس أربعة آلاف مقاتل، فغزا القيقان - وأهلها من الترك - ثم وفد إلى معاوية وأهدى إليه خيلا قيقانية، ثم رجع إلى نفس المكان فقتله الترك وفى ذلك يقول الشاعر:

وابن سوار على عداتيه   موقد النار وقتال السغب

أما زياد بن أبى سفيان فقد ولى سنان بن سلمة بن المحبق الهذلى على ذلك الإقليم ففتح ما بين مكران والقيقان عنوة، ثم سار إلى منطقة البودهية المجاورة وأقام هناك وضبط البلاد ولكنه استشهد بعد حكم استمر سنتين وتوالى الولاة لا يتجاوزون القيقان والبوقان وقصدار، وهى من المدن الداخلية فى إقليم مكران، وعندما بويع عبد الملك بن مروان خليفة على المسلمين سنة٦٥هـ= ٦٨٤م كان حال هذا الإقليم على ما كان عليه، فقد شغل الخليفة عنه بما واجه من حروب وفتن داخلية، ومعنى ذلك أن المسلمين لم يتعدوا حدود مكران إلا زمن معاوية حيث استولوا على شرق إقليم بلوخستان وقلات ثم تقدموا نحو قندهار وكابل ووقفوا عند ذلك الحد أى فى المنطقة الممتدة بين كابل ومكران عند الشاطئ.

ثم تولى الحجاج بن يوسف الثقفى أمر العراق والولايات الشرقية سنة ٧٥هـ=٦٩٤م فقام بدوره سعيد بن أسلم بن زرعة الكلابى على ثغرى مكران

والبوقان، وقد أمكنه تنظيم البلاد إداريا وماليا واستطاع بمعاونة موظفين أكفاء جدد أن يضبط الإقليم وأن يحصل منه أموالا كثيـرة بفضل سياسته ودهائه، ولكن خرج عليه جماعة من العرب الوافدين على هذه البلاد زمن الفتنة والذين خضعوا لملكها المسمى "داهر" وكان يتزعم هؤلاء معاوية بن الحـارث العلافى ومحمد بن الحارث العلافى، وقد غـلبا على هذه البلاد، وقتـلا أميرها واستقـلا بها من سنة ٨٠ إلى سنة ٨٥هـ=٦٩٩ - ٧٠٤م، وكان الحجـاج قد أرسل واليا من قبله هو مـجاعة بن سعر التـميمى، ففـتح ووصل إلى بعض نواحى "قنديل" وحمل العلافـيين على الفرار إلى داخل البلاد وعادت مكران للسـيادة الأموية، ولما مات ذلك الوالى بعد سنة، اختار الحجاج محـمد بن هارون بن زراع النمرى ليحل محله. وقد نجح ابن هارون فى تنظيم ديوان مكـران وقضى على زعـماء الـفتنة فـيه وتـتبع القـتلة من العلافيين على مدار خمس سنوات وقضى عليهم أن يظهر العداء لملك السند.

وقد سـاعد اسـتـتباب الأمن فى بلاد العـراق وانتظام أمـر الخلافة الأمـوية واستقرار الأوضـاع بها والقضاء نهائيا على ما كـان هناك من فتن، ساعد ذلك كله على توجيهات القوات الإسلاميـة للجهاد ونشر راية الإسلام فى مناطق جديدة من العالم. وخاصـة وقد أكسبتهم الغـازات الثغرية دربة على القتال ومعـرفة بأساليب العدو وفنونه وخبرة بالمحيط الهندى ومسالـكه، ثم تحولت الغازات الثغرية البحرية إلى هجوم بحرى سافر على يد أمير البحر الوالى محمد بن هارون.

فى ظل هذه الظروف كان الوليد بن عبد الملك قد تولى الخلافة وورث ملكا مستقرا عن أبيه وقد دفعه ذلك إلى التفكير فى استئناف حركة الفتوحات الإسلامية على كل الجهات.

أما بلاد السند فقد حـدث فيها أمر ترتب عليه تغيير كـامل فى السياسة التى كان "الحجاج" ومـن سبقه يتبنونها إزاء إقليم مكران، هذا الأمـر دفع الحجاج إلى التفكير فى إرسال قـوات لفتح بلاد السند، لعل نور الإسلام يشرق عليها جـميعا ونتخلص نهائيا من مضايقات الأعداء القابعين هناك.

إنما حادثة تتخلص فى أنه حوالى سنة ٩٠هـ=٧٠٨م أهدى ملك جريرة الياقوت (سرنديب - سيلان) للحجاج بعض الهدايا القيمة، وقد حملتها ثمانى عشرة سفينة عربية واتجهت نحو بلاد العراق، وقد صمت هذه السفن بعض النساء المسلمات اللائى عمل آباؤهم بالتجارة وماتوا فى "سرنديب" وكان ملك هذه البلاد يبغى بذلك التودد إلى أمير العراق، وبينما كانت السفن قريبة من ميناء "الديبل" ببلاد السند، هجم عليها جماعة من القراصنة ممن يسمون بالتكامرة، واستولوا عليها بكل ما فيها ومن فيها من التجار والنساء المسلمات ومضوا بهم إلى داخل بلاد السند وعلم الحجاج بما جرى عن طريق تاجر تمكن من الهرب وأخبره.

وبرغم ضيق الحجاج من تصرفات القراصنة ومن حماية ملك السند لهم، ومن مساندة العلافين المتمردين على حكومة بنى أمية إلا أنه آثر اللجوء إلى الطرق السليمة أولا، وذلك أنه من الحكمة ألا يستخدم العنف فى مثل هذه الظروف، خاصة وأرواح المسلمين والمسلمات الذين لا حول لهم ولا قوة فى أيدى هؤلاء المجرمين، وقد يقومون بالقضاء عليهم فى لحظة غضب، ومن هنا وجدنا الحجاج يؤثر إرسال رسالة إلى ملك السند يطالبه فيها بالتدخل وإرسال السفن وإطلاق سراح الأسرى، ولكن "داهر" ملك البلاد اعتذر بأنه لا سلطان له على القراصنة اللصوص وليس فى استطاعته القبض عليهم أو عمل أى شيء يساعد على حل القضية.

والواقع أن هؤلاء كانوا من أعوان ملك السند، وكان يسبغ عليهم حمايته كما أثبتت الوقائع بعد ذلك، ومن هنا غضب الحجاج، فقد تأكد لديه سوء نية ذلك الملك، ورأى أن الواجب يفرض عليه استخدام القوة لإنقاذ الأسرى وتأديب القراصنة، ولم تكن أمامه حيلة أخرى بعد أن أغلق "داهر" سبل السلام أمامه، وفرض عليه اللجوء إلى القوة ما من ذلك بد.

وقد أعد الحجاج جيشا بقيادة عبيد الله بن نبهان السلمى، ووجهه بحرا إلى ميناء الديبل (كراتشى الحالية) عن طريق عمان، ولكن ذلك الجيش فشل فى تحقيق

مهمته، ذلك أن الملك " داهر " كان ينتظر قدومه مستـعدا لمواجهته، وقد استشهد عبد الله نفسه فى المعركة مع الكثيرين من جنده.

لم تدفع نتيجـة المعركة الحجاج لليـأس ولم يستسلم، بل أعد جيـشا جديدا سنة ٩١هـ = ٧٠٩م جعل القيـادة عليه لبديل بن طهفة البـجلى، وقد أتخذ ذلك الجيش طريق البر إلى عمان ومنها إلى إيران فـمكران حيث أمده الوالى محمد ابن هارون بثلاثة آلاف من الجنود، أضيفوا إلى ثلاثة آلاف فارس كانوا معه، وقد أعد هلم " داهر " جمعا قوامه أربعة آلاف مزودين بالأسلحة، تعاونهم عشرات الفيلة وجعل عليهـا ابنه المسمى " جيسـية " وعند " الديبل " دارت معركـة عنيفة بين الجانبين استمرت طوال اليوم. وقد ربط القـائد " بديل " خلالها عينى فرسه لأنها كانت تهاب الفيلة، وقاتل بشجاعة نادرة وصـرع ثمانين من أعدائه ولكنه استشهد آخر الأمر وخسـر جيشه المعركة ووقع بعضـه فى الأسر وانضم إلى الموجودين فى سجن الديبل.

وصل الخبر للحـجاج فاستشـاط غضبا وآلمه للغاية أن يـلقى خيرة جنده هذا المصيـر على أيدى هؤلاء المجوس، فأقسم ليـفتحن هذه البلاد وينشـر الإسلام فى ربوعها، وقـرر القيام بحملة منظمـة، يعد هلا جيدا وتعـمل على فتح بلاد السند وتنتقم من ذلك الملك العنيـد، وكان على والى العراق والمناطق الشرقـية أن يبعث للخليـفة الوليـد بن عبـد الملك ينهى إلى ما حـدث ويستـأذنه فى إعداد الجـيوش وإرسالهـا لتعمل ضد من يقـفون فى سبيل تبليغ كـلمة الله لكل السكان فى بلاد السند.

أما الخليفـة فقد تردد أول الأمر، لأنه كان لا يزال يتهـيب تلك البلاد، فهى مناطق واسعـة بعيدة عن مـقر الخلافة فى دمـشق، فالمسافـة بينها وبين العاصـمة الأموية تصل إلى ٢٥٠٠ كيلو متر، كما أن طبيعتها صعبة وجغرافيتها غير واضحة لدى المسلمـين، ففتـحهـا والحالة هكذا قـد يكلف المسلمين الكثـير من النفـقات والأرواح، ولكن الحجاج عاود الكرة موضحـا ما عنده من خطط عسكرية محكمة

تضمن النصر بإذن الله، وتعهد أن يرد إلى خزينة الدولة ضعف ما ينفقه على فتح بلاد السند مما يدل على ثقة فى الفتح وفى وفرة ما سيحصله من مغانم من ذلك الفتح، وقد وافق الخليفة الوليد آخر الأمر، فكانت حملة محمد بن القاسم الثقفى.

وعندما قام ابن القاسم هذا بحملته كان المسلمون قد نجحوا فى فتح بعض المناطق بجنوب أفغانستان الحالية، ثم اتجهوا نحو كرمان ومكران - غرب إقليم بلوخستان الآن - وكذلك فتحوا سستان، ثم كانت حملة ابن القاسم الذى أتم الله على يديه نعمة إشراف الإسلام بكل مناطق السند ودخول أهلها فى دين الله أفواجا، فلنحاول منذ الآن متابعة أحداثها.

محمد بن القاسم
يفتح بلاد السند والبنجاب
زمن الوليد بن عبد الملك

محمد بن القاسم الثقفى فاتح بلاد السند

أحداث الفتح

فى سنة ٩٢هـ = ٧١٠م اختار الحجاج صهره وابن أخيه عماد الدين محمد بن القاسم الثقفى - الذى كان واليا على الرى ببلاد فارس - وعينه قائدا على الجيش الإسلامى الذى تقرر توجيهه لفتح بلاد السند، وذلك لما تميز به من أخلاق عالية وشجاعة وفروسية نادرة وإقدام، رغم عمره الذى لم يكن تجاوز السبعة عشر ربيعا، وأيضا لأن تلك كانت رغبته، ذلك أنه قال للحجاج " إنى لا أطلب منصبا ولا أطالبك برزق وإنما أطلب منك أن تعيننى على موته فى سبيل الله، فأعننى على الموت يهب لك الله الحياة " لقد سئم الحروب الأهلية وأراد توجيه همته لمجاهدة أعداء الإسلام ونشر ذلك الدين الحنيف.

وعلى كل حال لقد كان على ذلك الشاب أن يتجه نحو بلاد الهندى الغريبة عليه، وأن يقاتل عدوا انتصر على قائدين مسلمين من قبل بسهولة، وقد كان ابن القاسم أهلا للثقة به لحكمته ورزانته ومواجهته العدو دون خشية أو وجل، ولم يكن ما قاله المنجمون عن حسن طالعه وحظه وراء اختيار الحجاج له كما يذكر بعض الباحثين.

وقد زوده الوالى بكل ما يحتاج إليه من أسلحة وذخائر وأموال ولم يبخل عليه بأقل الأشياء حتى الخيوط والمسال كما عمد الحجاج إلى القطن المحلوج فنقع فى الخل الحاذق ثم خفف فى الظل وقال: " إذا صرتم إلى السند فإن الخل بها ضيق فانقعوا هذا الخل فى الماء واصطبغوا. . . " وجعل تحت أمره القائد عددا من خيرة الفرسان والمشاة بلغ ستة آلاف ما بين فارس وراجل وحرص على توديعهم بنفسه على رأس أفراد الشعب.

وقد وصل محمد بن القاسم إلى شيراز من الرى والتحق بالجيش هناك

ومكث بهذه المدينة ستة أشهر يرتب جنده ويدرب رجاله ويتعرف على البلاد وينظم جيشه ثم رسم خطة الفتح التى اعتمدت على إرسال بعض المجانيق والأسلحة على ظهر بعض السفن، وقد عين عليها اثنين من القادة وأمرهما أن يسبقاه إلى ميناء الديبل وأن ينتظراه هناك، وكانت السفن العربية فى عهد الوليد قد أصبحت تتخذ دور المبادأة بالهجوم، فالعرب قد استفادوا من حملاتهم السابقة ومن احتكاكاتهم ببحرية الهند، ولا يبعد أن يكون قد أعدوا سفنا يمكنها مواجهة أساطيل السند والسيطرة على المحيط الهندى أما ابن القاسم نفسه فقد سلك طريق البر مارا بإقليم مكران معه خمسة عشر ألفا من أهل الشام والعراق ومن الفرس والعرب، بالإضافة إلى ثلاثة آلاف من الجمال يحمل على نصفها الزاد والمئونة والسلاح، ويتقارب أفراد الحملة ركوب ١٥٠٠ منها بحيث خصص جمل واحد لكل أربعة أفراد.

وقد وصلت القوات إلى إقليم مكران فى نفس عام ٩٢هـ = ٧١٠م وبقيت هناك أياما للراحة والاستعداد لدخول بلاد السند، وقد تم اجتياز الحدود من مكان اسمه الآن " داربيتجى "Darbiji دون أن يصادف المسلمون أثرا لقوات "داهر" أما الحجاج فكان على اتصال دائم بالجيش وقائده لا تغيب عنه توجيهاته ونصحه.

وقد حرص ابن القاسم على أن يستقر الوضع ويستتب النظام فى البلاد الواقعة غربى نهر السند قبل أن يعمل على الوصول إلى الضفة الشرقية لذلك النهر حيث تقع عاصمة " داهر " ملك السند.

وقد تحرك الجيش المسلم ونجح فى فتح بعض البلاد مثل "فنزبور" و"أرمابيل" قبل أن يصل إلى "الديبل" كثيرا من رجال الميد والجات (الزلط) وهى من القبائل السندية التى تركت مواطنها الأصلية بسبب سوء معاملة البراهمة لهم، إذ كانوا يعتبرونهم من المنبوذين ويحرمون عليهم امتطاء الدواب ولبس الملابس الغالية، ولم يكن يسمح لهم إلا بالعمل فى المهن الحقيرة، وقد أفاد المسلمين من شجاعة هؤلاء ومعرفتهم بمسالك السند وأحوال أهلها.

بعد ذلك تم تقسيم أفراد الجيش إلى مقدمة ومؤخرة وقلب، وبقى القائد فى القلب ومعه كبار العسكريين، وحاصر مدينة "الديبل" لمنع الزاد والمدد عن سكانها، وحفرت الخنادق وركزت الرماح حول حصن الديبل حيث يوجد أسرى المسلمين كما نظمت دوريات المراقبة والاستكشاف، وأحاط الجند الإسلامى بالحصن من كافة نواحيه، ووصلت رسائل من الحجاج تستحث الجند وتعمل على رفع معنوياتهم، وجهزت المنجنيقات، بينها منجنيق كبير عرف باسم "العروس" كان يحتاج إلى خمسمائة رجل لتشغيله، وقد أمر محمد بن القاسم قائد هذا المنجنيق واسمه " جعوبة المسلمى " فصوب قذائفه نحو العلم المتدلى من أعلى قمة لمعبد بوذى كبير وكان ذلك عملا بنصيحة بعض البراهمة، فقد أخبره أحد هؤلاء أن أهل وسكان هذه المنطقة يعتقدون بأنه لن يتمكن أحد من فتح هذه البلاد مادام هذا العلم مرفوعا " فهناك يد (صنم) عظيم، عليه دقل دويل، وعلى الدقل راية حمراء، إذا هبت الريح أطافت بالمدينة وكانت تدور " .

وقد استغل المسلمون هذا الإيمان بتلك العقيدة بهدف التأثير على نفسية سكان البلاد وتحطيم معنوياتهم، وهذا ما حدث بالفعل فقد أيقن أهل البلاد بالهزيمة وملأ الرعب قلوبهم عندما رأوا علمهم يهوى أمام أنظارهم، عندئذ تمكن المسلمون من دخول المعبد وأخرجوا ٧٠٠ فتاة كن يعملن فى خدمة الأصنام، ثم بدأوا هجوما شاملا على كافة جوانب الحصن فى وقت واحد، ووضعوا السلالم ليتسلقوا عليها إلى داخل الحصن، ونجحوا فى فتح أبوابه وقتلوا من كان بداخله، إلا من ثبت حسن معاملته لأسرى المسلمين، ذلك أن من كان بالداخل كان مسلحا، ولأنهم كانوا مصريين على الحرب، ثم لأنهم هم الذين آذوا المسلمين والمسلمات أثناء أسرهم فى الحصن، أضف لهذا أن الحجاج أراد أن يكونوا عبرة لغيرهم، أما حاكم " الديبل " فقد أمكنه القفز من فوق الحصن وهرب ليلا ثم توجه نحو عاصمة " داهر " ملك السند.

بعد ذلك جاء رجل من البراهمة وأرشد محمد بن القاسم إلى موضع السجن الذى فيه أسرى المسلمين داخل الحصن فتوجه إليهم وأطلق سراحهم.

وهكذا برهن تطور الحوادث على وجود المسلمين فى السجن الرسمى لملك السند وبداخل الحصن، مما يؤكد أنه كان وراء القبض عليهم وأنه هو الذى دبر للاستيلاء على سفنهم وممتلكاتهم، وأنه كان يكذب عندما زعم من قبل عندما اتصل به الحجاج أنه لا صلة له بهذه العملية، وأن ما جرى لهؤلاء إنما هو من فعل القراصنة واللصوص دون أن يكون له دخل فيه.

ولما تم لابن القاسم فتح الديبل، مكث بها فترة ونظم أمورها ووزع المغانم على مستحقيها وأرسل بالخمس إلى دار الخلافة، ثم عين حاكما للمدينة وترك لها ما يلزمها من حماية عسكرية تمثلت فى أربعة آلاف جندى. وقد اختار لهم مكانا أسكنهم فيه وأسس لهم مسجدا جامعا، وهذا هو شأن المسلمين عندما ييسر الله لهم فتح بلد ما، وقد انتهى ابن القاسم من ذلك كله فى رجب ٩٣هـ = ٧١١ م. وفى نفس العام أتاه كتاب الحجاج يقول: أنت أمير ما افتتحت.

أما "داهر" فقد أغضبته نتيجة القتال وأسل لابن القاسم رسالة تفيض تهديدا ووعيدا قال فيها: إن ما حدث فى "الديبل" ليس نجاحا كبيرا، فهذه المدينة لا يقطنها رجال مستقرون، ومن فيها ليسوا إلا تجارا لا يعرفون شيئا عن أصول وفن الحرب، ولا يجدى انتصارك على هؤلاء لقد سبقك جيشان إلى بلادى السند وقتل القائد فى كل منهما، وإذا لم تنسحب من بلادنا فستلقى نفس المصير، فلا تعتز بما رأيت فى "الديبل" فالشعب القوى يعمر أماكن أخرى فى السند، إننا أمة شجاعة ورجالنا يحاربون إلى آخر رمق ولا يستسلمون أبدا، وقد رد عليه ابن القاسم برسالة جاء فيها:

"إنك تفخر علينا بخيلك وفرسانك وجندك وما عندك من أسلحة ومعدات، ولكننا نثق فى الله وفى دفاعه عنا وهو - سبحانه - قد ضمن لنا النصر والكرامة لقد ساعدت الإيرانيين ضدنا وكنت سبب ثورات قامت تعادينا فى بلوخستان

ومكران بل أرسلت جندك هناك، فعلت ذلك دون أن نسئ إليك بشيء ثم استولى اتباعك على سفننا وأسروا أطفالنا ونسائنا وقد وجدناهم فى سجنك، مما يعنى أنك وراء القراصنة واللصـوص، فلماذا ذلك كله؟ وقد عرف خليفـة المسلمين كل ذلك وأمر بمعاقبتك وسنقاتلك حتى تفنى أرواحنا".

ولم يؤثر هذا التهديد على محمد بـن القاسم، ومضى القائد الشاب يحمل الدعوة الإسلامية ويعمل على تبليـغها للناس ونشرها وأمكنة فتح العديد من المدن والانتصار على المحاربين المعاندين.

فتوجه نحو مدينة النيرون - قرب حـيدر أباد السند الحالية على مسافة ٧٥٠ ميلا من مكران وتسمى أيضا " نيرانكوت " - ونزل فى ضـاحية من ضواحيها فى جمع من قادته ورجاله، وكان الوالى البـوذى على تلك المدينة غائبا، وما لبث أن عاد وبعث برسالة خاصة لابن القاسم تتضـمن اتفاقا سريا جرى بينه وبين الحجاج منذ عام يتضـمن رضاه بحكم المسلمين، وقد فتح أبواب المـدينة أمام القائد المسلم وجاء إليه يحمل هداياه فخلع عليه ابن القاسم وأكرمه، وبذلك سلمت هذه البلدة دون إراقة نقطة دم واحدة.

وبعد استسلام النيرون كتب الحجاج لابن القاسم يقول:

" لقد استسلمت النيرون وعليك أن تعامل أهلهـا بالشفقة وأن تستولى على قلوبهم، وإذا استـسلم من رفع السلاح عليك فلا تؤذه ولتعـفو ولتصفح ولـتحفظ عهدك حتى يثق فـيك الناس، وإذا رجعت مرة فى عهدك فإن ذلك يـفقدك تقدير الناس ولن يأمنوا لك" وأوصاه فى مناسبة أخرى فقال:

" إذا أردت أن تحفظ بالبلاد فكن رحيما بالناس ولتكن سخيا فى معاملة من أحسنوا إليك، وحاول أن تفهم عدوك، وكن شفوقا مع من يعارضك، وأفضل ما أوصيك به أن يعرف الناس شجاعتك وانك لا تخاف الحرب والقتال ".

وعجيب أن تـصدر هذه الوصايا من الحجـاج الذى أشتهر بالشـدة والقسوة والعنف فى تعامله مع خصومه.

ومهما يكن من أمر فقد توجه ابن القاسم بعد فتح (النيرون) ناحية سيوستان (سيهوان وسيبى الآن) على بعد ١٣٠ كيلو مترا إلى الجنوب الغربى - ونزل المسلمون فى موضع يقال له "موج" أو "ماوج"، وكان حاكم تلك المنطقة برهميا، فاجتمع به رعاياه من البوذيين وأخبروه أنهم مسالمون لا يرغبون فى سفك الدماء وأنهم يثقون فى مسالمة المسلمين لمن سالمهم، ولكن الحاكم رفض وجهة نظرهم، فاضطر الجيش المسلم لمحاصرة المدينة ورميها بالمنجنيقات، وضيق عليها الخناق مدة أسبوع كامل حتى يئس حماتها وتوقفوا عن القتال، وفر حاكمها تحت جنح الظلام إلى منطقة "البودهية"، عندئذ دخلها محمد بن القاسم واستولى عليها وغنم منها، وأمن البوذيين، لأنهم قبلوا الدخول فى طاعته سلفا ولم يستول على ممتلكاتهم كما فعل مع البراهمة.

ومن إقليم "سيوستان" هذا أهل "جنة" وهم جماعة كبيرة من البوذيين أسلموا جميعا زمن فتح السند على يدى محمد بن القاسم.

بعد ذلك توجه محمد بن القاسم نحو منطقة "البودهية" (البدهة) ونزل على شاطىء نهر يعرف بنهر كنبىء فى نفس المنطقة، وقد قرر حاكم الإقليم - بعد تشاور مع رجاله وقواده - القيام بغارة ليلية على معسكر المسلمين، ولكن الجيش ضل طريقه فى الصحراء، واد يخبر حاكمه، فتوجه ذلك الحاكم نحو محمد بن القاسم وأعلن استسلامه، وعاونه بنفسه فى القضاء على المتمردين حيث دخل المسلمون العاصمة الإقليمية "سيسم" وقضوا على فلول المعاندين.

وكالعادة اهتم محمد بن القاسم بتنظيم الأمور فى منطقة البودهية وعين خراجها، وساعد المسلمين على الاستيطان فيها وبنى بعض المساجد، وعين عليها حاكما ونصحهم بالاهتمام بالبلاد والحرص على راحة الشعب ورخائه.

من هذا العرض يبدو أن المحاربين - حتى الآن - كانوا من الهنادكة أو الهندوس أما طبقة التجار والحرفيين وغيرهم من المسالمين فكانوا بوذيين " وهناك من الشواهد ما يدل على مساندة البوذيين للمسلمين، فراهب منهم هو الذى قدم

لابن القاسم وأخبره بضرورة إسقاط العلم من أعلى المعبد لتسقط "الديبل" وواحد آخر منهم كان واسطة بين القائد المسلم وبين الأسرى من المسلمين، ومدينة "النيرون" كانت تحت حكم حاكم بوذى له مراسلات مع المسلمين قبل أن تطأ قدم محمد بن القاسم أرض السند وقد توقف القتال لمجرد وصول الحاكم وعودته من سفره وأعتذر للمسلمين وسلمهم المدينة. كذلك نصح البوذيون حاكم "سيوستان" بعدم محاربة المسلمين الذى لا يخالفون وعدهم، وعندما رفض، أعلنوا بصراحة أنهم لن يقاتلوا معه، ونفس الشيء حدث فى "كاكا" و"كوتاك" حيث لم يكتف الحاكم بعدم حرب المسلمين بل ذهب إلى معسكرهم وقدم لهم معلومات مفيدة، وسنعرف أيضا فيما بعد أن قادة البوذيين هم الذين أمدوا ابن القاسم بسفن يعبر بها إلى الضفة الشرقية لنهر السند، وهكذا تدل الشواهد على معاونة البوذيين للمسلمين ومساعدتهم لهم على فتح السند، بل أن المسلمين منحوهم ثقة لم يحظ بها بعض مواطنيهم، وهذا يسر مهمة الفاتحين.

وفى هذه الآونة تلقى ابن القاسم رسالة من الحجاج تشجعه وتشد أزره وتعطيه توجيها ببذل وعوده للزعماء فى مختلف الولايات حتى ينال مساعدتهم، وأوضح له وسائل التوصل إلى السلطة وتتلخص فى أربع هى: المداراة وبذل المال والرأى الصائب فى محاربة الأعداء بعد دراسة أمزجتهم ومعرفة نواحى قصورهم ثم إدخال الرعب والهيبة مع القوة والشهامة، ثم طلب منه أن يعبر نهر السند إلى ضفته الشرقية كى يدخل الفزع إلى قلب العدو، أخيرا أوضح له الحجاج أسلوب معاملة الرعية وفقا للخيار الذى تميل إليه من اعتناق للإسلام أو قبول الطاعة للمسلمين ودفع الجزية أو التصميم على الحرب والقتال.

وقد اضطر ابن القاسم أن يعود إلى مدينة "اشبهار" - بالقرب من مدينة "نيرون" بناء على أوامر الحجاج - وتمكن من الإجهاز على الحركة مناوئة قام بها بعض البوذيين وبعض رجال القبائل هناك، ثم عاد يتقدم نحو نهر السند وقضى فى طريقه على كل مقاومة وظل يواصل مسيرته حتى وصل إلى الضفة الغربية لنهر

السند، فى موضع مقابل لجيور (جيبور) ولمدينة " راور " اللتين تقعان على الضفة الشرقية لنفس النهر.

وقد أرسل حاكم منطقة " بت " البوذى، رسالة إلى القائد المسلم يعلن فيها ولاءه واستعداده للتعاون مع المسلمين، على أن يتم ذلك بطريقة ترفع عنه الحرج أما الملك " داهر " الذى تربطه به صلة قرابة، وقد تم بالفعل ترتيب طريقة سلم بها نفسه وجنده لابن القاسم، وقد أكرمه الأخير ورحب به وجعله حاكما على منطقة " بت " كما أهدى لمعاونيه من التكاكرة ثم طلب منه تجهيز السفن والمراكب اللازمة لعبور الجيش الإسلامى إلى الضفة الشرقية لنهر السند.

وهكذا بدأ الناس يتعرفون على الإسلام ويدخلون فى دين الله أفواجا، ونجح ابن القاسم فى مسيرته المظفرة حتى أضحى على شاطىء نهر السند الذى تقع عاصمة " داهر " على ضفته الشرقية.

فى هذه المرحلة بعث ابن القاسم رسولا إلى ملك السند كما فعل السابقون ممن فتحوا مناطق أخرى من العالم، وقد عرض الرسول على " داهر " الإسلام أو تسليم البلاد صلحا والرضى بحكم المسلمين، فإن أبى فليس أمام المسلمين إلا قتاله حتى يحكم الله بينهم وبينه، وهو خير الحاكمين، وقد طلب الرسول من ملك السند - فى حالة إصراره على الاختيار الأخير - أن يختار عبور النهر إلى حيث يوجد المسلمون على الضفة الغربية لنهر السند، أو يسمح لهم بالعبور إلى الضفة الشرقية، ليتيسر التقاء الفريقين فى ساحة القتال.

وقد عرض الملك الأمر على مستشاريه، فنصحه وزيره بأن يترك المسلمين يعبرون إليه فى ناحيته الشرقية، بذلك يكون النهر من خلفهم، وجند السند أمامهم، وتنقطع عنهم المؤن والإمدادات العسكرية فيسهل القضاء عليهم.

ولكن محمد العلا فى - أحد المتمردين على الدولة الأموية والذى يحظى بتأييد وحماية ومعاضدة " داهر " - رفض فكرة الوزير ورأى العكس يعنى أن

المصلحـة أن يجتـاز جند البراهمـة النهر إلى حـيث يوجد المسلمـون على الضـفة الغربية، وحجته أن المسلمين يجاهدون فى سـبيل الله، ويبحثون عن الشهادة طلبا للجنة ولن يرضيهم إلا الموت لرفع كلمة الله أو تحقيق الانتصار، فهم صابرون فى القتال يستمـيتون فى جهادهم بروح عالية، خاصة إذا رأوا أنفـسهم قاب قوسين أو أدنى من العاصـمة السندية، وأضاف " العلافى " فـى نصيحتـه للملك أنه ينبغى إرسال القراصنة واللصوص ليقوموا بالاستيلاء على المؤن والمواشى والعلف والقوت من خلف الجيش الإسلامى، وبذلك يتـعرض للجوع وتفتك به الأمراض ويتـيسر القضاء عليه.

وقد احتار الملك ولم يعرف أى الرأيين يختـار، وأخيرا قرر ترك الأمر لمحمد ابن القاسم وفـوض إليه اختـيار ما يشـاء، فقرر القـائد المسلم العبور إلى الضـفة الشـرقيـة، وبدأ يتصل بالمسلمـين الجدد مـن أهل البلاد، ويطلب منهم التـوجيـه والنصح وإرشاده إلى أنسب مكان يتـيسر عليه اجتيـاز النهر منه، وفى نفس الوقت طلب الحجـاج إمداده بخريطة مـفصلة للمنطقـة بهدف دراستـها وإبداء الرأى، ثم استقر الجميع بعد المشاورات على اختيار نقطة بعينها للعبور منها.

أما "داهر" فقد بنى خطته العسكرية على أساس الاحتفاظ بالقسم الأكبر من جيشـه عند مدينة "راور" بالشاطىء الشرقى، وأن تبـقى السفن بالناحية الشـرقية أيضا فى مقابل "بت" على الضفة الغربيـة حتى لا يتمكن المسلمون من العبور من هذه المنطقة السهلة وحتى يجبروا على اجـتياز النهر من مكان صعب، ثم أمر أحد وزرائه أن يكون جيشـا وأن يقف على أهبة الاستعداد للهجـوم على المسلمين فور وصولهم إلى الضفة الشرقية، وكان فى الإمكان جمع ٥٠ ألف فارس وعدد ضخم من الفيلة ونقل أمتعة ورجال ومعدات ضخمة من "برهمان أباد" إلى "روار".

وبرغم كل الدراسات التى أسهمت فيها كل الأطراف، فإن اجتياز نهر السند إلى ناحيته الشرقـية لم يكن أمرا سهلا، فقد واجه الجـيش المسلم صعوبات عديدة ولكنه تمكن من تجاوزها.

فقد اضطر محمد بن القاسم أن يرجع مرة أخرى إلى " سيوسان " للقضاء على حركة تمرد معاوية، لأنه لم يكن يرغب فى اجتياز النهر وهو مشغول بأمر من خلفه، فلا بد من التأكد من فتح الطريق ووصول الإمدادات والمؤن اللازمة لأفراد الجيش، وقد تحرك القائد المسلم إلى منطقة " جهم" وتعطل بها قرابة شهرين بسبب هذه الاضطرابات وبسبب مرض أصاب الخيل، وبسبب عجز فى المواد الغذائية والمواشى والعلف. كذلك لم تكن حالة المناخ والرياح مناسبة، الشىء الذى أثر على الحالة الصحية والمعنوية للجنود.

وقد انتهز " داهر " سوء الأحوال وأرسل يهدد " ابن القاسم " ويعرض عليه المساعدة الغذائية على أن ينسحب إلى الخلف، ولكن ابن القاسم أكد لعدوه أنه لن يترك أرض السند قبل إرسال رأس " داهر" للحجاج.

أما والى العراق فقد سمع بما آل إليه حال الجيش المسلم، فبادر بإرسال ألفين من الخيول العربية الأصيلة مع بعض المواد الغذائية والخل المجفف، كذلك بعث بمرسوم عين بمقتضاه محمد بن القاسم نائبا عن الحجاج فى بلاد السند، وفوض إليه التصرف فى شئونها، كما شجعه على عبور نهر السند إلى ضفته الشرقية مهما كانت التكاليف، ونصحه أن يكون عبوره من منطقة "بت" حيث يقل الماء ويقل عرض النهر، وأشار عليه ببناء كوبرى من القوارب تيسيرا لعملية العبور.

وبالفعل وصل محمد بن القاسم إلى "ساكرة" فى منطقة جهم (جيم) وبدأ فى تجهيز المراكب اللازمة للعبور، وتزويد الجيش بالمواد الغذائية والأسلحة، وأرسل بالوحدات الاستطلاعية إلى جهات متعددة من النهر، كما بعث بفرق عسكرية إلى نواح مختلفة بهدف العمل على منع وصول الإمدادات إلى جند "داهر" مع إعاقة تحركاتها وقت عبور الجيش المسلم وحصرها فى بقاع معينة، والتعامل معها إذا لزم الأمر، كما أمر بتوفير المزيد من الغذاء والعلف للقوات وأصبح بهذا كله مستعدا لاجتياز نهر السند إلى ضفته الشرقية.

أما "داهر" فقد تجاهل تحركات القائد المسلم واشتغل بالصيد ولعب الشطرنج استهانة بالمسلمين واطمئنانا لما أعد من خطط عسكرية.

وقد أمر محمد بن القاسم بأن يتقدم محمد بن مصعب الثقفى على رأس وحدة صغيرة لمراقبة الطريق، تتلوه فرقة من ألف فارس يقودها "بنان بن حنظلة" لحماية المقدمة، ثم سار هو نفسه على رأس القواد المسلمين وكبار التكاكرة والزط مع الجيش الرئيسى حتى وصلوا إلى شاطىء النهر، وهناك اختار موضوعا قليل العرض، ثم أحضرت المراكب المحملة بالرمال والحجارة وألواح الخشب، وأمر القائد بتسمير الألواح على المراكب فى صورة جسر يمكن العبور عليه للجهة الأخرى. كما أمر الوحدات البحرية الانتحارية أن تتوجه بسفنها نحو الشاطىء الشرقى من مناطق متعددة لتحول بين قوات البحرية السندية وبين التقدم ولتحمى الجيش المسلم فى وسط النهر أثناء العبور. أما بقية الجيش الإسلامى فقد تلقى أمرا بصف المراكب على طول الشاطىء الغربى وربط بعضها ببعض على امتداد النهر وأن يحمل الجنود عليها، أخيرا أمر محمد بن القاسم بفك رأس المركب الأول حتى يسير فى النهر متجها نحو الضفة الشرقية، يتلوه الثانى، وهكذا.

وبذلك نجح المسلمون فى بناء جسر من المراكب عبروا عليه فى شجاعة وحذر وبدون خسارة كما يذكر " ماجمدار الهندى ".

وقد اندفع المسلمون فى إصرار واستبسال داخل مناطق الناحية الشرقية للنهر، وفاجأوا العدو بسهامهم ودخلوا معه فى قتال مرير انتصروا فيه فاندهش جند " داهر " لما حدث وأخذوا يولون الأدبار ويهربون فى عماية الظلام حتى وصلوا إلى ملكهم فى مقر حكمه وأخبروه بما حدث، فانزعج وكاد يفقد وعيه، بينما تمكن جيش المسلمين من إلحاق هزيمة مريرة بوحدات عسكرية قادها "محمد العلاقى" المتمرد على سلطان الحكومة المركزية فى دمشق، وأخرى قادها واحد من وزراء ملك السند، وواصل مسيرته نحو العاصمة، حيث استعد الملك "داهر" بأقصى ما يستطيع موقنا أنه يلقى المسلمين فى معركة مصيرية نتيجتها الموت أو

البقاء، ولذلك بذل كل جهد وسعه، وحشـد لها كل الإمكانيات، ووفر لها جميع ما يحتاج إليه، وخطط لها أعظم التخطيط وأعد أفضل الجند وأحسن السلاح، ثم رأى أنه من الضرورى أن يتولى القـيادة بنفسه، هذا ما يمـيله عليه الموقف شاء أم أبى، بعد هزيمة "العـلافى" وهزيمة الأمير "جـيسية" وعدم تمكنهـا من الصمود أمام المسلمين.

أما ابن القـاسم فقد استـعد بأقصى طاقـته هو الأخر، واسـتسلم له بعض الأمـراء وعاهدوه علـى الولاء، ثم توجه بكـل قادته ورجـاله إلى مـوضع يدعى "نارائى" بينما عسكر "داهر" فى مكان يقال له "قاجـيجاق" وكانت هناك بحيرة تفصل بين الفـريقين، وقد واصل ابن القـاسم تقدمه قليلا نحـو نهر "دهواة" فى منطقة "جـيبور" حـيث تقع قرى كثـيرة تيسـير عليه عـملية الهجـوم على جيش "داهر" من الأمـام ومن الخلف، وكان ذلك بناء على نصـيحـة أحد أمـراء السند الذين أعلنوا ولاءهم للمسلمين، ولما علم "داهر" بموضع الجيش الإسلامى الجديد ترك قلعة "راور" وتقدم نحو "جـيبور" كذلك تقدم ابن القاسم واقتـرب الجمعان وأصبح الفاصل بينهما نصف فرسخ فقط.

وعلى امتـداد سبعة أيام كـانت تخرج فرقة مـسلمة لمحاربة فـرقة سندية فى الساحة الواسـعة بين الجيشين، وكان القـتال يستمر أحيـانا طوال اليوم، والمحصلة النهائية كانت فى صالح المسلمين ومن هنا قرر ملك السند القيام بهجوم شامل ضد المسلمين وأن يتولى القيادة بنفسه، فـأعد خمسة ألاف فارس من أبناء الأمراء ومائة فـيل حربى وعـشـرة ألاف فارس مـزودين بالأسلحـة وعشـرات الآلاف من أبناء القبائل، ثم اخـتار فيلا ضخما ركـبه ولبس درعه وأخذ سلاحه وقـوسه وصحب غلامين يمدانه بـالسهام، وقرر دخول المعركة الفـاصلة، فكان هذا أول لقاء شامل بين العرب وبين مقاتلة الهندوس الذين تمرسوا على اسـتخدام الفيلة والرمى بالنبال واستخدام النفط.

وفى التاسع من رمضـان سنة ٩٣هـ=٧١١م بدأ القتال الشامل بيـن الطائفتين

بعد أن نظم كل منهما قواته ووزع قـياداته ورتب خططه وكان " العلو فى " يعمل مع ملك السند ويقاتل المسلمين وقد استمرت المعركة طول اليوم.

ومن الطبيعى فى معركة مصيرية كهذه أن يبذل الفريقان كل طاقتهما، ولهذا كانت نتيجـة القتال فى هذا اليوم الأول سجالا، مرة يحـمل المسلمون على العدو ويتقدمون، ومرة أخرى يستخدم العدو ويتقدمون، ومرة أخرى يستخدم العدو فيلته فترد المسلمون إلى الوراء، وجاءت مـعاناة المسلمين من الفيلة فى هذا اليوم الأول، وفى اليـوم التالى لمس المسلمـون نقاط ضـعف عدوهم وأدركـو من أين يأتونهم، فأعـادوا تنظيم جنودهم، واستخـدموا المنجنيقـات والرماة، وعملوا للقـضاء على الفيلـة وتشتيت مـجمـوعات العدو بـالنيران، وألقى القـائد فيهم كلمـة ترفع من معنوياتهم وتحثهم على التزام المراكـز وذكر الله دائما، وأن يحرصوا على أن تكون أعمالهم جهادا فى سبيل الله، فاستبسل المسلمون فى قتال العدو الذى كان قد غير خططه وتنظيماتـه، كما كانت تعاونه آلاف من قـبائل الزط الشرقية وغـيرهم حتى بلغت عـدة من معـه ١٢٠ ألفا، ومع ذلك نجـح المسلمون فى دحـر بعض فرقـة فالتهب القتال وحمى وطيس المعركة، وتداخلت القوات، وانزعجت الفيلة وصمم المسلمون على نيل إحدى الحسنين إما النصـر وإما الشهادة، والوصول إلى رضوان الله والجنة.

وأثناء اشتعال المعركة تقدمت مجموعه من قادة السند نحو محمد بن القاسم وطلبـوا الأمان، فـمنحهم الأمـان، وأعلنوا إسلامـهم بين يديه، وعرضـوا خطة عسكرية تنهى المـعركة وتبرهن علـى ولائهم وصدق إيمانهم، وتقـوم على هجوم مباغت على مؤخرة الجيش السندى، وبالفـعل توالوا الهجوم من الخلف، بينما قام ابن القاسم بالهجوم من الأمام، وكان "داهر" يركب فيلا ضخما يقود بقية الفيلة، وقد أقسم واحد من قادة المسلمين اسمـه "الشجاع الحبشى" ألا يذوق الطعام حتى يقتله، وربط عين فرصه وبر بقسمه فـتقدم حتى تمكن من جرح فيل القائد الضخم الذى كانت تتـحرك بحركته كل الفـيلة، ولما هاج فيل القائد أخـذت باقى الأفيال

تترنح وتصيح، واختل توازن الجيش وازداد لهيب المعركة اشتعالا، وملت الكفة فى أول الأمر لصالح جيش السند وأصيب الشجاع بسهم، ولقى الله شهيدا، وتأثر بن القاسم نفسه من هول المعركة وطلب شربة ماء، وما لبث المسلمون أن ثبتوا من جديد بعد أن سمعوا نداءات القائد وصيحته على جنده بالثبات، وعلا التكبير الله أكبر الله أكبر يملأ الأفاق فهاجت الفيلة وسالت الدماء هنا وهناك وتكسرت الرماح والسيوف من شدة الضربات، وعادت الكفة تميل لصالح المسلمين، واضطربت أحوال جيش السند، ولم يصدق ملكهم ما تراه عينه، حيث لم يبق معه إلا فارس من أبناء القواد والأمراء من بين خمسة آلاف كانوا معه، وقد واصل المسلمون قتالهم بصورة مستميتة.

ولما آذنت شمس ذلك اليوم بالغروب أمر محمد بن القاسم قائد رمة النفط بأن يقذف هودج فيل داهر بسهام مزودة بمادة كيماوية مغموسة فى قطن ثم لفه حول رءوس السهام، وكانت هذه المادة تشتعل عند رمى السهام، فاشتعلت النيران فى الهودج وشعر الفيل بعطش شديد من شدة الحرارة، واضطر ملك السند أن يتجه به ناحية النهر ليسقيه، وهناك طارده المسلمون وأمطروه بوابل من سهامهم واشتبكوا معه فى قتال شديد، واضطر " داهر " أن ينزل من على فيله وأن يقاتل بضراوة إلى أن تمكن جندى مسلم اسمه " عمرو بن خالد الكلابى " من ضرب عنقه، وقال فى ذلك شعرا:

الخيل تشهد يوم داهر والقنا ومحمد بن القاسم بن محمد

انى فرجت الجمع غير مصرد حتى علوت عظيمهم بمهند

فتركته تحت العجاج مجدلاً متعفر الخدين غير موسد

وفى رواية الكلبى أنه قاتل ملك السند هو "القاسم بن ثعلبة بن عبد الله بن حصن الكائى" .

وعلى كل حال فقد أخفى أصحابه جثمانه فى خليج "راود" وتوقف القتال بحلول الظلام.

وفى اليوم التالى نادى ابن القاسم معلما أصحابه بغياب " داهر " ومحذرا من حيلة أو من كمين قد يكون هناك، ولكن واحدا من البراهمة أعلم المسلمين بمقتل " داهر " وأرشدهم إلى المكان الذى توجد فيه جثته فقطعوا رأسه وبعثوا به لابن القاسم الذى صلى شكرا لله عز وجل.

وقد استولى المسلمون على كثير من المغانم والكنوز والأموال وعلى عدد من الأميرات وأرسل الجميع إلى دار الخلافة.

وبذلك أصبح الطريق ممهدا لفتح باقى البلاد.

وكان ولى عهد السند قد بقى متحصنا فى قلعة " راود " على رأس من بقى من الأمراء والقادة بعد سقوط العاصمة، ثم أخذ برأى نصحه بمغادرة القلعة إلى المدينة " برهمان أباد " فهى مدينة حصينة وأهلها من المؤيدين له، وبذلك لم يبق فى قلعة " راود " إلا النساء وعدد من القادة والجند للدفاع عنها.

وفى رمضان سنة ٩٣هـ = ٧١١م توجه المسلمون لفتح القلعة وقذفوها بحجارة المنجنيقات بعد أن رفض من فيها الاستسلام، كما رموها بالسهام والرماح والنيران ليلا ونهارا حتى تهدمت أبراجها واضطر بعض من فيها إلى حرق أنفسهم، ودخلها ابن القاسم ليجد فيها ستة آلاف مسلحين، فأمر بقتلهم لرفضهم الاستسلام، أما النساء والشيوخ والأطفال فقد أصبحوا أسرى، كما استولى المسلمون على مغانم كثيرة.

بعد ذلك كتب ابن القاسم إلى الحجاج ينهى إليه مقتل " داهر " ويشرح تفاصيل ما دار من قتال، كما بعث إليه بوفد من القادة. ممن شهدوا المعركة وعاينوا أحداثها، وكان مع هذا الوفد رسالة توضح دور كل واحد من القادة وتشرح بطولاته، وكان مع الوفد الأسرى والأموال تحميه مائتى فارس مسلح، وسار الجميع من مكان المعركة إلى دمشق، حيث قدم قاتل الملك " داهر" رأسه إلى الحجاج والى العراق والإمارات الشرقية.

وقد أثنى الحجاج على محمد بن القاسم وأشاد ببطولاته فى رسالة أرسلها إليه وطلب منه تكريم زعماء القبائل والقادة الذين أبلوا بلاءا حسنا فى القتال ولم يضمنهم رسالته التى سبق وبعث بها إليه.

ويذكر " البلاذرى " عن منصور بن حاتم اللغوى - الذى قام بالسند بعد فتحها - أنه شاهد مصورا - تمثالين - أحدهما للداهر والآخر لقاتله فى مدينة بروص (بهروج)، كما شاهد مصورا (تمثالا) للقائد بديل بن طهفة فى مدينة "قند" وأنه زار قبره فى مدينة " الديبل " حيث أستشهد.

ويرجع نجاح المسلمين فى فتح تلك البلاد الواسعة إلى إيمانهم واطمئنانهم إلى ما أعد للمجاهدين عند ربهم وإلى نوعية القوات وكفاءة القيادة العسكرية والتفوق فى فن التكنيك العسكرى، ثم إلى سياسة المصالحة التى تبناها محمد ابن القاسم إزاء كل استسلم، فكان الفتح الإسلامى حريصا على رغبات السكان المشروعة أكثر منه معارك عسكرية، لقد رحب رجال الدين البوذيين بالمسلمين فى " نيرون " وثار شعب " سيهوان " على حاكمه الهندى وسلم للقائد المسلم، وهكذا ساعدت كراهية الشعب لحكامه على نجاح المسلمين، فقطاع كبير من سكان السند والملتان كان بوذيا.

وفى سنة ٦٢٢م كان قد اغتصب العرش وزير رهمى اسمه شاش chach ولم تلق حركته استجابة لأى طائفة كبيرة من الشعب، خاصة وأن هذا الملك عامل قبائل الزط والميد معاملة سيئة، وحرم عليهم حمل السلاح ولبس الحرير وركوب الخيل وفرض عليهم أن يمشوا حفاة وأن يرافقهم كلب، وجاء من بعده ابنه داهر ٤٩ - ٩٤ / ٦٦٩ - ٧١٢هـ الذى لم يصل للحكم إلا قبل الفتح الإسلامى بفترة وجيزة - واتبع نفس السياسة، فأصبحت سيطرته على السند - ومعظم سكانه من البوذيين - واهية، ولم يلق استجابة من جانب قطاعات كبيرة فى الشعب، بل إن كثيرا من الضباط والجنود تحولوا بسرعة إلى المسلمين أثناء حربهم ضد هذا الملك كما كان دعم وتأييد قبائل الزط والميد من أكبر أسباب انتصارات المسلمين، وقد

أخذ ابن القاسم فى تجنيدهم تحت قيادته واعتمد عليهم فى التخفيف من شعور العداء للمسلمين عند بعض الطوائف باعتبارهم عدوا أجنبيا، وبهم وصل إلى الانسجام الداخلى وحقق تقدما لا يقدر فى بلد شاسع يقطعه العديد من الأنهار والقنوات والمستنقعات.

مواصلة الفتوحات:

علم الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك بتفصيلات معارك المسلمين فى بلاد السند ونجاحهم فى إزاحة عقبة كبرى كانت تقف حجرا عثرة تعوقهم عن أداء واجبهم فى تبليغ كلمة الله وتوصيلها لكل الشعوب، فسر الخليفة بما تحقق من نتائج وخلع على ابن القاسم وعلى القادة وأمره أن يواصل فتوحاته فى باقى بلاد السند.

استجاب القائد لأمر الخليفة وأخذ يواصل فتوحاته فى بلاد السند فتسقط بين يديه المدن واحده تلو الأخرى فقد توجه إلى مدينة "بهرور" على بعد فرسخ من "برهمان آباد" وكان يتحصن بها - كما قدمنا - نحو ١٥ جندى، وقد قام المسلمون يقذف المدينة بالأحجار والنيران حتى تهدمت أسوارها وقتل عدد كبير ممن فيها واستولت عليها القوات الإسلامية وعلى ما كان بها من أموال وسلاح.

بعد ذلك توجه ابن القاسم نحو مدينة صغيرة بجوار بهرور تسمى "دهليلة"، وكان يتحصن بها حوالى ١٦ ألفا من الجنود، فحاربها الجيش المسلم وضيق الخناق عليها حتى اضطر حاكمها ومعظم سكانها وتجارها إلى مغادرتها ليلا فى اتجاه الهند فاستولى عليها المسلمون فى الصباح، وعين ابن القاسم عليها واليا جعله مشرفا على موانى سواحل تلك المنطقة من الضفة الشرقية لنهر السند.

بعد ذلك عمل القائد المسلم على فتح مدينة "برهمان أباد" لكنه قبل ذلك أراد أن يوجه نداء عاما معذرة إلى ربه - عز وجل - على الناس يتقون، فبعث برسائل إلى كل الحكام والأمراء فى كافة مناطق السند دعاهم فيها إلى الإسلام أو

الطاعة للمسلمين، وعرض الأمان لمن رغب فيه، فحضر عنده الوزير " سيساكر " Sisakar وطلب تأمينه، فأكرمه ابن القاسم وأهدى إليه وولاه وزارته، واستفاد بكثير من أرائه وخبراته فى مسائل الدولة وفى العمليات العسكرية، وكان الوزير من ناحيته مخلصا معجبا بالإسلام ومبادئه وقيمه الاجتماعية والأخلاقية، وقد تنبأ بأن كل السند والهند ستخضع له قريبا وستنعم كل البلاد بعدله وسماحته، وقد مات ذلك الوزير بعد سنتين من إسلامه.

أما ابن "داهر" "جيسية" Jaisiya فقد وصل إلى برهمان أباد، وتحصن بحصنها الكبير - وهى تبعد بفرسخ واحد فقط عن مدينة "دهليلة " - ومن موقع حصنه الجديد، كتب ذلك الابن إلى الأمراء والحكام يحثهم على معاونته وأن يستعدوا معه لمحاربة المسلمين، فتمكن من جمع ستة عشر من المحاربين وعشرات آلاف الجنود من مناطق السند المختلفة، وحصن المدينة تحصينا قويا وجعل على كل باب من أبوابها واحدا من كبار قادته.

أما ابن القاسم فسار إلى نفس المدينة ونزل على حافة نهر صغير بضواحيها اسمه نهر "حلوانى" ومن هناك أرسل لابن داهر يدعوه إلى قبول الإسلام أو الطاعة ودفع الجزية وإلا فالحرب، وقد مال الزعيم السندى إلى الخيار الأخير، عندئذ استعد محمد بن القاسم وحفر الخنادق ووزع الوحدات العسكرية، ثم بدأت المعركة، فكانت تخرج فرقة من أربعين ألف جندى تقاتل المسلمين من الصباح إلى المساء ثم يعود من سلم منها إلى الحصن بعد أن تتعرض للهزيمة، واستمر الحال هكذا مدة شهرين، ثم توقف القتال فى ٣٠ ذى الحجة سنة ٩٣هـ = ٧١٢ م.

ذلك أن حال الجيش المسلم كانت قد ساءت بسبب استمرار القتال وقلة المواد الغذائية، وقد عمل محمد بن القاسم بنصيحة بعض الأمراء فطلب قوات إضافية أخرى وكون جيشا من الفرسان جعل عليه الأمير " موكه بن بسايه " حاكم منطقة " بت " الذى دخل قبلا فى الإسلام، كما كون فرقا من المشاة فيها كثير من أفراد القبائل السندية وزحف بكل ذلك على مدينة "برهمان أباد " .

علم زعيم السند بوجهة واستعداد المسلمين، فسار نحو " جيبور " بحيث يستطيع الهرب منها إلى حدود الهند، بينما تركه " محمد العلافى " وأتجه نحو بلاد كشمير خارج حدود السند.

عند ذلك طلب أعيان " برهمان أباد " وسكانها الأمان، فعقد لهم ابن القاسم عهدا والتزموا بالطاعة وفرض عليهم الجزية، ثم دخل المدينة ولم يقاتل إلا من رفض التسليم، وأسر نحو عشرين ألفا بينهم زوجة ثانية لداهر وابنتان، واستولى على مغانم وزعها وبعث بالخمس إلى بلاد العراق، وفى اليوم التالى جاءه ألف من البراهمة ممن اتخذوا مظاهر الحزن لهزيمتهم وقتل ملكهم البرهمى، فأمنهم ابن القاسم بناءا على رغبتهم.

أكثر من هذا أصدر قائد المسلمين أمرا باحترام رجال الدين البراهمة، وعهد إليهم بعدد من مناصب ووظائف الإدارة وجمع الخراج من المنطقة وقراها، وعين حراسا على أبواب المدينة منهم وتعهد بمنحهم كافة التسهيلات اللازمة كى يعيشوا معيشة كريمة فى ظل قيم الإسلام ومبادئه، وسمح لهم بترميم بيوت العبادة وإقامة طقوسهم البرهامية، نصحهم بأن يتعاونوا مع المسلمين فى المسائل التجارية والإدارية، وعين كل من " تميم بن زيد القيسى " وحكم بن عوائد الكلبى لتنظيم المسائل التجارية والإدارية وديوان الخراج والجزية، وعين للمدينة حاكما عسكريا مؤقتا، ثم كتب يخبر الحجاج بفتح تلك المدينة الحصينة والخطوات التى أتخذت لتنظيم إداراتها والتى يمثل سقوطها نهاية المعارضة الجادة والعداء للإسلام.

وقد أجابه الحجاج بقوله: ابن أخى محمد بن القاسم، إن سلوكك العسكرى يستحق الثناء والإطراء، والآن لا ينبغى أن تمكث فترة أطول فى تلك المدينة، إن عمدة بلاد السند هى آلور Alor وMulten، وينبغى أن تتأكد لك السيادة على كل الهند والسند، وإذا رفض بعض الناس الخضوع للحكم الإسلامى فلتقتله، لعل الله العظيم يقضى لك بالنصر، فتخضع لك البلاد من الهند إلى تخوم الصين.

وهكذا نرى أنفسنا أمام مثال واضح على سماحة الإسلام، وتعاون حكام المسلمين مع غير المسلمين في المجتمع المسلم والاستعانة بهم في المسائل الإدارية والمالية والاستفادة بما عندهم من خبرات والسماح لهم بممارسة شعائر دينهم حتى لو كانوا مجوسا دون شعور بحساسية، " فقد أكرم القائد المسلم رؤساء الهنادكه من رجال الدين وأطلق للناس حرية العبادة على أن يوالوا المسلمين ويدفعوا الجزية عن طيب نفس ".

لقد كانت بلاد السند أول بلاد يتعامل فيها المسلمون مع أمة تعبد الأوثان بأكملها، لكن ابن القاسم كان سمحا منهم، ومنحهم نفس الحقوق التي يقدمها الإسلام لليهود والنصارى من حيث حرية العقيدة والعبادة ونظر إليهم باعتبارهم بشرا وفتح بذلك قلوب العباد.

يقول K.S. Lal أن أفراد الشعب توسلوا إلى " محمد بن القاسم " بعد فتح " برهمان أباد " أن تضمن لهم حرية العبادة فرفع الأمر للحجاج وجاءه الرد منه يقول:

" ما داموا قد استسلموا ووافقوا على دفع الجزية للخليفة، فإنه ليس لدينا ما نطالبهم به، ولقد تعهدنا بحمايتهم، ولا يمكننا بأي حال أن نستولي على حياتهم أو ممتلكاتهم، فلتسمح لهم بعبادة آلهتهم ".

وقد تبنى غير المسلمين من التجار والصناع والفلاحين ورجال الدين الذين لم يكونوا مستعدين للاستسلام فقط، بل وقدموا مساعداتهم للفاتح حيث منحوه كل المعلومات التي طلبها، مما جعل مهمته سهلة.

إن كثيرا من التسامح كان في الحقيقة ردا على عدم المقاومة من جانب الشعب، وحيثما وجدت المقاومة في بعض المناطق - فإن انتقام القاسم لم يكن يعرف الرحمة.

ولكن " اشواري براساد " يزعم أن المسلمين لم يقوموا بذلك بسبب

احترامهم لعقائد الآخرين، بل لأنهم اقتنعوا انه من المستحيل القضاء على عقائد سكان البلاد المفتوحة، ويواصل نفس المؤلف تحامله فيزعم أن القاضى كان يحكم بين المسلمين وغيرهم من الهندوس بنفس القانون الذى يقضى به بين المسلمين بعضهم ضد البعض الآخر، وتعرض الهندوس لظلم كبير نتيجة لذلك، ويقول أن اللصوص من بعض العناصر كانت تتعرض لعقوبة شديدة حيث كان يصدر الحكم بحرق زوجة وأطفال السارق؟!! وأن الحكام المسلين فرضوا ضرائب عديدة على المحاصيل المختلفة، كما فرضوا الجزية على غير المسلمين وفرضت مظاهر التمييز العنصرى على بعض رجالات القبائل.

ولسنا ندرى من أين أتى المؤلف بذلك كله.

ومهما يكن من أمر فقد أراد محمد بن القاسم أن يخضع القبائل المختلفة التى تسكن إقليم " برهمان أباد " حتى يتأتى له التحرك نحو عاصمة السند فى أمان، وكان لابد له من معرفة طباعهم وأخلاقهم قبل أن يتجه نحوهم وقد أخبره الوزير سياكر والأمير موكه حاكم بت - وكان ضمن من أسلم من قبل - أن بعض أفراد قبيلة الزط ومثلها قبيلة السيابجة، وكلاهما مجهول الأصل وتعمل الأولى بالرعى كما يعمل أسراها كجند مرتزقة فى جيش الفرس. ويعرف أفرادها بالوحشية والقسوة وبالطباع الشريرة، ولديهم رغبة فى التمرد، وممارسة أعمال القرصنة واللصوصية ومهاجمة القوافل والمسافرين ونهب امتعتهم وسرقة أموالهم، وعلى هذا تعتمد حياتهم.

وهذا هو السبب فى أن ملوك الهند من البراهمة، وضعوا قيودا عليهم وأمروهم بلبس الملابس الخشنة، وأن يمشوا حفاة حاسرى الرءوس، وكانو يلزمون بأن يصحبهم كلب حتى يتعرف الناس عليهم لم يكن يسمح لزعمائهم بركوب الخيل فى الغالب، وكانوا يسألون عن أية حوادث نهب أو سرقة تقع فى الطريق، وإذا ثبتت السرقة قضى على المتلبس وعلى أفراد أسرته بالحرق، وكان على قبيلة

الزط هذه ارشاد المسافرين فى الصحارى وبين مدن السند وجمع مايلزم المطابخ الملكية من أحطاب.

ولم يكن أمام "محمد بن القاسم" بد من معاملتهم بنفس الطريقة، لتستقر الأوضاع فى البلاد، ومع ذلك فقد أراد تهذيب أخلاقهم فعهد إليهم بالكثير من الخدمات، وتأثر بعضهم بسلوك المسلمين وقيم الدين فدخلوا فى الإسلام، فألحق ابن القاسم العديدين منهم فى الجيش الاسلامى وحتى لم يصبحوا مسلمين تهذب سلوكهم بسبب معاشرتهم للمسلمين ولم يبق على أصله من التوحش إلا من عاشوا منعزلين فى مواطنهم القبلية.

أما قبيلتنا السمه والسهنة Sammas and Sahnas فكانتا على العكس من بعض أفراد قبيلة الزط Jats، فقد استقبلت الأولى محمد بن القاسم بالطبل والمزامير والرقصات القبلية تعبيرا عن قبولهم حكم المسلمين وترحيبهم به، فحمد القائد المسلم موقفهم، وعين أحد ساسة العرب ودهاتهم وهو "خريم بن عمرو المدنى" حاكما عليهم، فمنحهم عشرين دينارا ذهبية هدية لهم، ورضى أولئك حكم المسلمين وفعلت قبيلة سهنة نفس الشيء، فقد احتفى زعماؤها بالمسلمين ورحبوا بهم، وقابلوهم مكشوفى الرؤوس حفاة الأقدام، فرضى ابن القاسم منهم بذلك وأمنهم وحدد الخراج على أراضيهم، فقد كانو مشتغلين بالزراعة، كما استعان بمرشدين منهم ليدلوا المسلمين على الطرق فى المناطق الصحراوية من برهمان اباد إلى العاصمة "أرور" وقد أسلم كثير من أفراد هذه القبيلة وحسن إسلامهم.

بعد ذلك بقى محمد بن القاسم فترة فى برهمان آباد، ينظم أمورها ويعين على كل منطقة حاكم يناسبها من حيث الخبرة والمعرفة بأحوالها، وترك المسائل المالية بيد أربعة من كبار الاعيان وتجار البلاد الأصليين، وأجرى بعض التنقلات بين القواد ونوابهم فى مناطق السند لدواع اجتماعية وسياسية، وكذلك وزع أفراد

القبائل العربية وأسكنهم فى مناطق عدة ودخلت الآلاف المؤلفة دين الله عن رضى واختيار.

كل هذه الجهود علم بها الحجاج من خلال تقرير مفصل جاء من ابن القاسم، وقد أثنى الحجاج عليه، وأمره بالسير نحو مدينتى أرور تم الملتان، لأن كلا منهما تمثل قاعدة قوية لملوك السندويه وحصون عسكرية هامة وخزائن وكنوز مدفونة فوق ما لهما من أهميته استراتيجية.

وفى محرم سنة ٩٤هـ تحرك ابن القاسم وفتح مدينتين قريبتين من العاصمة فى الطريق إليها - هما منهل وهراور، وكان فتحهما عن طريق الصلح، كما فتح مدينتين صغيرتين هما " بسمة " و" ساوندرى "، وفرضت الجزية على السكان من البوذيين بعد منحهم الآمان، واشترط عليهم ضيافة المسلمين عندما يمرون بمناطقهم، وقد دخل هؤلاء السكان فى الإسلام بعد ذلك، ونعموا بعدل وحماية الولاة المسلمين.

بعد هذا أتجه محمد بن القاسم نحو آلور (أرور) عاصمة بلاد السند.

وعسكر على بعد ميل من قلعتها الحصينة، وأقام شهرا للراحة والاستعداد، وكان يحكم العاصمة أحد أبناء " داهر " الملك القتيل، وقد اهتم بتحصين المدينة بقوة ورغب فى المقاومة، وأوهم الناس بأن أباه قد اختفى وأنه سيرجع عما قريب بجند وسلاح كثير، وبالفعل بدأت الحرب واستمرت أياما، ولكن أبا القاسم قطن إلى حيلة وفى إرسال أرملة داهر التى كان قد أسرها من قبل وبنى بها، ومعها بعض الزعماء الآخرين، وقد أبانت عن هويتها، وبينت لأعداء المسلمين أن زوجها قد قتل، وأن قادته قد استسلموا، وأنه يحسن بهم الاستسلام كذلك، والأولى بهم أن يعيشوا مع المسلمين فى أمان.

وقد رفض الناس تصديق المرأة أول الأمر، ولكنهم تأكدوا من صدق روايتها بعد فترة، واطمأنوا إلى عدل وسماحة المسلمين، ولذلك قرروا تسليم المدينة بينما

تمكن حاكمهم أو ملكهم من الهرب فى جنح الظلام واتجه ناحية مدينة " جيبور " قرب الحدود الهندية مثلما فعل أخوه وغيره من قبل، وقد فتحت أبواب المدينة ودخلها المسلمون دون قتال.

وقد شاهد ابن القاسم " بيت الصمم "بالعاصمة، وهو معبد بوذى كبير، يضم تمثالا رخاميا مكللا بالياقوت والجواهر، يقوم على خدمته كبار رجال الدين فلم يعرض له بأذى ولم يسمع سدنته كلمة نابية، مع يقينه بأنه لا يزيد عن أن يكون صنما لا يضر ولا ينفع.

وكالعادة نظم ابن القاسم أمور المدينة وعين عليها حاكما عليها، وبنى بها مسجدا جامعا، وأسند أمور القضاء والخطابة فيها للشيخ موسى بن يعقوب الثقفى، أحد كبار علماء الإسلام، ووضع عليها الخراج، وطلب من سكانها أن يتعاونوا جميعا على ما فيه خيرهم ورفاهيتهم، وقد تأثر سكانها من البوذيين خاصة بما رأوه من حسن معاملة المسلمين فدخلوا دين الله.

بعد هذا توجه محمد بن القاسم نحو مدينة " باتية " القيمة على الشاطئ الجنوبى لنهر " بياس " وكانت تحت حكم بن عم للملك " داهر " أسمه ككسا Kaksa وكان قد اشترك معه فى معركته الأخيرة، ثم عاد إلى مقر حكمه بعد هزيمة الملك، ولما علم بمقدم بن القاسم أرسل له هدايا ورهائن عرض طاعته، فقبل القائد المسلم عرضه، وزاد فعينه مستشارا له، وفوض إليه كل الأمور المالية ومنحه خاتم خزينة المنطقة، وقدمه على غيرة من القادة، وأما الرجل فقد أخلص النصح لمحمد بن القاسم فاعتمد عليه الأخير كثيرا فى تنفيذ مشروعاته فيما بعد، وأعتنق الرجل الإسلام وحمل لقب " المستشار المبارك ".

وكان على محمد بن القاسم أن يفتح مدينة اسكلنده (اسكندراه) قبل فتح الملتان، وكانت مدينة حصينة للغاية ومهيأة للقتال، وبالفعل خرج أهلها لحرب المسلمين واشتدت المعركة بين الطرفين، ثم اضطر أهل " اسكلنده " إلى الاعتصام داخل قلعته، فقذفهم المسلمون بنيران المنجنيقات ورموهم بالسهام النارية واستمر

الحال هكذا لمدة أيام سبعة اضطر بعدها حاكم المدينة للهرب واحتمى فى حصن اسمه " حصن سكه " على الشاطئ الجنوبى لنهر " راوى " بالقرب من الملتان، وأتيح لابن القاسم أن يدخل المدينة، وأن تدور معركة بينه وبين جنود السند قتل فيها الكثيرون، ووقع عدد كبير فى أسر المسلمين، واستشهد من المسلمين ٢٥ كما استشهد من جنودهم مائتان وخمسون، ثم منح ابن القاسم أمانا للتجار والصناع والزراع وعامة الناس وولى حاكما على المدينة. استشهد فيه عشرون من قادة المسلمين، ومائتان وخمسة عشر فارسا من أهل الشام الشيء الذى آلم ابن القاسم وجعله يقسم ليهدمن القلعة على من فيها، وقد هرب زعيمها السندى، وعبر نهر " راوى " نحو الضفة الشمالية وانضم إلى حاكم الملتان، فتقدم ابن القاسم نحو القلعة واستولى عليها وعلى سكانها من الجنود وأمر بهدمها، وقتل المقاتلين بها، وجدير بالذكر أن هذه هى المرة الأولى والأخيرة التى حدث فيها هذا الأمر أو أتخذ فيها ذلك الإجراء.

فتح الملتان:

الآن أصبح الطريق ممهدا أمام القوات الإسلامية لفتح مدينة الملتان ونواحيها فى إقليم البنجاب الذى كان يكون جزءا من مملكة " داهر ".

زحف جيش المسلمين فى أعداد غفيرة وصلت إلى خمسين ألفا من الجنود والفرسان عشرهم فقط من الجيش الأصلى الفاتح، ومعظمهم ممن أنضم إلى المسلمين بعد نجاحهم فى المعارك السابقة، وقد اتجه الجميع نحو مدينة " الملتان " عاصمة البنجاب، وهناك حدث قتال بينهم وبين حاكمها ومن فر إليه من زعماء السند وأمراءهم راح الكثيرون ضحية له، ثم استخدم المسلمون المنجنيقات والقذائف النارية لمدة شهرين على فترات متقطعة، وواجهوا مشكلة نقص المواد الغذائية واضطروا لأكل الميتة التى ارتفعت أثمانها، ومع ذلك فقد خشى زعيم وقائد الجيش الملتانى من العواقب، فعبر الحدود السندية ووصلا إلى منطقة كشمير، ولم تكن قد فتحت بعد.

وأخيرا تمكن المسلمون من هدم أسوار المدينة بعد رميها بقذائف والمنجنيقات ودخلوها وقتلوا جندها، فقتلوا منهم ٦٠٠٠ جندى وأسروا الكثيرين ومنح بن القاسم الأمان للتجار والصناع والزراع على أساس أنهم لم يشتركوا فى القتال، وفرد على السكان جزءا من خسائر ونفقات فتح المدينة بلغت قيمته ستين ألف درهم غير ما فرض عليهم من الجزية والخراج، وتلك هى المرة الأولى التى يكلف فيها السكان الأصليون بتحمل قسم من نفقات.

وهناك زاوية أخرى تتعلق باستسلام أهل الملتان تقول أن هؤلاء قاتلوا المسلمين بضراوة، ولكن المسلمين حاصروا المدينة أياما شديدة لاقوا خلالها الأهوال حتى نفد زادهم واضطروا لأكل الحمير، ثم جاء رجل مستأمن فدلهم على مدخل الماء الذى يشرب منه أهل المدينة وكان ذلك الماء يأتى من نهر اسمه "بسمه" فيصير فى مجتمع له يشبه البركة أو الحوض داخل المدينة، عندئذ أمر ابن القاسم بتغوير (بتعميق) مجرى ذلك الماء وإقامة خزان يتجمع فيه كيلا يصل إلى سكان المدينة فعطش المحاصرون بشدة ونزلوا - لهذا - على حكم ابن القاسم فقتل من رفضوا الاستسلام من حملة السلاح، وحصل المسلمون على ذهب ومغانم كثيرة جمعت فى بيت حجمه عشرة أذرع فى ثمانية يلقى إليه من كوة فى وسطه وهذا هو السر وراء تسمية الملتان باسم " بيت أو ثغر الذهب " .

ومن طريف ما يروى أن رجلا برهاميا أتى محمد بن القاسم وذكر له أن أحد حكام الملتان فى القديم بنى حوضا شرقى المدينة مساحته مئة متر، وبنى فى وسطه بيتا لصنم يعبد، مساحة ذلك البيت خمسين مترا مربعا، والصنم نفسه عبارة عن تمثال من الذهب الخالص يمثل رجل له عينان من الياقوت الأحمر، وأضاف الرجل أن هناك حجرا عند موضع الصنم تحته كنز، فدخل بن القاسم المكان وأمر برفع التمثال فوجد تحته ثلاثة عشر ألف ومائتين منا من الذهب، أضيف إلى ما حصل عليه المسلمون من أموال ومجوهرات.

وتذكر بعض المصادر العربية أن صنم الملتان هذا كانت تقدم له النذور، وكان طائفة البـراهمة فى السند والهند يقـصدونه للحج، فـيطوفون به ويحلقـون لحاهم ورؤوسهم عنده ويزعمون أن ذلك الصنم هـو النبى أيوب وكان على صورة إنسان كبير مـتربع طوله مائة ذراع، يلبس جلدا أحمرا لا يظهر منـه إلا عينين عبارة عن جوهرتين وعلى رأسه تاج أو إكليل ذهب مرتفع على كرسى تحيط بيديه قبة عظمى وحوله بيوت سندته البالغين ستة آلاف.

وكان الصنم نفسه بعد فتح الملتـان ورقة رابحة فى أيدى المسلمين من الناحية السـياسـية، فكان كلمـا رغب ملك هندى فى الهـجوم على هذه المنطقـة، هدده المسلمون بكسـر ذلك الصنم، فيرجع من حيث أتى إجـلالا لهذا التمثـال المقدس الذى لا يقيم العـسكر فى بلده لما له من قداسة. فـالملتان كمـا رأينا لم تكن مدينة عادية، بل كـانت عاصمة كـبرى يحج الناس إليهـا، ولهذا فقد فـتحت عنوة لأن المقاومة فيها كانت مقاومة البوذية المتمسكة بتقاليدها وأمجادها.

ومهـما يكن من أمر فقـد اتبع ابن القاسم فى هذه المدينة ما أتبـعه فى المدن الأخرى من حيث التنظيمات الماليـة والإدارية والعسكرية، فعين الحكام على كورها المختلفـة، وترك بها حـامية من الجنود وبنى بهـا مسـجدا جامـعا، وأخذ العـهود والمواثيق على أعيان المدينة بأن يعملوا على أمر واستقرار ورفاهية شعبها، ثم أرسل ما حصل عليـه من مغانم وأموال على متن سـفن فى حراسة مسلحـة إلى الحجاج عن طريق مينـاء الديبل، مع رسالة تفصـيلية تشـرح ما تم من فتح الملتـان وتنظيم أمورها.

وكان والى العراق والإمارات الشرقية قد كتب لابن القاسم وهو بمدينة الملتان يقول:

" إنى قد كتبت إلى أمير المؤمنين الوليد أضـمن له رد ضعف نظير ما أنفقته من بيت المال فأخرجنى، من ضمانى ".

وكانت نفقات جيش فتح السند والملتان قد وصلت إلى ٦٠ ألف ألف (٦٠ مليون) درهم، ولما أحصى الحجاج ما وصل إليه من القائد الفاتح وجده ١٢٠ ألف ألف (١٢٠ مليون) درهم، فقال: شفينا غيظنا، وأدركنا ثأرنا وزدنا ستين ألف ألف (٦٠ مليون) ورأس داهر " كل ذلك دون أن يغرم الأهالى شيئا أو تفرض عليهم ضرائب جديدة.

يعلق بعض الباحثين على ذلك فيقول:

إنه ليس مستغربا أن يحرص الحجاج على جمع الثروة ما أمكنه، مثله فى ذلك مثل أى فاتح أخر، وفى هذه الحالة خاصة فإن والى العراق كان عليه أن يحترم وعده للخليفة، برد نفقات هذه الحملة لخزينة الدولة، وكان ما منحه من حرية العبادة كفيلا بجلب الجزية والضرائب الأخرى، ولهذا فإن الحياة الدينية فى الهند بقيت على نهجها القديم تقريبا، بل إن معابد البراهمة أعيد بنائها، وأصبحت العادات القديمة مسموحا بها، وقد وثق المسلمون فى الكثيرين من غير المسلمين، وعهدوا إليهم بالأعمال الإدارية، وأصدر إليهم بن القاسم تعليماته بأن يتعاملوا مع الشعب فى احترام وأمان وأن يكونوا صلة طيبة بينه وبين الحاكم، وعليهم تحديد مقدار الجزية وفقا لمقدرة الشخص، ولتكن من الغنى ٤٨ درهما ومن متوسطى الحال ٢٤ درهما، و١٢ درهما من الطبقات الدنيا، أما النظام الإدارى فقد استمر معمولا به دون تغيير. كما سيأتى.

وكان فى نية بن القاسم أن يواصل مسيرته نحو بلاد " كشمير " موطن البقية الباقية من أمراء السند وأعوانهم من المتمردين، وبؤرة الخطر بالنسبة للبلاد حديثة العهد بالإسلام، وربما رغب فى نشر الدعوة الإسلامية فى الهند أيضا، لولا خبر وصله، وكان سببا فى قلب مخططاته كلها، ألا وهو خبر وفاة الحجاج سنة ٩٥ هـ. الشيء الذى جعله يرجع إلى العاصمة " آرور " لمتابعة الأحداث فى ظل الظروف الجديدة من هناك، خاصة وقد تلقى أمرا من الخليفة الوليد بن الوليد الملك

بأن يوقف تقدمــه، لأن الخليفة كان يعتــمد فى هذا الجانب على الحجــاج وما كان يقوم به من متابعة واعية.

ومع ذلك فــإن الأوضــاع الجــديدة لم تمنع ابن القــاسم من العنــاية بالمناطق المفتوحة والنظر فيــما يصلحها، ولـم تحل وفاة الحجاج بينه وبين أداء مهمــته، فبعد أيام قضاها فى الراحه واستقبال وفود العزاء، أرسل وحدا من قواده لإخضاع مدينة " البيلمان " وهى من المدن الصغيرة التابــعة لإقليم "أرور" فاستسلمت بدون قتال ثم أرسل أخر إلى مدينة صغــيرة بنفس المنطقة اسمها "سرست" حــيث يقيم قبائل " الميد " المعروفين بقطع الطرق البرية ونهب السفن، فتعهد هؤلاء بالطاعة والعمل على سلامة الطرق البرية، وقبل المسلمون ذلك منهم.

فتح الكرج:

ثم قــام ابن القــاسم بحــملة على الكيــرج (الكورج) على الحــدود السندية الهندية. وكــان يحكمهــا " داهر " أحد أقــارب الملك " داهر " وقد خــرج على رأس جيش كــثيف لمقاتلة المسلمــين، ولكنه قتل وانهزم جــيشه، وأمــر ابن القاسم بقتل المسلحين وضــرب الرق على الباقين، وقال على الباقين، وقــال أحد الشعراء فى قتل " دوهر " :

نحن قتــلنا داهرا ودوهرا والخيل تردى منسرا فمنسرا

وكان الأمير " جيــسية " قد فر إلى الكرج أخر الأمر، ثم لجــأ إلى كشمير بعد أن دب الخلاف بينه وبين حاكمها " دوهر "، وبقى هناك يتحين الفرص، وقد تمكن من العودة إلى السند واستولى على إقليم " برهمناباد " وحكمه عدة سنوات بعد مقتل محمد بــن القاسم، وظل يتولى أمر ذلك الإقليم إلى أن تم إخراجه منه والقضاء عليه سنة ١١١هـ = ٧٢٩ م.

وبفتح المسلميــن لإقليم الكرج، أصبحت لهم السيادة عــلى المناطق الواسعة بين الملتان وبلاد كــشمير، وقد توجــه بن القاسم إلى كشميــر وعين عليها حــاكما

وترك بها حامية عسكرية ورغب فى مطاردة الأمير جـيسية ومحمد العلافى وبعض أمراء السـند الذين لجأوا إلى هذه البـلاد، وكونوا بهـا جبـهة قوية تعـادى الدولة الإسلامية، ولكنه قرر صرف النظر عن منطقة كشـمير مؤقتا حتى يتم له فتح إقليم " قنوج " الذى يتبع السند سياسيا ويقع على حدودها مع بلاد كشمير.

فتح قنوج:

ذلك أنه عندما كان قـائد المسلمين فى مدينة الكيرج أرسل من هناك جـيشا من عشرة آلاف فارس يقوده أبى حكيم الشيبانى إلى مدينة قنوج Kanyj فى أقصى حدود الملتـان - لفتحـها ودعوة أمـيرها إلى قـبول الإسلام أو الدخـول فى طاعة المسلمين ودفع الجزية، ولما وصل الجيـش الإسلامى إلى موضع يقال له " أودهاير " بالقرب من العـاصمة أرسل قائده مـبعوثا إلى الأميـر يبلغه مضمـون رسالة بن القاسم إليه ويبلغه بأن كل بلاد السند وحكامها قد خضعوا للحكم الإسلامى، وأن بعضهم قد أسلم وبعضـهم قد وافق على دفع الجزية، ولكن حاكم " قنوج " أبى الاستـسلام بزعم أن آبائه وأجداده يحكمون هـذه البلاد منذ حوالى ألف وستـمائة سنة وأن علاقته بجيرانه قـوية وأنه يرفض الخضوع للغير، إزاء هذا الموقف لم يكن بد من القتال.

وقد تحـرك محـمد بن القاسم بـنفسه إلى الكبـرج ووصل إلى " أودهاير " وعزم على فتحـها وأستعد لدخولها، وبينما هو على أتم الاسـتعداد لذلك كخطوة أولى نحو الوصـول إلى كشميـر وإتمام فتح كل السند والهند، وصله أمر الخليـفة الجديد سليمان بن عبد الملك بعزله عن بلاد السند شخصية، بل والقاء القبض عليه وإرساله مصفدا إلى بلاد العـراق فلم يتمكن بسبب ذلك من فتح " قنوج " لذلك لم يذكر " البـلازرى " لذلك عنها شيئـا، واعتبر أن " الكرج " هى آخـر مدينة فتحها ابن القاسم على الحدود السندية الهندية. وقد وصل الإسلام إلى " قنوج " بعـد ذلك، يشيـر إلى ذلك المسـعـودى - الذى زار الهند فى مطلع القـرن الرابع الهجرى - حين يقـول: " وليس من ملوك السند والهند من يعز المسلمين فى ملكه

مثل البلهرى (أمير قنوج) فالإسلام فى ملكه عزيز مصون وله مساجد مبنية وجوامع معمورة للصلوات الخمس، ويملك الملك منهم الأربعين سنة والخمسين فصاعدا، وأهل مملكته يزعمون أنه إنما طالت أعمار ملوكهم لسنة العدل وإكرام المسلمين.

نهاية ابن القاسم:

ونعود مرة أخرى لنتابع تطور الأحداث ونتعرف على ما جرى لابن القاسم.

أشرنا إلى أن الحجاج مات سنة ٩٥هـ=٧١٣م بعد أن حكم العراق والولايات الشرقية باسم الدولة الأموية حوالى عشرين عاما، وبعد وفاته بستة أشهر توفى الخليفة الوليد بن عبد الملك سنة ٩٦هـ =٧١٤م وتولى الأمر من بعده أخوه سليمان، فولى على العراق والأمارات الشرقية واحدا من أشد أعداء الحجاج وهو صالح بن عبد الرحمن، وكل هذا كان كارثة بالنسبة لمحمد بن القاسم أثرت على جهوده فى شبه القارة الهندية مثلما كان الحال بالنسبة لآخرين فى مناطق الفتح الإسلامى الأخرى.

ولنوجز هنا مبررات ما حدث:

أراد الوليد بن عبد الملك أثناء خلافته نقل ولاية ما لعهد من أخيه سليمان ابن عبد الملك إلى ابنه، وقد أيد الحجاج فكرة الخليفة عن عزل سليمان وحرمانه، واستطاع أن يحصل على موافقة الولاة والقواد فى المناطق الشرقية التابعة له، وابن القاسم واحد منهم، ولم يكن فى وسعه إلا الموافقة، لأنه لم يزد عن أن يكون تابعا وأحد رجالات الحجاج، وما كان يعنيه بالدرجة الأولى هو أن يتفرغ لمهمته ويتمكن من تبليغ رسالة الإسلام للسكان فى منطقة شبه القارة الهندية، وقد شاءت إرادة الله أن يموت الحجاج والخليفة الوليد قبل أن يتم لهما ما أراد من نقل ولاية العهد إلى ابن الخليفة وحجبها عن أخيه سليمان، وقد تولى سليمان رسميا أمر الدولة، وكان أول شىء فعله هو عزل الولاة والقواد الذين عينهم الوليد والحجاج،

وتسليط والى العراق الجديد ضد من ينتمون إلى الحجاج بصلة بصفة خاصة لقد كان عليه أن يلقى بهم فى غياهب السجون ويعذبهم أشد العذاب برغم ما قدموه للدولة من خدمات.

ينقل الطبرى - فى نفس حوادث سنة ٩١٦هـ - عن الهلوات الكلبى قال: كنا بالهند مع محمد بن القاسم فقتل الله " داهرا " وجاءنا كتاب من الحجاج أن أخلعوا سليمان، فلما ولى سليمان جاءنا كتاب سليمان أن ازرعوا واحرثوا فلا شأم، فلم نزل بتلك البلاد حتى قام عمر بن عبد العزيز فأقفلنا.

لقد كان الوالى الجديد موتورا من الحجاج، لأنه قتل أخاه آدم ابن عبد الرحمن بسبب إيمانه بمبادىء وآراء الخوارج، فأراد صالح بن عبد الرحمن الانتقام من الحجاج فى شخص قادته وأتباعه خاصة صهره وابن أخيه محمد بن القاسم، وقد ولى على بلاد السند يزيد بن أبى كبشة السكسى، فقام هذا بإلقاء القبض على ابن القاسم بناء على أمر الخليفة وواليه، وصفده فى الأغلال وبعث به ليسجنه صالح بن عبد الرحمن فى مدينة واسط، فتمثل ابن القاسم بقول القائل:

أضاعونى وأى فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد

وكان ابن القاسم قد استولى على قلوب الناس فى شبه القارة مسلمين وغير مسلمين، لما تميز به من خلق قويم وسلوك ممتاز، وقد نصحه البعض بالا يرحل إلى بلاد العراق، ولكنه أبى، لأنه لا يستطيع مخالفة أمر الخليفة الواجبة طاعته، وقد يشفع له عنده ما قدمه من خدمات جليلة للدولة الأموية ولدين الله، ولكن والى العراق غدر به وألقاه فى غياهب السجن المظلم الرطب مكبلا بالحديد، فتألم ابن القاسم وأثر فى نفسه أن يلقى جزاء "سنمار" وقد عبر عن ذلك فى شعر قاله أثناء وجوده بالسجن منه قوله:

فلئن ثويت بواسط وبأرضها رهن الحديد مكبلا مغلولا

فلرب قينة فارس قد رعتها ولرب قرن قد تركت فتيلا

ومنه :

لو كنت أجـمعت الفرار لوطئت   إناث أعـدت للوغـى وذكـــور

وما دخلت خيل السكاسك أرضنا   ولا كان من عـــك على أمـــير

ولا كنــت للعــبد المزونى تابعـا   فيـــالك دهـــر بالكـــرام عـــثور

وقد واصل الوالى تعذيبه، ضمن رجال من آل أبى عقيل، إلى أن قتله تحت وطأة التعذيب الشنيع، ثم بعث برأسه إلى دمشق.

وكما ودعـته جموع أهل السند، شاعرة بـالأسف الشديد، لمغادرته بلادهم عائدا إلى العراق، فـإن دموعهم تساقطت بغـزارة عندما وصل إليهم خبـر مقتله، وبكوا فيه الرجولـة والشهامة والخلق الإسلامى الأصيل والشبـاب المتألق، وتخليدا لذكراه أقاموا له تمثالا فى مدينة الكبرج، لما قدمه من خدمات جليلة لهذا البلد.

وإن المرء ليعجب ما ينقضى له عجب، كـيف تنتهى حياة ذلك الشاب بهذه الصورة المريرة، وهو الذى فتح كل بلاد السند، ونشر الإسلام فى كافة أرجائها فى فترة قياسية لم تتجاوز السنوات الثلاث ؟ كيف يواجه محمد بن القاسم هذا المصير المؤلم ويجزى كل ذلك الجزاء المهين؟!!!

لقد تضاءلت أمام أعماله الحربية والسياسة عظمة الاسكندر وشهرته، إذ بينما عجز الاسكندر قبل ألف عام عن الاستيلاء على قسم ضئيل من الهند، كان سكانه أقل من ربع السكان زمن ابن القاسـم، استطاع هذا الفتى أن يخضـعها ويلحقـها بالإمبراطورية الإسلامـية من غير كبير عناء وقـد قال مؤرخ انجليزى " لو أراد ابن القاسم أن يستمر بفتوحاته حتى الصـين لما عاقه عائق "ولم يتجاوز أحد من الغزاة فتوحاته إلى أيام الفزنويين "لقد كان واحدا من عظماء الرجال فى كل العصور" .

إن رجلا قـدم عشر معـشار ما قدم ابن القـاسم لابد وأن يكرم ويمنح خلع التشريف والإكـبار ويرتفع إلى أعلى عليين، ولكن المؤلم حقـا أن يسجن ويعذب لدرجة إزهاق الروح وهو الذى مهـد السبيل أمام الدعوة الإسلاميـة، وحملها فى

إخلاص وتفان إلى الناس فى شبه القارة الهندية، تماما مثلما حدث مع من عرف القارة الأوربية بالإسلام ونشرة فى نواحى الأندلس، أعنى القائد المسلم موسى بن نصير بل يقال إن ابن القاسم وضع فى ر أديم بقرة، ثم خيط عليه الأديم وحمل إلى دمشق، وأن روحه فاضت فى الطريق.

إن نهاية الأبطال ما كان ينبغى أن تكون هكذا دون جريرة أو ذنب اللهم إلا حب الإسلام والإخلاص له والتفانى فى سبيله، والولاء لأصحاب السلطان الشرعى من خلفاء بنى أمية.

ومهما يكن من أمر فقد توقفت الفتوحات فى جبهة السند بمجرد مغادرة ابن القاسم للبلاد، وانكمش المسلمون فى المناطق التى تم فتحها من قبل وتركت الأوضاع السياسية السيئة فى عاصمة الخلافة تأثيرها على الاستقرار والأمن فى شبه القارة الهندية فقامت الثورات والفتن فى بعض المناطق التى خضعت للمسلمين، وحاول بعض أمراء السند الذين كانوا قد فروا إلى كشمير وغيرها العودة إلى البلاد، ونجح بعضهم فى استعادة سلطانه ونفوذه، مستفيدا من الاضطرابات الداخلية فى العالم الإسلامى، فتمكن جيسية ابن داهر مثلا من العودة إلى برهمان آباد حسبما يرى البعض.

بل إنه بعد موت ابن القاسم، لم يبق تحت سيطرة المسلمين إلا من ديبال بور Debalpur إلى بحر السلت " الملح " Saltsea.

وهذا سمح لباحث مثل " إشوارى براصاد " أن يقول:

أنه كان من المستحيل أن يجد المسلمون حكما مستقرا فى الهند، ذلك أن الملوك كانوا لا يزالون يسيطرون على ممالك هامة فى الشمال والشرق ولم يكن هؤلاء مستعدين لترك بوصة واحدة من الأرض لأى أجنبى يحاول غزو أراضيهم، ولهذا فإن المحافظات المختلفة بدأت تترك الإسلام تدريجيا، وكانت محافظة السند تنقسم إلى عدة دول تعتبر مستقلة من الناحية العملية.

كذلك ساعد بروز العصبية القبلية، وانشغال العرب فى الخلاف فيما بينهم على، توقف حركة الفتح الإسلامى بتلك المناطق، مثلما حدث من خلاف وعصبية فى مناطق الدول الإسلامية الأخرى.

كذلك دخل العرب البلاد من اتجاه خاطىء، فالسند لم تمنحهم المصادر اللازمة لفتح بقية بلاد الهند أضف إلى ذلك أن ولايات السند كانت مجدبة وضعيفة الخراج نسبيا إذا قورنت بغيرها، وكانت لا تزال تحيط بها من الشمال والشرق إمارات قوية يحكمها الهنادكة، كذلك تمكن رجال الفرق الإسلامية من خوارج وشيعة وقرامطة وإسماعيلية من الوصول إلى تلك البلاد - فيما بعد - لهذا كله انكمشت أملاك المسلمين، ولم يبق لهم إلا الملتان والمنصورة. . . .ولا بد من الإشارة إلى أن الفتح العربى للسند لم يكن عسكريا فحسب، بل - كما حدث فى الجبهات الأخرى - تنقلت العشائر العربية إلى هناك، وحمل العرب إلى البلاد نفس أسلوبهم فى الحياة ونفس نزاعهم القبلى التقليدى، كما انتشرت الثقافة العربية من المدن التى ستؤسس فيما بعد - مما ساعد على نشر العربية والإسلام - بل هاجرت إلى الهند نفس الصور الفكرية التى طبعت العالم الإسلامى فى القرن الأول الهجرى كما انتقلت إليها فرق ودعايات الخوارج والشيعة كما أشرنا أنفا.

والآن نحاول التعرف على الولاة الذين وفدوا إلى هذه المنطقة فى عهد الدولة الأموية.

***



الفصل الثالث

انتشار الإسلام

فى شبه القارة الهندية

وبلاد السند وبلاد البنجاب

انتشار الإسلام فى شبة القارة الهندية
(بلاد الهند وبلاد السند)

تذكر لنا كتب التاريخ أن الإسلام حين أخذ ينتشر فى شبه القارة الهندية بدأ فى الانتشـار بعد ظهوره مبـاشرة فى سواحل جنوب بلاد الهند على أيدى التـجار العرب والجاليات العربية المقيمـة هناك، بينما تأخر انتشار الإسلام فى سواحل بلاد السند، وأما الدعوة المنظمة إلى الإسلام بلاد السند فقد بدأت بعد الفتح العربى لها فى أواخر القرن الأول للهجرة.

(أ) انتشار الإسلام فى السواحل الجنوبية لبلاد الهند:

كانت العلاقـة التجارية قائمه بين العـرب وسكان سواحل جنوب الهند منذ آلاف السنين قبل الإسلام، كانت الأسر والجاليات العربية تقيم فى هذه السواحل، كان العرب يقـومون بالتجارة مـا بين البلاد العربية وبلاد الهند وغـيرها عن طريق البحر والبر.

ولما سمع العرب هناك عن ظهور الإسلام فى شبـة الجزيرة العربية دخلوا فيه بعد سنوات قليلة من بعثة الرسول الأعظم محمد ﷺ، ثم أخذت الجاليات العربية فى بلاد الهند تلعب دورها كمـراكز تبليغ للإسلام بطريقة غـير مباشرة، فـقد كان الإسلام قد أثر على الحياة الاجتماعية للعرب بشكل ملحوظ مما حصل سكان تلك المناطق إلى أن يلاحظوا ذلك التغـيير عى العرب وكـانوا يتعجبون ويـتساءلون عن السـبب فى ذلك، حتى سـمـعوا من العـرب عن ظهـور دين جديد فى الجـزيرة العربية، وهو الإسلام، وكانوا يتناقشون المسائل الإنسانية من خلال تعاليمه السامية العادلة، كما كان بعض العرب أنفسهم يتلهفون على تبليغ الإسلام منتهزين الفرص بقصد الدعوة أو بقصد الإخبـار، وذلك لفرحتهم الكبيرة بهذا الدين الحنيف الذى أخرجهم من ظلمات الجهل والضلال إلى نور المعرفة والحق.

فى الوقت الذى كانت الخلافات المذهبية قد بلغت أشدها فى جنوب بلاد الهند بل فى شبه القارة الهندية كلها بين أصحاب المذاهب البرهمية والبوذية والجينية، وكانت البرهمية تحارب البوذية والجينية اللتين ثارتا عليها بسبب تطبيقها لنظام الطبقات غير العادل فى المجتمع، مما اضطر معه البوذيون والجينيون بالانتقال إلى المناطق الشمالية لبلاد الهند ولاسيما إلى بلاد السند، وكان أصحاب الديانة البرهمية بجانب اشتراكهم فى المناظرات والمباحثات الدينية لإيجاد حجج بل حيل لقمع أصحاب المذاهب الأخرى، كانوا يستغلون سلطتهم السياسية أيضا فى القضاء على المذهبين الآخرين، ويقومون بالقتل الجماعى والتعذيب الوحشى لأتباعهما بتأييد الحكام أنفسهم، ولاشك فى أن سكان بلاد الهند وبلاد السند ما عدا البراهمة كانوا يعيشون فى هذا الوقت الفوضى المذهبية والفكرية والقلق النفسى وعدم الشعور بالاستقرار الاجتماعى بل الخوف المستمر على الأرواح والأملاك، وكانوا لذلك يفكرون فى الخلاص منها والبحث عن مذهب أو دين جديد عادل يضمن لهم الحرية الروحية والسعادة الاجتماعية.

دور التجار والجاليات العربية فى الدعوة فى الإسلام:

وكان للتجار العرب نفوذ كبير فى سواحل بلاد الهند وكانوا حصلوا على الإذن للانتقال ببضائعهم التجارية من المدن الساحلية إلى المدن الداخلية الأخرى، كما كانوا ينتقلون من ميناء إلى ميناء بسفنهم التجارية، وكان البراهمة لا يرون خطرا للإسلام والمسلمين سياسيا لقلة عدد العرب، وبالتالى لم يكونوا يهتمون بالتجار العرب أو قيامهم بالتبليغ للإسلام بقدر اهتمامهم الشديد بالبوذيين ومحاربتهم سياسيا ومذهبيا لأن التجار العرب بجانب كونهم من الأقلية كانوا يساهمون بقسط كبير فى النشاط التجارى وفى زيادة الدخل القومى لبلاد الهند مع عدم تدخلهم فى الأمور السياسية فيها، ولذلك كان الحكام والعوام يعاملونهم معاملة طيبة وباحترام بالغ، وكانوا يهتمون بأقوالهم وأفعالهم أيضا، وبذلك كان العرب فى مأمن من الضغط المذهبى والسياسى وبعيدين عن شر البراهمة ولذلك

عاشوا فى استقرار وطمأنينة، قائمين بشعائرهم الدينية ومبلغين للإسلام فى كل ناحية وفى كل مناسبة بطريقة عادية غير منتظمة.

ويبدو أن نفوذ هؤلاء التجار العرب أو تلك الجاليات العربية قد ازداد بعد دخول العرب فى الإسلام، فقد ذكرت الكتب التاريخية عن قيام جاليات عربية جديدة فى المدن السحلية ببلاد الهند ابتداء من أوائل القرن الأول الهجرى إلى القرن الرابع الهجرى كما ظهر التقدم بوضوح فى جميع مجالات الحياة عند هؤلاء العرب بعد مجىء الإسلام، وبالتالى أثر فى الحالة التجارية وساعد على توسيع ميدانها ولاسيما بعد استيلاء العرب على آسيا وشمال أفريقيا بعد الفتوحات الإسلامية فيها، وبذلك اتسعت دائرة التجارة العربية حيث كانت السفن التجارية تتحرك من موانى البحر الأبيض المتوسط وتسير إلى موانى بلاد السند وبلاد الهند وخليج البنغال (بنجلاديش) ثم إلى بلاد الصين وكان لذلك التقدم الشامل فى حياة العرب أثر كبير فى زيادة نفوذ العرب بتلك السواحل الهندية وبالتالى فى زيادة انتشار الإسلام بها.

ولا شك فى أن العرب بعد أن دخلوا الإسلام وتغيرت حالتهم الفكرية والاجتماعية والاقتصادية بدأوا يهتمون بالناحية الدينية اهتماما كبيرا، وكانوا يرون تأدية صلاة بالجماعة شعارا اجتماعيا مهما لدينهم، فلم يكونوا يهملون أداء الفرائض مراعاة للظروف الاجتماعية أو خوفا من غضب أفراد المذاهب الأخرى وضلك لتأكدهم من صحة هذا الدين ولإيمانهم بحماية الله لهم: " إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم " فكان من أثر إصرارهم على المضى فى طريق الحق بتمسكهم بدينهم وإخلاصهم له أن اعترفت الحكومات الهندية المحلية أيضا بحرية العرب فى الشئون المذهبية وحق التصرف فى المعاملات الاجتماعية والاقتصادية حسب أحكام الشريعة الإسلامية ومنذ أواخر القرن الأول الهجرى أخذت الجاليات العربية تزداد توسعا بمرور الزمن حتى ارتفعت نسبة السكان العرب فى بعض المناطق بالسواحل الهندية الجنوبية إلى عشرين فى المائة، وهذه النسبة الكبيرة

للعرب لم تكن نتيجة لقدوم العرب الجدد من الخارج فحسب بل كانت أيضا بسبب زواج العرب من نساء تلك البلاد وكثرة الإنجاب وكان أولادهم منهن يعاملون أيضا كمعاملة العرب الأجانب وبالتالى كان يزيد عدد المسلمين ويزداد انتشار الإسلام.

وعلى العموم فإن التبليغ للإسلام فى القرن الأول الهجرى فى السواحل الجنوبية لبلاد الهند، وكان على أيدى هؤلاء التجار العرب والجاليات العربية المقيمة هناك، ثم لما كثر كبار علماء الإسلام ولاسيما فى القرن الخامس الهجرى بدأ هؤلاء العلماء فى تثقيف المسلمين وإدخال الكثيرين من غير المسلمين فى دائرة الإسلام، وبذلك تعتبر الخدمة التى قدمها هؤلاء العرب التجار والجاليات العربية حتى القرن الخامس الهجرى ببلاد الهند أكبر خدمة للإسلام وأعظم هدية لهؤلاء الذين تشرفوا بدخولهم فى نور الإسلام.

(ب) انتشر الإسلام فى بلاد السند والبنجاب (باكستان الحاضرة):

علمنا مما سبق أن الجاليات العربية التى كانت تقيم فى السواحل الجنوبية لبلاد الهند قد دخلت الإسلام منذ بداية القرن الأول للهجرة، وكانت تعيش وتعمل فى رعاية الحكومات الهندية وتتمتع بالحرية الدينية والاحترام والرفاهية، ولكن التاريخ لا يذكر لنا بأن مثل تلك الحالة كانت موجودة فى السواحل السندية أيضا قبل الفتح العربى لبلاد السند والبنجاب كلها فى أواخر القرن الأول الهجرى، ويرجع السبب فى ذلك إلى أن الحكام المحليين فى هذه المناطق السندية لم يكونوا يرحبون بالعرب مراعاة لمصالحهم المختلفة، لأن الدولة العربية الإسلامية كانت قد اتسعت كثيرا فى منتصف القرن الأول للهجرة حتى أخذت تقترب من حدود بلاد السند وكادت تحيطها من كل جانب، ولذلك كان حكام بلاد السند يخشون سياسيا على مصالحهم الشخصية والوطنية، وبالتالى لم يكونوا يشجعون على الإقامة على السواحل السندية حتى لا يصبح أثر أو نفوذ على تلك المناطق، وكذلك العرب أنفسهم كانوا يفضلون مجرد المرور بموانيها مثل ميناء الديبل وميناء تيز ولا يميلون للإقامة فى تلك السواحل السندية لوجود القراصنة من أهل السند

وعدم سيطرة الحكام عليهم، وأيضـا لوجود الأخطار فى الطرق التجارية فى داخل بلاد السند والبنجـاب بسبب إقامـة بعض القبائل السنديـة الخطيرة مثل قـبيلة الزط وقبيلـة الميد على مقربة منهـا بقصد القيـام بالهجوم على القوافل التـجارية ونهب أموالها وقتل من يعترض طريقـها، هذا بالإضافة إلى رداءه المناخ الصحراوى وقلة المياه وكثرة الهضاب فى بلاد السند، فـتلك الأسباب لم تشجع العرب على ركوب المخاطر والمغامرات وإلقاء الأرواح إلى التـهلكة فى سبيل التجارة، ولذلك لم تكن للعرب جاليات فى تلك السواحل أو الولايات السندية قبل الفتح العربى.

العرب فى إقليم مكران بالسند ودورهم فى نشر الإسلام:

ولكن لا ننسى بأن هناك منطقـة واحدة من مناطق بلاد السند الواسـعة وهى (منطقة مكران) التى اعتبرها كـثير من الجغرافيين العرب وغيرهم إقلـيما مهما من أقاليم تـلك البلاد فى ذلك العـهد، وبابا للدخول إلـى بلاد السند، فهذه المـنطقة كانت فى أيدى العرب منذ أوائل القرن الأول للهجرة وكان الوالى الأموى يحكمها بصفة رسمية من قبل الخلافة الأموية، ولذلك يمكن لنا القول بأن كثيرا من التجار العرب وأفراد الجاليات العربية كانوا يقـيمون فى ولاية مكران قبل فتح العرب لبلاد السند، وذلك منذ خلافة معاوية إلى سنة ٩٢هـ التى تم فيها فتح جميع أقاليم بلاد السند، وبالتالى نستطيع أن نقول بأن العـرب قد أثروا فى سكان مكران من الناحية المذهبية والفكرية فى تلك الفترة التاريخية المبكرة ولاسيما فى البوذيين الذين كانت لهم صلة قوية بالسكان فى داخـل بلاد السند، وعن طريقهم كانت أخبـار العرب وأخبار دينهم الإسلام تصل إلى جميع سكان بلاد السند.

فلم يكن من الســهل أن يتغلغل العرب المسلمـون إلى داخل بلاد السند فى أوائل القرن الأول للهجرة وقبل الفتح العربى لأسباب جغرافية واجتماعية وسياسية كمـا أشرنا إليـها، ولكن هذا كله لم يمنع أهل السند من الاخـتلاط بالعـرب قبل الفتح العربى، بأهل السند لم يـكونوا خائفين من السفر فى البحـار بعكس ما كان عليه بعض الهنود فى جنوب الهند، فقد كان يشاهد بعض المسافرين من أهل السند

على السفن العربية بل كان كثير من السند يقيمـون فى البلاد العربية نفسها، فمثلا فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب حيـن فتح العرب بلاد فارس انضم عدد كبير من أفـراد قبيلة الزط السندية إلـى الجيش العـربى وأعلنوا إسـلامـهم بعد أن قـرروا الانفصـال عن الجيش الإيرانى، ونقلوا جميعا إلى العـراق وسكنوا بعض المناطق والبطاح الواقعة بين مدينة البصـرة ومدينة واسط، وأخذ عددهم فى الازدياد حتى بلغ فى عهـد الخليفة المعـتصم العبـاسى سبعـة وعشرين ألف سندى وقـاموا بفتن واضطرا بات ضد الدولة العبـاسية وكان الخليفة على بن أبى طالب قـد عين بعضا من السند على مصارف البـصرة لمهارتهم فى الأعمال المصرفيـة والحسابات وكذلك كان حراس الخليفة عثمان بن عفان من أفراد قبيلة الزط السندية وقد دافعوا عنه يوم شهادته حتى قتلوا جميعـا على بابه قبل أن يستشهد هو رضى الله عنه وهكذا نجد فى التاريخ أمـثلة كثيـرة عن اتصالات السند بالعـرب قبل الفتح الإسـلامى لبلاد السند، وعن دخولهم فى الإسلام، ولا شك فى أن هؤلاء كانوا يسافرون بين حين وآخر إلى بـلادهم ويخبـرون ذويهم وأقرباءهم وأحـبابهم عن الإسـلام وتعاليـمه السامية وسـماحته الكبيرة، ولذلك يمكن لنا القـول بأنه إن لم يكن جماعات من أهل السند قد دخلت الإسلام فى داخل بلاد السند خوفا من حكامهم ولاسيما من البراهمـة فى أوائل القرن الأول للهـجرة قبل الفـتح الإسلامى لبـلاد السند، فإن النفوس كانت قـد استعدت لقـبول الإسلام بعد أن مهـد لها الطرق بواسطة السند الرحالين والمقـيمين فى البـلاد العربية، ولاسـيما البوذييـن منهم الذين كان بعض تعاليم مذهبهم يدعـوا إلى نشر الخير والعدل والمساواة والمحبـة بين أفراد المجتمع، ولكنهم كـانوا محـرومين من هذه الحـقوق فى بلادهم بسـبب نظام الطبقـات فى المذهب البرهمى المسيطر على الدولة والشعب فى بلاد السند.

على أن أهم الأسباب لعدم اهتمام العرب أو رغبتهم فى الإقامة والتجارة فى سواحل السند كـان هو وجود القـراصنة الأقوياء الذين كانوا يهـابون سلطة الدولة ويهاجمـون السفن التجارية العـربية المارة بميناء الديبل ببلاد السند فى طريـقها من

الموانى العربيـة إلى الموانى الهندية ثم موانى البنـغال وموانى الصـين، وكانت هذه الهجـمات للقراصنة كثـيرا مما تتكرر، ولذلك كانت السـفن العربية التجـارية قلما تقف عند ميناء الديبـل، وكانت الدولة الأموية تشكو دائمـا عن ذلك إلى الحكومة السندية ولكن بلا جـدوى، حتى أن استولى هـؤلاء القراصنة على السفن العـربية الثمانية المحـملة بالبضائع والهدايا والتحف الثمـينة، التى أهداها ملك سيلان إلى الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك والحجاج وإلى العراق، وكانت فى تلك السفن بعض النسوة العـربيات وفى طريقهن إلـى الحج، وفد نهب القراصنة كل البـضائع والتحف بل خطفوا النسـاء والتجار العرب أيضا إلى داخل مـدينة الديبل، واعتذر داهر ملك بلاد السند عن عدم استطاعته فى إعادة تلك النسوة والعرب، ونفد صبر الحجاج فأرسل حملتين لإنقاذ تلك النسـاء وهؤلاء العرب التجار وفشلت الحملتان واستشهد القـائدان العربيان وأسر أفراد جيشهما العـربى، وعندئذ قرر الحجاج فتح بلاد السند بقيادة القائد الشاب محمد بن القاسم الثقفى فى سنه ٩٢ هـ.

وبفتح بلاد السـند والبنجاب فتح باب جـديد هام فى تاريخ الإسلام، كـما فتح باب مشـرق فى تاريخ بلاد السند والبنجاب خاصة وتاريخ شـبة القارة الهندية عامة، وقد كـان ذلك انقلابا عظيما فى تاريخ حياة شعـوب تلك المنطقة فى العالم وسببا هامـا لانتشار الإسلام فى بلاد السند والبنجاب، وبذلك تحول مـركز التبليغ للإسلام من السواحل الجنوبية ببلاد الهند إلى بلاد السند رغم وجود العرب التجار والجاليات العربية بالكثرة الهائلة فى تلك السواحل الهندية فى ميادين التجارة ونشر الإسلام هناك بالمقارنة مع الحالة الجديدة بعـد الفتح العربى لبلاد السند التى صارت مركـزا هاما للتبليغ للإسـلام فى شبه القارة الهنـدية، وذلك أن كثيرا من التـجار العرب فى سـواحل بلاد الهند قد هاجروا إلى بلاد السند بعـد قيام الدولة العـربية فيهـا ليعيشوا تحت رعـاية حكومتهم العربية الإسـلامية التى فتحت أسـواقا تجارية جديدة بعد القضاء على أخطار القراصنة والـقبائل السندية فى البحر والبر، وملت على سهولة المواصلات وربط بلاد السند ببلاد فـارس لقربها من البلاد العربية، ثم

ظهـرت بعد ذلك حـركات الدعـوة إلى الإسلام فى بلاد السند بواسطة الحكـومة العربية بها.

دعوة محمد بن القاسم الثقفى إلى الإسلام:

بعد أن انتهى القائد محمد بن القاسم من فتح عاصمة بلاد السند سنه ٩٢هـ وجه الدعوة إلى الأمـراء والحكام والوزراء والأعيان بل إلى عامـة الشعب للدخول فى الإسلام، وكان النجاح بفـضل تعاليم الإسلام السمحة العـادلة التى سمع عنها هؤلاء القوم ثم بفضل الصـفات الإنسانية التى كان يتحلى بهـا ذلك القائد الشاب الذى رفع الله شأنه رغم صغر سنه لخير الإسلام.

يرى بعض المؤرخين الأجانب أن دخـول بعض من هؤلاء السند فى الإسلام كان انتـهازا للفرص ولأغراض شـخصيـة، ولكننى أرى أنه من المؤكد أن الغالبـية منهم قبلوا الإسلام وفى أعمال العرب أنفسهم صفات طيبة، وأحبوا أن يعتنقوا هذا الدين الحنيف ليعيشوا مثل العرب أحـرارا فى دينهم ومعززين فى حياتهم، وكذلك قارن هؤلاء القيـوم تعاليم الإسلام بتعـاليم دينهم القديم فى النواحى الاجتمـاعية والأخلاقية والاقـتصادية، فوجدوا فى الإسلام مـعانى سامية وأحكاما عـادلة لخير البشرية فضلا عن دعوة الإسلام من تلقاء أنفسهم كما حدث مثل ذلك من قبل فى بلاد أخرى.

ونذكر هنا بعض الأمثلة لمن دخل الإسلام على يد القـائد محمد بن القاسم فى أيام الفتوحات، من الأفراد والجماعـات، ومن القبائل والجيوش، ومن العلماء والزعماء، ففى مـدينة الديبل بعد فتح العرب قلعتها التى كـان بها الأسرى العرب فكان معهم رجل سندى يسمى (قبله بن مهـترائج) ويعمل مديرا للسجن الذى كان فيه التجار العرب والنساء العـربيات وجنود القائد الشهيد بديل، ويبدو أنه تأثر من الناحيـة الفكرية لاختلاطه بهـم نحو سنتين أو أكـثر، ولذلك كان يرعـاهم رعاية طيبـة، وكان الحجاج قد أمـر بقتل كا من يحـمل السلاح فى داخل القلعة انتـقاما لهؤلاء الجنود الشهداء وقوادهم الذين ذهبوا ضحية فى سبيل إنقاذ التجار والنساء،

ونفذ محمد بن القاسم أمر الحجاج فيهم، ولما جاء دور هذا الرجل السندى، قال لمحمد بن القاسم أنه كان يرعى العرب المسجونين رعاية كريمة وكان يصبرهم فلذلك يرجو العفو، ولما تأكد محمد بن القاسم من صدق قوله عفا عنه، بل فرض إليه مهمة الإشراف على الأمور الاقتصادية بمدينة الديبل وتأثر بمعاملة محمد بن القاسم هذا فأعلن إسلامه لديه، وكان صادقا فى إسلامه ومخلصا له، ولذلك قربه القائد محمد بن القاسم الثقفى إليه أكثر وعينه مترجما لرئيس الوفد العربى بالشامى وأرسلهما إلى داهر ملك السند لتوجيه الإنذار إليه وكان الملك يعرف هذا الرجل ونفهم من بيان مؤلف كتاب ججنامه أنه كان يعرف اللغة العربية أيضا ولذلك كلف لهذه المهمة الخطيرة، ويبدو أنه تعلم العربية من العرب المسجونين بمدينة الديبل حين كان مديرا للسجن ويعتبر هذا الرجل هو أول سندى دخل الإسلام فى أيام الفتوحات وكان برهمى المذهب وعى ذلك فإن أول من دخل الإسلام ببلاد السند لم يكن بوذيا بل كان برهميا، بالرغم من أن البوذيين كانوا متفاهمين مع المسلمين أكثر من البرهميين.

وفى سيوستان من إقليم بلاد السند، بعد أن فتحها العرب جاء وفد من قوم " جنه " المقيمين فى منطقة تابعة لإقليم سوستان وعرضوا الطاعة للعرب وبعد أيام دخل هؤلاء القوم بجملتهم فى الإسلام وكانوا يعتنقون المذهب البوذى، وبذلك يعتبر هؤلاء أول جماعة كبيرة من أهل السند البوذيين يدخلون فى الإسلام أيام الفتوحات عن رغبة وعقيدة بعد دراسة تعاليم الإسلام وصفات العرب الحميدة.

وكان والى مدينة النيرون البوذى ورجاله الخواص متصلين بالحجاج مبايعين له بالطاعة، لا بعد الفتح العربى لبلاد السند بل قبل الفتح بعام تقريبا، وحين دخل القائد محمد بن القاسم مدينة النيرون رحب به الوالى وفتح له باب المدينة، وصار مساعدا عسكريا وسياسيا له وساعده فى كثير من مراحل فتوحاته لاسيما فى سيوستان بأخذ البيعة من أتباعه الكثيرين من البوذية هناك، فهذه البيعة المبكرة وهذا

الولاء وهذه المساعدة الكبيرة تدل كلها على ميل الوالى وقواده وخواصه بل شعبه إلى الإسلام، ولا توجد بيانات واضحة عن دخولهم فى الإسلام فى أيام الفتوحات ولكن الأحداث التاريخية فيما بعد تشير إلى ذلك لعدم ذكر البوذية فى هذه المنطقة فى السنوات القادمة بل القرون التالية لعهد الفتوحات الإسلامية، فهم فى الغالب دخلوا فى الإسلام من أنفسهم بعد اندماجهم فى صفوف العرب فى الحكومة والجيش ببلاد السند.

وفى يوم القتال الرهيب والحرب المصيرية بين محمد بن القاسم وبين داهر بن ملك السند، توجه بعض من القواد السند مع فرقهم من الجيش أثناء المعركة إلى محمد بن القاسم، وأعلنوا إسلامهم لديه، ثم عرضوا عليه خطة عسكرية وهى أن يأذن لهم بأن يقوموا بمهاجمة مؤخرة جيش داهر عى غفلة فى حين يقوم الجيش العربى بهجوم شامل من الجيش السندى من الأمام، فوافق محمد بن القاسم على الخطة وجعل مروان بن أشجم اليمنى وتميم بن زيد القيسى قائدين عليهم، ففاجأوا العدو بهجوم من الخلف، وفى الوقت الذى قام الجيش العربى بحملة عنيفة من الأمام، فدخل الرعب فى القلوب وتذبذب الجيش السندى واضطرب اضطرابا شديدا وقتل الكثيرون من أفراده وهذه هى المجموعة الثانية الكبيرة من أهل السند والجماعة الأولى من البرهميين تدخل الإسلام على يد محمد بن القاسم نفسه أيام الفتوحات لا بالقوة وإنما بالرغبة وعن إيمان ويقين بعظمه الإسلام، مع أن الحرب كانت لا تزال دائرة وكان الملك العظيم لا يزال على أشد قوته حياه يحارب بعزم وصلابة ولم يكن من السهل معرفة نتيجة هذه المعركة المصيرية، وكان عدد أفراد الجيش العربى لا يزيد على اثنى عشر ألفا، بينما كان عدد أفراد الجيش السندى يزيد على مائة ألف مقاتل وتسعين من الفيلة المقاتلة، بالإضافة إلى كثرة الأسلحة لدى السند ووفرة المواد الغذائية فضلا عن معرفة أهل السند بخبايا بلادهم، وهذه الواقعة تدل على أن الذين كانوا يدخلون الإسلام أو يعلنون الطاعة للعرب من الزعماء والحكام والقواد قبل مقتل داهر مثل حاكم

النيرون البوذى وحاكم منطقة بت البوذى الأمير كاكه بن بسايه وإخوته ووالدهم، وكبار القواد فى الديبل والنيرون وسيوستان ثم بعض الوزراء مثل سياكر وزير داهر وكذلك بعد مقتل داهر دخل فى الإسلام كثير من حكام وأمراء المناطق الأخرى مثل الأمير كاكه بن جندر وهو ابن عم الملك وحاكم منطقة البانية الواسعة تدل على أن ذلك كان حسب رغبتهم فى الوقت الذى كانوا لا يزالون أقوياء، وكان قبولهم الدخول فى الدين الإسلامى لعلمهم بسماحة الإسلام وعدالته ولا سيما الصفات الإسلامية الإنسانية التى كان يتحلى بها القائد محمد بن القاسم، فلم يكن إسلام هذا العدد الكبير من القواد والحكام والآلاف من أفراد القبائل والجيوش والعوام من أهل السند وقبولهم الطاعة أيام الفتوحات بالقوة والإكراه كما يدعى ذلك أعداء الإسلام وأعداء الأمة السندية المسلمة من المؤرخين الأجانب وغيرهم.

وكانت أغلبية الشعب السندى تسكن المدن والأقاليم الواسعة مثل الديبل والنيرون وسوستان وراور وغيرها، وقد رأينا كيف دخلت الأفراد والجماعات والقبائل الكثيرة بتلك المناطق فى الإسلام فى عهد محمد بن القاسم والبقية منهم قد قبلوا الطاعة للعرب، ولم نسمع بعد ذلك أنهم قاموا بالحركات المعادية ضد العرب إلا فى حالات قليلة، ولعل الكثيرين من هؤلاء أيضا دخلوا الإسلام فى عهد محمد بن القاسم ثم فى عهد من جاء بعده من الولاة العرب، وخاصة أصحاب المذهب البوذى منهم الذين لم نسمع أخبارهم بعد ذلك، وفى الغالب دخل البوذيون المقيمون بتلك المناطق الهامة فى الإسلام، ويدل على ذلك ترحيبهم الحر للعرب، ومساعدتهم لهم فى القضاء على سلطة البراهمة، ودخول جماعات كبيرة عديدة منهم فى الإسلام أيام الفتوحات نفسها، وبما أن الأكثرية من الشعب السندى كانوا من البوذية رغم كون الحكومة من البراهمة فى أيام الفتح العربى يمكن لنا القول بأن أغلبية الشعب السندى قد دخلوا الإسلام فى عهد العرب الذى أستمر أكثر من ثلاثة قرون من الزمن، وقد وقعت مثل هذه الواقعة من قبل حين تقرب البوذيون من العرب المسلمين ببلاد فارس وتركستان وأفغانستان ودخلوا

الإسلام فى سنوات قليلة بعـد فتح تلك البلاد مباشـرة، ولابد أن البوذية فى بلاد السند قد سـمعوا أخـبار البوذيين الذيـن تشرفوا بقـبول الإسلام قـبلهم فى البلاد الأخرى وما وصلوا إليه من مكانة اجتماعيـة وسياسية فى تلك البلاد بعد إسلامهم وبفضل معـاملة العرب الطيبة لهم، مما شـجع ذلك سكان بلاد السند البوذيين فى قبول الإسلام والاندماج فى العرب بسرعة وبرغبة شديدة، وكذلك يمكن لنا القول بأنه لولا كون البوذية أغلبية الشعب الـسندى لكان من الصعب استمرار العرب فى الحكم لقرون عـديدة فى تلك البلاد الواسعة بسـبب ظروف كثيرة سـياسية وقـبلية واجتماعية.

ومن ناحية أخرى يبدو أن الديانة البوذيـة فى عهد العرب ببلاد السند كانت تمر بمرحلة دقيقة جدا لدرجة أن علماءها أيضا لم يكونوا ينظرون إلى دينهم بعقيدة راسخة، ولعل أهم سبب فى ذلـك كان يرجع إلى العوامل النفسية والاجتـماعية، وكانت الديانة فى المناطق التى كانت فى أيدى الحكام البراهمـة قد أخذت تضمحل بالتدرج نتـيجة للاضطهـاد المذهبى الوحشى من جانب البـراهمة فى الوقت الذى كانـت الديانة البرهمـية تأخـذ طريقهـا من جديد لوصـول إلى مكانتهـا المذهبـية والسياسية القوية السابقة، وأما الأغلبية من البوذيين الذين كانوا يقيمون فى المناطق التى يحكمها الحكام العرب قد دخلوا الإسلام كما قلنا حين وجدوا فى تعاليمه كل معانى الخير من عدالة اجتماعـية وحرية دينية ولا سيما طريقا للخلاص من مظالم البراهمة.

الدعوة الثانية إلى الإسلام:

كانت الدعوة الثانية المنظمة الكبـيرة إلى الإسلام، هى دعوة الخليفة الصالح عمر بن عبـد العزيز الأموى، وإجابة لهذه الدعوة المبـاركة دخل فى الإسلام عدد كبـير من الأمـراء والحكام فى بلاد السند وخارجـها، وكـان معظمهم مـن البوذية والإقليمـية من البرهميـة، من بينهم الأمير جـيسية بن داهر ولى عـهد بلاد السند وشقيقه الأمير صصه بن داهر، وكان جيسية فى هذا الوقت يحكم منطقة برهماباد

التى خرجت من أيـدى العرب منذ الاضطرابات السيـاسية التـى قامت بعد مـقتل القـائد مـحمـد بن القـاسم بالعـراق سنة ٩٦هـ ولا شك فى أن الحـاكم إذا دخل الإسلام لابد أن تتبعه أغلبية شعبـه ولا سيما معظم قواده ورجال حكومته، وعلى ذلك دخلت جماعـات كبيرة من البرهميـين فى الإسلام فى عهد الخليفـة عمر بن عبد العزيز العادل رحمه الله.

الدعوة الثالثة إلى الإسلام:

كانت الدعوة الثالثة المنظمة الكبيرة من طرف الخليفة المهدى العباسى فى سنة ١٥٨هـ، فبعد توليـه الخلافة اهتم بالتبليغ والدعوة للإسلام، فكتب رسـائل رقيقة فى هذا الموضوع إلى كثـير من حكام وملوك وأمراء العالم وبعـث إليهم وفوده من العلمـاء ليدعـوهم إلى الإسلام وكـان معظم هؤلاء الحكام من الذيـن يخضـعون لسلطان الخليفة العباسى السياسى، فـقد كان من ثمرة هذه الدعوة المقدسة أن دخل فى الإسلام خمسة عشر ملكا وأميرا وكانوا يحكمون مناطق مختلفة من بلاد السند وعلى حدود مع بلاد الهند.

وهكذا أخذ الإسلام ينتـشر يوما بعد يوم وتتسع دائرة انتـشاره، بفضل تلك الدعوات شبه الرسـمية إلى الإسلام والعلاقات الطيبـة بين العرب المسلمين وأهالى السند غير المسلمين، وكذلك بسبب صلات القرابة والنسب بين العرب وأهل السند المسلمين فى تلك المنطقة من العالم.

وذكر البلاذرى أن ملكـا هنديا وهو ملك ولاية عسيفـان قد دخل الإسلام، وكانت عسيفان فى ذلك الوقت تقع فى إقليم البنجاب على الحدود مع بلاد الهند، ولكنها لم تكن تتبع حكومة العرب فى الملتان وكانت سبب دخوله فى الإسلام هو عدم شعوره بالارتياح والاطمئنان فى مذهبه وكان فى الغالب برهمى المذهب.

وكذلك فى عهد الأمير عبد الله بن عمـر بن عبد العزيز الهبارى أمير الدولة العربية الهبارية ببلاد السند فى سنة ٢٧٠هـ، وطلب منه ملك لمنطقة سندية مجاورة

لمدينة المنصورة عاصمــة تلك الدولة العربية، أن يبعث إليه بتعاليم الإســلام لرغبته الشديدة فى معرفتــها، فألف شاعر عربى قصيــدة باللغة السندية عن تعاليم الإسلام فأرسلها أمير المنصورة إليه، فأعجب الملك بهــا كثيرا وطلب حضور الشاعر العالم نفسه الذى ظل معه ثلاث سنوات يفســر له القرآن الكريم كله ثم ترجمه فى النهاية إلى اللغــة السندية حتى أعلن الملك إســلامه لدى هذا العــالم العربى وهناك أمـثلة كثـيرة عن دخول عظمــاء بلاد السند والملتان والأمراء والقــواد فى الدين الإسلامى برغبتهم بعد دراسة دقيقة لحقائق الإسلام ومبادئه الاجتماعية العادلة.

زيادة انتشار الإسلام بسبب عملية المزج بين الأمم:

نلاحظ أن فتح العرب للبلاد الأخرى تسبب فى عملية مزج واسعة قوية بين العرب الفاتحين والأمم المفتوحة، مزج فى الــدم ومزج فى النظم الاجتماعية ومزج الآراء العقلية، وكان من أهم أسبــاب هذا المزج تعاليم الإسلام فى الفتح، ودخول كثـير من أهل البلاد المفـتوحة فى الإسلام، والاخـتلاط بين العرب وغـيرهم فى السكن والعمل فى البلاد.

وتقضى تعــاليم الإسلام فى الفتح بأنه أراد المسلمون غــزو بلد وجب عليهم أولا أن يدعوا أهله دخول الإسلام فإن أسلمــوا كانوا هم وسائر المسلمين سواء فى الحقوق والواجبات، وإن لم يدخلوا الإســلام دعوهم إلى تسليم بلادهم للمسلمين يحكمونها ويبقون هم على دينهم إذا أرادوا ذلك ويدفـعون الجزية للعرب فإن قبلوا ذلك كان لهم ما للمسلمين وعليــهم ما على المسلمين، ويكونون فى ذمة المسلمين يحمــونهم ويدافعون عنهم ومن أجــل هذا يسمون " أهل الذمــة " وإن لم يقبلوا الإســلام ولا الدخول تحت حكم المسلمــين ولا دفع الجـزية أعلنت عليهم الحــرب وقوتلوا وفــلا أثناء القتــال يحل للمسلميــن أن يقتلوا المحاربين ومن يعـينهم على الحرب، فأمــا المرأة والطفل والشيخ الفانى والأعمى ونحوهم فــلا يجوز قتلهم فى الإسلام، ما لم يكن أحدهم ذا رأى فى الحرب يؤلب الكفار على المسلمين، وبعد الحرب يمكن للمسلمين أن يأخذوا الأســرى عبيدا وجوارى ثم بعد ذلك لهم الحق

فى أن يطلقوا سراح الأسرى منا وكرما أو فى مقابل فدية، ويدل على ذلك قوله تعالى: (حتى إذا أثخنتموهم فى الحرب فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء) أما أهل البلد المفتوح غير المحاربين فيدفعون الجزية.

وكان كثير من أهل البلاد المفتوحة يقعون فى الأسر فى أيدى العرب الفاتحين أثناء الحرب أو القتال ويصبح كثيرا منهم عبيدا وجوارى للعرب، وكان لهؤلاء العبيد والجوارى أثر كبير فى عملية المزج بينهم وبين العرب من نواح عديدة، وكان العرب يطلقون سراح العبيد والجوارى بعد مدة من الزمن ويردون لهم حريتهم إذا دخلوا الإسلام أو أحسنوا الخدمة أو بلغوا درجة من العلم والكمال، وكان للعرب الحق فى الاستمتاع بالآماء وإذا ولدت الآمة ولدا من سيدها تسمى " أم الولد " وتبقى فى ذمته ولا يحق له أن يبيعها لأحد بل وجب عليه رعايتها طول العمر وإذا مات هو صارت حرة، فالأولاد الذين كانوا يأتون إلى الوجود عن طريق الإماء كانوا كثيرين فى العدد وكانوا يتبعون الآباء فى الدين وبذلك كان أيضا يزيد عدد من المسلمين وبزيادة عددهم يزداد انتشار الإسلام بين الآخرين بالتأثر الفكرى والاجتماعى، وقد أنتج هؤلاء الأرقاء والموالى والإماء الذين دخلوا الإسلام، أنتجوا فى الجيل الثانى لعهد الفتح عددا كبيرا من خير المسلمين وكان منهم من حمل لواء العلم والمعرفة فى تلك البلاد.

ومن عوامل الامتزاج وانتشار الإسلام أيضا دخول شعوب البلاد المفتوحة فى الإسلام، فقد دخل الإسلام كثير من أهل البلاد المفتوحة وامتزجوا بالعرب كأنهم منهم بعد الفتح وخدموا الإسلام بإخلاص فى تلك المناطق من العالم.

وكذلك الاختلاط فى السكنى والعمل يعتبر من عوامل الامتزاج وانتشار الإسلام، فقد صارت البلاد المفتحة مسكونة بالفاتحين العرب والمفتوحين من أهل البلاد واشتركوا جميعا فى الحركة الاجتماعية والاقتصادية، وبالتالى تأثر أهل البلاد المفتوحة بأفكار الفاتحين من الناحية المذهبية والفكرية، مما أدى ذلك أيضا إلى انتشار الإسلام بين الطبقات المختلفة.

وكان لهذه العوامل التى ذكرناها أثـرها فى الامتزاج بين العرب وأهل البلاد المفتوحة، وبالإجمـال فإن كل مرافق الحياة والنظم السياسية والاجـتماعية والفكرية تأثرت تأثرا كبـيرا بهذا الامتـزاج الذى ساعد كـثيرا على انتشـار الإسلام فى تلك البلاد الواسعة.

دور المساجد فى نشر الإسلام وخدمة العلم:

مما هو جدير بالذكر والتـقدير هنا أن محمد بن القاسم الثـقفى - رغم صغر سنه وكـونه قائدا عـسكريا ورغم مـا كان ينتـظره من المشاق والجـهود والحـروب والمخـاطر منذ اليوم الأول الذى وضع فـيه قـدمـه على أرض بلاد السند فى سنة ٩٢هـ اهتم بالأمور الدينية والإسلامية اهتماما عظيما وفكر فى وضع الخطة السليمة لتبليغ الإسلام التى عـرف حاليا باسم دولة باكستان، والتى حكمـها العرب حكما إسلاميا حتى سنة ٤١٦هـ.

ففى أيام الحروب والفتوحات وذلك فى خلال ثلاث سنوات متوالية، قبل أن يتفـرغ تماما من فتح كل أجزاء بلاد السنـد، بل حتى قبل حربه المصـيرية مع داهر ملك السند وقبل سقـوط العاصمة السندية وقـبل الاستيلاء على الأقاليم الشـرقية ذات الحصون المنيـعة والقلاع العظيمة التى كانت مـدججة بآلاف من الجنود وأنواع الأسلحة الخطيرة، وقبل إخضاع المدن الكبيـرة التى يحكمها أمراء عظام، فإنه حين بدأ بالفتح فى المناطق الغربيـة لبلاد السند، كان يقيم المساجد فى كل مـدينة كبيرة يفتـحها ويـسكنها عددا كـبيرا مـن العرب ويعين الأئمـة والعلماء والقـضاء لأداء الشعائـر والفرائض الدينية وإدارة الشئـون المذهبية والتعليـمية، فهذا الـتصرف من جانب ذلك القائد يدل على شيـئين مهمين: أولهما هو اعـتماده القوى على الله، وإيمانه الكامل بأن الله سـينصره فى كل خطوة من خطواته مادام قـد أخلص النية لله وفى سبيل الله ولإعلاء كلمة الحق والدين، رغم قلة العدد وقلة العدد، ورغم المصاعب والمشاكل التى تحيط به من كل جهـة، مثل سوء المناخ وقلة المواد الغذائية ومخاطر القبائل السندية كالزط والميد، وثانيهـما هو اهتمامه الشديد بالأمور الدينية

والسعى للدعوة إلى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة أيمانا منه بأن الدين هو دستور الحياة، لقد اهتم بالأمور الدينية رغم الظروف القاسية وذلك بالعمل على تطبيق تعاليم الإسلام على العرب المقيمين فى تلك المناطق ونشر هذه التعاليم بين أهل بلاد السند الذين يرغبون فى معرفة حقيقية الإسلام أو الدخول فى هذا الدين الحنيف.

ولا شك فى أن تلك المساجد بجانب إقامة الصلوات الخمس والشعائر المذهبية وتدريس العلوم فيها، قد جذبت انتباه أهل السند وأوجدت عندهم حب الاستطلاع والمعرفة عن الإسلام، مما أدى ذلك إلى السعى لدراسة تعاليم الدين الإسلامى وبالتالى أدى إلى قبول الكثيرين منهم للإسلام عن رغبة صادقة وعقيدة راسخة فى القلوب على أيدى هؤلاء الأئمة والعلماء والقضاء والقائمين بمهمة التبليغ بجانب أداء واجباتهم الدينية، نحو العرب المسلمين.

فمن المساجد التى بناها محمد بن القاسم فى أثناء فتوحاته فى المناطق الغربية ببلاد السند قبل حربه المصيرية مع داهر ملك بلاد السند مثل المسجد الذى بناه بمدينة الديبل فى سنة ٩٢هـ والمسجد الذى أقامه فى مدينة النيرون فى سنة ٩٢هـ أيضا ثم من المساجد التى شيدها بعد انتهائه من ظهر علماء أجلاء من أهل السند أنفسهم فى المنصورة والديبل والملتان بصفة خاصة وفى المدن الأخرى بصفة عامة، وكان لهؤلاء العلماء العرب بالاشتراك مع العلماء السند أثر كبير فى انتشار الإسلام على مساحات كبيرة فى هذه البلاد، وتعميم تدريس العلوم الإسلامية كالفقه والحديث والتفسير وكذلك اللغة العربية فى مختلف المناطق بين مختلف الطبقات.

وكذلك حين توسع الولاة العباسيون فى ميدان الفتح وفتحوا بعض المدن الهندية المجاورة لحدود بلاد السند أقاموا فيها بعض المساجد، وإن لم يستمر حكمهم فيها سوى سنوات فى كل مرة ومنها: المساجد التى أقامها الجنيد ابن عبد الرحمن المرى والى السند فى خارج بلاد السند على الحدود باقليم الكجرات الشمالية ببلاد الهند حين فتحها سنة ١١٣هـ تقريبا والمسجد الكبير الذى بناه هشام

ابن عمرو التغلبى والى بلاد السند بمدينة القندهار (كندهار) بعد فتحه لإقليم الكجرات ببلاد الهند فى سنة ١٥١هـ وكذلك المساجد التى بناها الفضل بن ماهان ووالده فى مدينة سندان وما حولها من المدن فى سنة ٢١٧هـ وما بعدها حين أقام هؤلاء الثلاثة دولة مستقلة لهم فى تلك المنطقة لفترة قصيرة من الزمن.

وكذلك بنى العرب مساجد أخرى كثيرة فى المدن السندية المختلفة أثناء حكمهم الذى استمر إلى سنة ٤١٦هـ، فى بلاد السند، ولا شك فى أنه كان لتلك المساجد دور كبير فى ميدان التبليغ للإسلام لكونها مراكز دينية إسلامية، كما كان للأئمة والعلماء والقضاة القائمين بمهمة الدعوة إلى الإسلام وبتدريس العلوم الإسلامية واللغة العربية، والعمل على نشرها بشتى الطرق خدمة لدين الحق، دين التوحيد، دين العدالة الاجتماعية، دين الإنسانية، حتى إذا ما وصلنا إلى أواخر القرن الرابع الهجرى والسنين الأخيرة من حكم العرب ببلاد السند والملتان وجدنا هذه المدن المشهورة وضواحيها إسلامية أو شبه إسلامية، بمعنى أن معظم السكان فيها صاروا من المسلمين ولا سيما فى مدينة المنصورة وضواحيها، ومدينة الملتان ونواحيها، وفى المدن الأخرى الكبيرة نحو نصف السكان كانوا من المسلمين العرب والسند، ذلك بفضل هذه المساجد العامرة التى صارت أكبر معاهد للدرس والعلم، كما اشتهرت تلك المدن الكبيرة وخاصة المنصورة والملتان والديبل بجهود علمائها العظام وأصبحت من أهم مراكز الثقافة الإسلامية، لا فى بلاد السند والملتان وحدها بل فى شبه القارة الهندية كلها، وخرجت من هذه المساجد والمعاهد المئات من العلماء السند الذين شاركوا إخوتهم العلماء العرب فى نشر العلوم الإسلامية لا فى داخل بلاد السند بل حتى فى البلاد العربية ودار الخلافة العباسية نفسها، وقد وصل عدد كبير من هؤلاء العلماء السند إلى مناصب عالية فى الدولة بفضل الإسلام.

وهكذا رأينا كيف كان دور العرب التجار والجاليات العربية فى نشر الإسلام فى السواحل الجنوبية لبلاد الهند منذ فجر الإسلام، ثم كيف كان دور الحكومة

العربية فى رفع راية الإسلام عالية خفـاقة فى بلاد السند والبنجاب منذ فتحها سنة ٩٢هـ إلى سنة ٤١٦ هـ، وكـان من نتيـجة ذلك أننا نرى اليـوم البـاكستـان دولة إسلاميـة عظيمة ونرى بنغلاديش أيضا دولة إسـلامية كبيرة وكـذلك نرى عشرات الملايين من الإخوة المسلمـين فى بلاد الهند، وبعبارة أخرى نسـمع صوت الإسلام عاليا فى جميع أنحاء شبه القارة الهندية.

* * *



الفصل الرابع

الهند والسند والبنجاب في العصر الأموي

أ - ولادة السند والبنجاب فى عهد الدولة الأموية:

جاء واليا على هذه البلاد التى كانت لإقليم العراق فى عهد بنى أمية كل من:

عبد الرحمن بن سمرة سنة ٤٢هـ = ٦٦٢ م.

عبد الله بن سوار العبدى سنة ٤٣هـ = ٦٦٣ م.

سنان بن سلمة الهزلى - فاتح مكران - سنة ٤٨هـ = ٦٦٨ م.

راشد بن عمر الجديدى الأزدى سنة ٤٩هـ = ٦٦٩ م.

أبو الأشعت المنذر بن الجارود العبدى سنة ٥١هـ = ٦٧١ م.

ابن حرى الباهلى سنة ٦١هـ = ٦٨٠ م.

سعيد بن اسلم بن زرعة الكلابى سنة ٧٥هـ = ٦٩٤ م.

عبيد الله بن أبى بكرة سنة ٧٩هـ = ٦٩٨ م.

محمد بن القاسم الثقفى ٨٩ (أو ٩٢ هـ) = ٧١٠ م.

يزيد السكسكى ٩٦هـ = ٧١٤ م.

حبيب بن المهلب بن أبى صفرة ٩٦هـ = ٧١٤ م.

ونود أن نخص كل من وفدوا بعد محمد بن القاسم بكلمة موجزة. فى عهد الخليفة **سليمان بن عبد الملك** - تولى كل من:

- يزيد السكسكى، عهد إليه بالإمارة سنة ٩٦هـ = ٧١٤ م، ولم يلبث فى عمله إلا ثمانية عشر يوما توفى بعدها.

- حبيب بن المهلب بن أبى صفرة وهو أخ ليزيد بن المهلب وإلى العراق وخراسان، وقد حاول القضاء على الفتن والاضطرابات ونجح فى إعادة الاستقرار

على كثير من البلاد، بيد أنه لم يتمكن من التوجه إلى برهمان أباد، وقد عزله الخليفة عمر بن عبد العزيز بعد سنتين من إمارته يعنى سنة ٩٩ هـ، وكان السبب اتهامه مع أخيه بالاشتراك فى مؤامرة ضد الخلافة.

وفى عهد خلافة عمر بن عبد العزيز، تولى على السند والبنجاب عمرو بن مسلم الباهلى أخو قتيبة ٩٩ - ١٠١هـ = ٧١٧ - ٧١٩ م، وقد تمكن من القضاء على الفتن ونشر الأمن والاستقرار فى أرجاء البلاد.

ومعروف عن خامس الخلفاء الراشدين، اشتهاره بالعدل والإنصاف، وقد كتب سنة ١٠٠هـ = ٧١٨م رسائل إلى الأمراء والأعيان والقادة فى السند، يدعوهم إلى الإسلام، على أن يقرهم فى مناصبهم الحكومية ويكون لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم، وكانت سيرة الخليفة الحسنة قد بلغت هؤلاء واقتدى به وإليه، فنجحت هذه السياسة ودخل كثير من الأمراء والزعماء فى الإسلام وتسموا بأسماء إسلامية، وكان بين هؤلاء الأمير " جيسية بن داهر " الذى حكم برهمان آباد، كما قبل البعض الآخر الآعتراف بسلطة الدولة الإسلامية مع الاحتفاظ بديانته ودفع الخراج والجزية، وهكذا عم الاستقرار وساد الأمن بفضل سياسة وحكمة الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز، وكياسة وحسن معاملة واليه عمرو بن مسلم الباهلى.

ولما آلت الخلافة إلى يزيد بن عبد الملك، عين واليا السند:

- هلال بن أحوز التميمى ١٠١ - ١٠٦هـ = ٧١٩ - ٧١٤ م.

وفى بداية عهده تمكن يزيد بن المهاب، أحد زعماء اليمانية من الهروب من السجن واستطاع الوصول إلى المناطق الشرقية التابعة للخلافة الأموية، وأخضعها لسيطرته، وأرسل واحدا من كبار أتباعه وهو وادع بن حميد الأزدى إلى مكران فى بلاد السند، ومنها اجتاز إلى مدينة " قندابيل " واتخذها حصنا يلجأ إليه آل المهلب إذا حملتهم الظروف على ذلك، لكن يزيد بن المهلب قتل، وانهزم أعوانه

فى حروبه ضد الخلافة، وفر ابنه معاوية إلى " قندابيل " حيث أقام هناك، ولهذا كانت الأوامر صريحة للوالى هلال بأن يعمل للقضاء على خطر آل المهلب، وقد كون جيشا تمكن به من الانتصار على أعدائه، وأزال خطرهم من بلاد السند، وبقى يمارس مهام الولاية إلى أن عزله الخليفة هشام بن عبد الملك.

وقد عين الخليفة الجديد هشام على بلاد السند:

الجنيد بن عبد الرحمن المرى ١٠٧ - ١١١هـ = ٧٢٥ - ٧٢٩ م.

فسار على رأس جيش وصل إلى تلك البلاد، ونزل فى مدينة " الديبل " وقرر أن يتفقد أخبار ذلك الاقليم بنفسه فسار على شاطئ نهر السند إلى أن وصل مدينة " برهمان آباد " وكان الخليفة عمر بن عبد العزيز قد أقر عليها الأمير "جيسية بن داهر" بعد إسلامه، فرفض لذلك دخول الوالى الجديد للمدينة قائلا: "إنى قد أسلمت وولانى الرجل الصالح عمر بن عبد العزيز بلادى، ولست آمنك".

وكان الجنيد داهية فطنا فلم يبد غضبه، وحاول حل المشكلة بالوسائل السليمة، خاصة وهذا القائد يتبعه حكام وقواد فى مناطق السند المختلفة وفى منطقة حدودها مع الهند، ومن هنا طلب من الأمير رهنا مكتفيا بذلك وبأن يتعهد ذلك الأمير بأداء ما على ولايته من الخراج والجزية.

وبقى كل منهما يراقب الآخر ويستعد له ولا يطمئن أو يأمن جانبه، بل أخذ كل منهما يجهز الأسلحة والمراكب الحربية، وتطورت الأحداث بصورة أدت إلى نشوب معركة بحرية بين الطرفين فى منطقة " بطيحة الشرقية " أسر فيها الأمير "جيسية " Jaisiuha ثم قام الجنيد بقتله فى الحال.

ويذكر " البلاذرى " أن كفر " جيسية " وردته كان وراء قتل الجنيد له، ونص عبارته " كفر جيسية بن داهر أغضب الجنيد، وقيل أنه لم يحارب، ولكن الجنيد تجنى عليه "، ويبدوا أن ذلك غير صحيح، فلم ترد هذه الإشارة إلا عند

البلازى، وقد رغب أخ للأمير اسمه "صصه بن داهر" فى الذهاب إلى دار الخلافة لتقديم شكوى للخليفـة، ولبيان أن أخاه كان مسلما وأنه قتل ظلمـا، فسبب القتل ليس دينيا ولكنه سبب سياسى، مرجعه ما يمثله "ابن داهر" من خطورة على أمن واستقرار السند، وما قد يقوم به من فتن خاصة وأنه كانت له علاقات بقواد آخرين وبإمارات مجاورة لبلاد الهند.

بعد ذلك قام الجنيـد بفتح مدينة "الكيرج" التى عـصى أهلها وثاروا بعد أن فتحـها محمـد بن القاسم عندما غادر الأخـير البلاد، وقد جمع حـاكمها جـيشا وخـرج لمحاربة الجنيـد، ولكن الحاكم أنـهزم وفـر إلى داخل المدينة، فاسـتخـدم المسلمون النيران والحجـارة والمنجنيقات وقذفوا المدينة، كما اسـتخدمت آلة جديدة تسمى "كبـاش" فى ذلك سور المدينة حتى تمكن المسلمـون وإن تمكن حاكم المدينة من الهرب.

ويبدوا أن سـمعـة الجنيد قـد انتشـرت فى أرجاء البـلاد بعد سـيطرته على المدينتين المذكـورتين، فساد الهدوء والأمن كل الأرجاء، ولذلك نـرى الجنيد يترك الاهتمام بداخل السند، ويتـجه ناحية حدود السند الجنوبية الشرقـية المتصلة بإقليم الكجرات فى بلاد الهند.

وكان هذا الإقليم مـصدر مـشاكل كثـيرة، وكانت بمثـابة مصـدر للأسلحة والقوات والمسـاعدات العسكرية أثناء فتن الأمـير "جيـسية" ضـد الوالى الأموى، فكان لابد من القضاء على بؤرة المشاكل والأخطار.

وقد جـهز الجنيد جيـشا ضخـما وزحف به نحو مديـنة الكيرج من الطريق الصحـراوى وتمكن من فتح مرمد (مـا رواد) ثم من فتح مدينة المدل (مـاندل) بعد قتال ثم مدينة دهنج (وهنج) ثم استولى على مـدينة "بنجاسر" عاصمة الكجرات الشاملية ثم توجـه إلى مدينة بهروج (بروص) وفتحها ثم مـدينة الماكية وهى إقليم مـالوه الشرقـية الغـربيـة ثم حارب أهل مـدينة ارنين (أجـين) عندما عـرف أنهم

يستعدون للقتال وفتحها ومنها اتجه جيشه ناحية "بهرمد" وأشعل النيران فى ضواحيها وقضى على المعاندين بها.

فى هذه الأونة سمع الجنيد بوجود فتن فى سرست والبيلمان والجزر من بلاد السند فعاد إلى هذه البلاد وقاتل أهلها ونشر الأمن فى ربوعها وأعاد الاستقرار إليها، ثم رجع إلى عصمة الحكومة الإسلامية برهمناباد ويمكن القول إذن أنه انتصر خارج السند فى " راجبوتانا " Rajputana وكاثى وار " Kathiawar وشمال جوخارات Gujarat وأرسل حملات أبعد من ذلك عند " أوجاين " Ujain ومالو Malwa، وقد بلغ من صدى انتصاراته أن خشية ملك " كشمير " Kashmir وطلب نجدة إمبراطور الصين ووضع نفسه تحت حمايته.

وكان الجنيد موفقا فى كل فتوحاته، أعاد إلى الذاكرة أعمال محمد بن القاسم، وكان من الممكن أن يحقق نجاحا اكبر لولا الفتن والاضطرابات، وقد جمع العديد من المغانم وترك فى خزينة الدولة أربعين ألف ألف (مليون) درهم ومنح الكثير من العطايا حتى أثنى جرير عليه وامتدح جودة فى قولة:

أصبح زوار الجنيد وصحبة　　　يحيون صلت الوجه جما مواهبه

كما تمكن خلال السنوات التى قضاها فى السند من تنظيم أمور تلك البلاد سياسيا واقتصاديا وإداريا. لقد كانوا صنو ابن القاسم وامتدت فتوحاته إلى بعض الأقاليم والمدن الهندية وفى بحر سنتين استولى على شمال غرب الهند بكامله، ولعله لوب قى فى ولايته لفتح الهند كلها...

وقد ذكر واحد من المؤرخين الهنود أن هناك إشارات فى لوحات "توازارى" المؤرخة سنة ١٢١هـ = ٧٣٨م تدل على أن العرب - المسلمين - قد قاموا بحملات استطاعوا خلالها هزيمة بعض ملوك الهند المشهورين، ويغلب على الظن أن المقصود بهذه الحملات قوات الجنيد أو قوادة الذين توجهوا ناحية هذه المناطق.

وكان نجاح الجنيد سببا فى نقله إلى منطقة أخرى تحتاج لجهوده وكانت قد

كثرت فيها الحركات المعادية للدولة الأموية وانتشر بها دعاة بنى العباس وهى منطقة الولايات الشرقية وخراسان بصفة خاصة، وكان هذا مبرر نقل الجنيد إلى بلاد خراسان، وقد بقى الجنيد بخراسان حتى مات سنة ١١٦هـ = ٧٣٤ م.

تميم بن زيد العتبى (١١١ - ١١٢ هـ) - ٧٢٩ - ٧٣٠ م.

تولى على بلاد السند مر خالد بن عبد الله القسرى - وإلى العراق - ولم يكن له كفاءة ولا مقدرة الجنيد ولم يستطيع استغلال ما خلفه الوالى السابق من ازدهار واستقرار، ولم يحط باحترام القادة والأعوان، وتفاقمت الخلافات القبلية لوقوف الوالى مع اليمانية ضد البرارية (المصرية) ولما كثر أعداؤه اضطر للهرب من مكان إلى آخر، ورفع أعداء المسلمين رؤوسهم بالثورات واضطربت الأمور فى بعض مناطق السند، وساعد الوضع الجديد على قيام أهل الكجرات بثورات عنيفة اضطرب المسلمين للانسحاب وترك هذا الإقليم الهام.

إزاء هذا السوء وكثرة المشاحنات والاضطرابات والمنازعات، اضطر الوالى إلى ترك البلاد ومغادرتها إلى العراق، وقد مات عند الديبل فى طريقة إلى العاصمة وأسرع الخليفة فولى على بلاد السند.

الحكم بن عوانة الكلبى (١١٢ - ١٢١ هـ) = ٧٣٠م - ٧٣٨ م.

وهو من الشبان الذين صحبوا ابن القاسم أثناء فتوحاته فى بلاد السند وكانت ترابطه صداقة بفؤاد الفتح والجهاد فيها وقد عزلة الخليفة هشام عن خراسان سنة ١١١هـ ٧٢٩م بسبب فشل سياسته وعدم تمكنه من القضاء على أعداء الدولة الأموية من دعاة العباسيين وغيرهم.

وعندما وصل على السند، تذكر فشله فى خراسان، وتذكر الفوضى التى خلفها النزاع القتالى ما تذكر سياسة الجنيد لتلك البلاد، وقد أراد أن يستغل مكانة محمد بين القاسم واستيلاءه على قلوب الناس فى هذا الإقليم، فعهد إلى ابنه عمرو بن محمد بن القاسم بالأمور الإدارية وحل المشكلات المعضلة والنزاع بين

القبائل، وقد ساعد على قبول التعيين أن نائب الوالى حجازى بينما الوالى نفسه من اليمنيين، وبذلك رضى أطراف النزاع.

وكان على الوالى الجديد أن يعمل على إنقاذ القوات العربية التى تحاصرها تجمعات الأعداء، لجأ على أمر هام حين قرر القيام ببناء مدينة فى مكان حصين تكون موطنا للمسلمين ومقرا لقيادتهم العسكرية، ويمكن أن تكون موئلا للمسلمين فى أوقات الفتن والأزمات وقد انتهى من تشييد هذه المدينة على الشاطئ الشرقى لنهر السند بالقرب من حيدر آباد الحديثة وأسماها " المحفوظة " لتكون فى حفظ الله، وقد نزلها الجيش الإسلامى فيها كما جعل المسلمين يقيمون بها وبنى بها مسجدا واهتم بعمارتها واتخذها عاصمة السند الإسلامية بدلا من مدينة "برهمناباد" التى غلب عليها سكنى غير المسلمين.

وقد اهتم أيضا بالجيش تدريبا وإعدادا وتسليحا، وكلف عمرو بن محمد بن القاسم أن يتوجه إلى مناطق الفتن، وأن يقضى على ثورات بعض المدن ويعيدها للحكم الإسلامى، وقد نجح نائب الوالى فى أداء مهمته بمقدرة وبراعة أعادت إلى الأذهان ما قام به أبوه من قبل، وكان نجاح السياسة الجديدة باعثا على دهشة وتعجب والى العراق خالد بن عبد الله القسرى الذى قال:

واعجبا وليت فتى العرب فرفض (يعنى تميما) ووليت أبخل الناس فرضى به (يعنى الحكم).

وقد استمر الحكم واليا لمدة ثمانى سنوات ثم عزله والى العراق لأسباب لها علاقة بالنزاع القبلى، وما لبث خالد والى العراق أن قتل نفسه بأمر الخليفة هشام، الشيء الذى أحنق اليمانية، وجعلهم ينضمون لعداء بنى أمية، مما عجل بسقوط دولتهم، وهكذا أضعفت العصبية القبلية بنى أمية فى الأمصار وأهلكت الجيش وأذنت بزوال سلطانهم ولا غزو فقد كان ذلك العصر محزنا ملأ قلوب الصالحين من المسلمين تشاؤما بالمستقبل ".

وكمـا هو معروف فـإن الاضطرابات فى موطن الخلافـة، تترك أثارها على الأقاليم ومنها بلاد السند، فقد انتهز بعض الزعـماء الفرصة وقاموا بفتن وحركات معادية للدولة فقرر الوالى الحكم بن عوانـه أن يخرج بنفسه وتوغل فى البلاد حتى وصل إلى القيـقان وقندابيل، وحارب الثـائرين هناك قائلا " أمـا فتح يرضى عنه يوسف الثقفى والى العراق - بعد خالد بن عبد الله القسرى - وأما شهادة استريح بها منه " وقـد أمكنه القضاء على كل الحـركات الثائرة فى المناطق المجـاورة لبلاد الهند، واستشهد فى المعركة الأخيرة سنة ١٢١هـ برغم انتصار جيشه، وتولى على بلاد السند من بعده.

عمرو بن محمد بن القاسم الثقفى (١٢١ - ١٢٥) = ٧٣٨ - ٧٤٢ م.

كتب يوسف الثقفى والى الـعراق إلى هشام بن عبد الملك، يستشـيره فيمن يتولى أمر السند بعد مقتل واليها الحكم بن عوانه، فجاء رده يقول:

" إن كان عمرو بن محمد بن القاسم الثقفى قد استهل قوله " فتمت توليته وكان قد بلغ من العمر ٢٦ عاما، وعندما تولى كانت الخلافات القبلية على أشدها فى السند وفى غـيرهـا من بلاد الدولة الأموية، وكـان خطر ثورات سكان البـلاد قائمـا، وهذا هو السبب وراء تفكيـر الوالى فى إقامة مـدينة حصـينة أخرى تكون ملجأ للعـرب والمسلمين إذا استفلت الأمـور، فبنى مدينة جديدة فى الجـهة المقابلة "للمحـفوظة" على جانب بحـيرة تقع شرقى نهـر السند، وجعلها مـركزا للحكم بسبب موقعها الجغرافى الهام وقربها من مدينة المحفوظة حيث كانت على بعد كيلو مترات قليـلة إلى الشمال الشرقى من برهمـان آباد واطلق على المدينة الجديدة اسم "المنصورة" وموقـعها الآن مشارف حيـدر آباد السند، وكان ذلك سنة ١٢١هـ وقد استمرت هذه المدينة عـاصمة على امتداد فترة الحكـم العربى أى على مدى حوالى ثلاثة قرون تقـريبا. وقد جـاء بناء هذه المدينة - كغيـرها - متفـقا مع النهج الذى سارت عليه الحكومة فى كل الأمصار الإسـلامية من اختطاط المدن لتكون معسكرا وأساسا لتجميع العنصر العربى المقاتل، فى هذا الإقليم كما فى غيره.

وقد تكالب زعماء السند على عمرو بن محمد بن القاسم وولوا على أنفسهم ملكا وزحفوا جميعا نحو مدينة المنصورة وحاصروا المسلمين بها، وقد كتب الوالى يطلب النجدة من العراق فجاءه جيش قوامه أربعة ألاف مقاتل، فاضطر ملك السند الجديد إلى رفع الحصار.

وقد لفت الأمر نظر محمد بن القاسم إلى ضرورة تكوين جيش قوى يحمى العاصمة ويتمركز فيها، وجيش آخر للقضاء على المناوئين، وإعادة المناطق التى أضاعها العرب بسبب خلافاتهم القبلية، وجعل معن بن زائدة الشيبانى - حاكم سجستان فيما بعد - قائدا على ذلك الجيش الأخير، فقام بغرة ليلية على معسكر ملك السند الجديد وقتل عددا كبيرا من جنوده واضطره نفسه للهرب وسلم أهل السند خشية من عواقب عدائهم للعرب، وربما كان الملك المذكور من منطقة "راجبوتانه" الواقعة على الحدود الهندية، فقد كان لقبائل هذه المنطقة صلة بالقبائل المقيمة فى بلاد السند.

لكن النزاع القبلى لا يترك الأمور تمضى فى طريقها، ذلك أن مروان بن يزيد بن المهلب - وهو من اليمانية - انتهز فرصة انشغال عمرو بن محمد بن القاسم بالقضاء على الفتنة فى مكان ما، وقام بحملة على معسكره وآل بيته واستولى على بعض الأسلحة والدواب، وعلم بذلك عمرو فعاد إلى المنصورة معه كبار قادته لمحاربة خصمه، وتمكن من الحاق الهزيمة بقواته واضطر مروان إلى الهرب، فأعلن عمرو " أن الناس كلهم آمنون إلا ابن المهلب " يعنى عفا عن اليمانية حسما للفتنة، وقرر فقط القضاء على رأس المعاندين، وقد أمكنه الفاء القبض عليه وقتله، وبذلك انتهت حركة التمرد هذه.

وبقى عمرو فى ولاية السند إلى أن مات الخليفة هشام بن عبد الملك سنة ١٢٥هـ وقد كان صورة أبيه فى التسامح والعدل وإطلاق حرية العبادة وتولى الأمر بعد هشام أخوه.

يزيد بن عبد الملك:

اتبع الخليفة الجديد سياسة تعارض سياسة سلفه وتبنى اليمانية وعزل جميع من ولاهم " هشام " على الولايات وبينهم عمرو بن محمد بن القاسم حيث عزله من بلاد السند، وولى عليها واليا من أشد خصوم عمرو قد ألقى القبض عليه قبل فترة وأرسل به إلى بلاد العراق حيث سجن هناك، وقد وصل الوالى الجديد إلى المنصورة وقام بالقاء القبض على عمرو بن محمد وسجنه، وخشى الأخير بشاعة التعذيب فتخلص من حياته بنفسه وكان ذلك سنة ١٢٥ هـ.

يزيد بن عرار الكلبى (١٢٥ - ١٢٧)هـ = ٧٤٢ - ٧٤٤ م.

قام الخليفة يزيد بن عبد الملك فور تولية الخلافة بترك جميع الولاة ما عدا يوسف الثقفى مسئول العراق والإمارات الشرقية، فقد ثبت عنده أنهم كانوا جميعا باستثناء يوسف - يؤيدون عزله من ولاية العهد، ومال الخليفة الجديد إلى اليمانية فى نزاعهم مع المضرية أو النزارية، لأن الأولين أيدوا فكرة هشام الخاصة بعزل يزيد عن ولاية العهد، ولذلك نرى أن اليمانية تولوا المناصب العالية وكانوا أصحاب الحظوة والنفوذ عند الخليفة.

وقد عين منصور بن جمهور الكلبى - زعيم اليمانية - واليا على بلاد العراق، وجعل هذا قريبة يزيد بن عرار الكلبى واليا على بلاد السند.

ولم تطل فترة الخليفة يزيد أكثر من سنتين، وتولى الخلافة من بعده.

مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية (١٢٧ - ١٣٢ هـ) = ٧٤٤ - ٧٤٩ م.

وفى عهده كثر نشاط دعاة العباسيين وقويت حركتهم وامتلأت البلاد بالفتن بصورة قضت على الدولة الأموية كلها وقد تولى على بلاد السند فى عهد مروان بن محمد.

منصور بن جمهور الكلبى (١٢٩ - ١٣٢ هـ) = ٧٤٦ - ٧٤٩ م.

وهو من زعماء اليمانية، اشتـرك فى مؤامرة قتل الخليفة يزيد سنة ١٢٦ رغم أنه ولاه على بلاد العراق وساند قـومه، كما اشترك فى مؤامـرة سليمان بن هشام الذى رغب فى الوصول إلـى الحكم وهزم وفر إلى بلاد السند، وقـد بقى منصور هذا مختفـيا فى بلاد العراق ينتظر الفرصة المواتية وقـد عمل مع الخوارج سرا سنة ١٢٩هـ كما عمل عبد الله بن معاوية عندما قام هذا بالثورة فى بلاد فارس وأنضم إليه وأصبح واحدا من قادته، وقد تمكن الخليفة الأموى من القضاء على جيش عبد الله وأسره وقتله، عندئذ خشى منصور بن جمهور من العواقب ففر بنفسه إلى بلاد السند على أمل أن يحظى بـرعاية قـريبة والى هذه البـلاد يزيد بن عـرار الكلبى، خاصـة وإليه يرجع فـضل تعيينه فى مـنصبه، ولكن حـدث العكس يعنى أن يزيد خشى أن يستـولى الوافد الجديد على أعنة الحكم أو يكون سببا فى غـضب الخليفة الأموى عـيه وطرده، ولهذا حاول يـزيد القبض على منصور، ولكنه سـار بحذاء الضفة الغربية لنهر السند بينما كـان يزيد على الضفة الشرقية، واستطاع منصور أن يستولى على " سوستان " حيث قام بتـجهيز المراكب وألقى بها فى نهر السند بعد حملها على ظهور الإبل، أما يزيد فقد ترك المنصورة على رأس جيش متوجها نحو نهر السند، ودخل الفـريقان فى معـركة حارب منصور فـيها حرب اليـائس وقاتل بشجاعـة حتى هزم قوات يزيد وطارده إلى المنصورة وحاصره بهـا، وضيق منصور على يزيد حتى طلب الأمان، فوافق منصور وسلم المنصـورة إليه وقبل حكمه فأمر القائد المنتصر ببناء أسطوانة عليه وهو حى ليطفئ نار غـيظه ثم استولى على مقاليد الحكم فى تلك البلاد وأقام بالمنصورة وأرسل أخـاه منظور بن جمهور الكلبى على رأس جيـش أخضع الجهـات الغربـية ببـلاد السند من مدينة " الديبل إلى مـدينة قندابيل " وجعله نائبا عنه فى حكمها وتولى تنظـيم النواحى الشرقية بالإضافة إلى داخل بلاد السند، واستمر هناك مستقلا عن الخلافة الأموية التى ثار عليها.

وبعد قيام الخلافة العباسية ١٣٢هـ ٧٤٩م أرسل أبو مسلم الخرساني عبد الرحمن بن أبى مسلم العبدى واليا على بلاد السند، بيد أنه فشل فى طرد الوالى منصور منها، بل لقى حتفه على يديه، فأرسل الخليفة العباسى موسى ابن كعب التميمى، ليكون أول ولاة بنى العباسى - بعد قيام الخلافة العباسية - على مناطق السند والبنجاب، وقد تمكن الوالى الجديد من قتل منصور بن جمهور الكلبى ١٣٤هـ = ٧٥١م ودخلت البلاد فى طور جديد من أطوار التاريخ.

* * *



الفصل الخامس

بلاد الهند والسند والبنجاب

فى العصر العباسى الأول

ب - ولاة السند والبنجاب فى عهد الدولة العباسية.

منصور بن جمهور الكلبى (آخر عمال بنى أمية).

عبد الرحمن بن مسلم العبدى ١٣٤ هـ.

المسيب بن زهير ١٣٤ هـ.

موسى بن كعب التميمى ١٣٤ - ١٤١ .

أبو جعفر عم بن حفص بن عثمان الهلبى ١٤١ - ١٤٢ .

عمرو بن حفص العتكى ١٤٢ - ١٥١ .

هشام بن عمرو التغلبى ١٥١ - ١٥٧ .

روح بن حاتم ١٥٩ .

بسطام بن عمرو التغلبى ١٥٩ - ١٦٠ .

روح بن حاتم - للمرة الثانية ١٦١ هـ.

نصر بن محمد بن الأشعث الخزاعى ١٦١ هـ.

محمد بن سليمان الهاشمى وعبد الملك المسمعى ١٦١ هـ.

زبير بن عباس ١٦٢ هـ.

مصبح بن عمرو التغلبى ١٦٢ .

نصر بن محمد الخزاعى للمرة الثانية ١٦٢ - ١٦٤ هـ.

سطيح بن عمرو التغلبى ١٦٤ .

الليث بن طريف ١٦٤ - ١٧٠ .

سالم التونسى ١٧١ - ١٧٤ .

اسحاق بن سليمان الهاشمى ١٧٤هـ.

طيفور بن عبد الله الحميرى ١٧٤ - ١٧٤هـ.

جابر بن الأشعث الطائى ١٧٥ - ١٧٦هـ.

كثير بن مسلم بن قتيبه ١٦٧ - ١٧٩هـ.

محمد بن عدى التغلبى ١٧٩ - ١٨١ هـ.

ولاية عبد الرحمن ١٨١ - ١٨٢ هـ.

أيوب بن جعفر ١٨٢ - ١٨٤ هـ.

المغيرة بن يزيد المهلبى ١٨٤ - ١٨٥ هـ.

داود بن يزيد المهلبة ١٨٥ - ٢٠٥ هـ.

بشر بن داود المهلبى ٢٠٥ - ٢١٢ هـ.

حاجب بن صالح ٢١٣ هـ.

غسان بن عباد المهلبى ٢١٣ - ٢١٦ هـ.

موسى بن يحى البرمكى ٢١٦ - ٢٢١ هـ.

عمران بن موسى البرمكى ٢٢١ - ٢٢٦ هـ.

عنبه بن إسحاق الضبى ٢٢٦ - ٢٣٥ هـ.

هارون بن خالد المروزى ٢٣٥ - ٢٤٠ هـ.

عمر بن عبد العزيز الهبارى ٢٧٠ هـ.

الدولة الهبارية العربية فى المنصورة بالسند:

عبد الله بن عمر الهبارى ٢٧٠ - ٣٠١هـ.

عمر بن عبد الله بن عمر الهبارى ٣٠٢ - ٣٣٠هـ.

دولة الشيعة فى المنصور ٤٠٢ - ٤١٦ هـ.

حملة السلطان محمود الغزنوى على السند ٤١٦ هـ.

الولاة فى الملتان باقليم البنجاب ٩٤ - ٣٧٥هـ.

حكومة الشيعة فى الملتان ٣٧٥ - ٤٠١ هـ.

ويقتضى الموقف إيجاز القول عن هذه الفترة.

عندما قامت الدولة العباسية سنة ١٣٢هـ = ٧٤٩م عين الخليفة العباسى الأول أبو العباس السفاح - أبا مسلم الخراسانى - واليا على خراسان والمناطق الشرقية بما فيها السند، وبذلك أصبحت الولايات الشرقية تابعة لخراسان بعد أن كانت تتبع بلاد العراق، وقد أرسل الوالى الجديد جيشا يقوده مفلس العبدى إلى بلاد السند لإخضاعها للحكم العباسى، وكان منصور بن جمهور الكلبى الثائر على الأمويين لا يزال يسيطر على هذه المناطق وقد وصل مفلس العبدى إلى "الديبل" عن طريق طخارستان وقاتل جندا يقوده منظور بن جمهور، شقيق منصور بن جمهور، وكان النصر لمفلس الذى واصل تقدمه نحو مدينة المنصورة العاصمة، وقد تألم الوالى منصور لمقتل أخيه، وجهز جيشا كبيرا خرج به من العاصمة ووقع قتال عنيف بين الطرفين، انهزم فيه الجيش العباسى، وأسر قائده مفلس فأمر الوالى منصور بقتله فى الحال.

اختار أبو مسلم الخراسانى موسى بن كعب التميمى وولاة قيادة جيش كبير بلغ عشرين ألفا وفرض لثلاثة رجال من العرب والموالى ولألف من بنى تميم خاصة وجعله واليا على بلاد السند، وكان الوالى الجديد رئيسا للشرطة وله خبرة إدارية

وعسكرية، ولذلك نراه لا يتوجه مباشرة إلى العاصمة المنصورة، بل يتجه نحو مدينة " قندابيل " المحصنة البعيدة عن العاصمة، ويبقى بها مدة يجمع المعلومات عن عدوه وعن أحوال البلاد ويعمل على تقوية جنده، ويتصل بالقارة والزعماء فى المنصورة ليجعل ولاءهم له، وقد نجح فى مهمته واقنع هؤلاء بأنه لا جدوى من معارضة الخليفة العباسى وجيوشه الجرارة.

بعد ذلك عبر نهر السند إلى ناحية الشرقية، والتقى مع جيش منصور ابن جمهور فى معركة حامية، انهزم فيها منصور وحاول الفرار إلى الهند، ولكنه ضل طريقه فى الصحراء ووقع فى الأسر وقتل سنة ١٣٤هـ = ٧٥١م وقيل مات عطشا فى الرمال.

دخل موسى بن كعب العاصمة منتصرا وأسس بها أول حكومة عباسية، ووسع مسجدها الجامع الذى بناه عمرو بن محمد بن القاسم ونظم الأمور الإدارية والسياسية فى إقليم السند وأخذ البيعة للعباسيين، وأرسل وفدا إلى دار الخلافة سنة ١٣٦هـ = ٧٥٣م يشرح أحوال السند وأوضاعها السياسة والمذهبية والفكرية وبقى هناك حتى سنة ١٤٠هـ = ٧٥٧م وقد نجح خلال فترة ولايته فى محو كل أثار الأمويين، وثبت دعائم الحكم العباسى، ثم مات فى بغداد ودفن بها سنة ١٤١هـ = ٧٥٨ م.

وتولى **أبو جعفر المنصور** الخلافة من ١٣٦ - ١٥٨هـ = ٧٥٣ - ٧٧٥م وفى عهده خفف الصراع القبلى وبدت بشائر النهضة العليمة والاستفادة بمنجزات الحضارات الأخرى، وكان لابد أن يترك ذلك تأثيره على بلاد السند.

وقد عين واليا على السند فى زمنه كل من:

عيينة بن موسى بن كتب التميمى ١٤١ - ١٤٢هـ = ٧٥٨ - ٧٦٩ م.

كان نائبا عن والده فى بلاد السند، وقد أصبح واليا بعد وفاة أبيه، فتجدد الصراع القبلى فى زمنه وانحاز هو للنزاريين أو الحجازيين وقتل كثيرا عن اليمنيين، ولهذا أمر الخليفة المنصور بعزله وولى على بلاد السند.

عمر بن حفص بن عثمان بن قبيصة بن أبى صفرة العتيكى ١٤٢ - ١٥٢هـ = ٧٥٩ - ٧٦٩ م.

وقد توجه لبلاد السند على رأس جيش كبير، ولما وصل إلى المنصورة رفض عيينه بن موسى السماح له بدخولها وفشل فى فتح العاصمة، واضطر إلى العودة نحو مدينة " الديبل " ليعد خطة تضمن له فتح المدينة، وهناك انضم إليه القادة والزعماء ممن ضايقتهم سياسة عيينة ونزعته القبلية من بين هؤلاء الذين كان يظن عيينه أنهم أصدقاؤه، وإزاء تخلى الأصحاب عنه لم ير بدا من طلب الصلح وسلم العاصمة لعمرو بن حفص الذى القى القبض عليه وبعث به إلى بغداد، وفى طريقه إلى مركز الخلافة غافل حراسه وحاول الهرب، ولكن واحدا من اليمانية تمكن من قتله وأرسل للخليفة المنصور سنة ١٤٢هـ = ٧٥٩ م.

وقد استقرت أمور السند وتحسن أحوال الدولة واختفت العصبية القبلية على مدار سنوات تسع حكم خلالها الوالى عمر بن حفص، لكن الخليفة المنصور عزله ونقله إلى أفريقيا بسبب بروز النشاط السياسى الشيعى وتأييد ذلك الوالى للعلويين.

ظهور التشيع فى بلاد السند:

ظهرة حركة محمد بن عبد الله بن الحسن الملقب بالنفس الذكية أثناء ولاية عمر بن حفص بن عثمان بن أبى صفرة وقد بايعه بالخلافة سرا، وأرسل النفس الذكية ابنه عبد الله بن الأشتر الحسنى ليدعو له فى البصرة ثم فى بلاد السند، وقد اشترى من البصرة خيلا وسار حتى وصل بلاد السند وقابل ابن حفص على أنه تاجر خيل، ثم كشف عن شخصيته فرحب به الوالى وبايعه وأخفاه عنده، ودعا أهل بيته وخواصه لمبايعته وجهز عليما أبيض وثيابا بيضاء، وفى اليوم المحدد للمبايعة جاء الخبر بمقتل محمد النفس الذكية وأخيه إبراهيم، فتوجه ابن حفص لعبد الله بن الأشتر وقدم له التعزية وهدأ نفسه اليائسة، وبعث إلى ملك من ملوك

السند وأخذ عليه العـهد بالا يتعرض لأذى، وقد أكرمه ذلك الملك واسـتقبل نحو أربعمـائة من شيـعته، وعلم بذلك كلـه الخليفة المنصـور فغضـب وكتب إلى ابن حفص رسالة شديدة اللهجة، ثم زعم أحد أقرباء الوالى أنه مسئول عما حدث من ظهور للشيـعة فى بلاد السند، وحمل إلى الخليفـة فضرب عنقه، وعـزل عمر بن حفص عن اقليم السند وولى مكانه فضرب عنقه، وعزل عمر بن حفص عن اقليم السند وولى مكانه:

هشام بن عمرو التغلبى ١٥١ - ١٥٧هـ = ٧٦٨ - ٧٧٣ م.

ولاه الخليـفة أبو جـعفـر المنصور على السنـد، وطلب منه أن يكاتب ملك السند ويطل منه تسليم عبد الله بن الأشتر وإلا حاربه.

وقد وصل هشام إلى بلاد السند، وكـره أن يؤذى ابن الأشتر، لأنه كان ممن يميلون سـرا للعلويين، وإن تظاهر بأنه يراسل ملك السند إرضاء للخليـفة، وعلم الخليفة بحقيقة مواقف واليه، فأرسل إليـه يستحثه ويستعجله، وتصادف أن حدثت اضطرا بات بالقرب مـن العاصمـة " المنصورة " فوجـه هشام أخاه " سـفنجا " للقضاء عليهـا، وبينما كان يسير مع جيـشه حول مملكة ذلك الملك السندى، رأى غبره فاتجه نحوها، ثم عرف أنها جماعـة من عشرة عليها عبد الله بن الأشتر وأنها مضت تتزه على شاطئ نهـر السند، فقصد " سفنج " ناحيتـهم، وتقاتل الفريقان حتى قضى على ابن الأشتر وكل من كان معه.

ورغم أن الوالى لم يكن يريد ذلك إلا انه كتـب للخليفة بمقتل عـبد الله بن الأشتر، فأرسل المنصور يشكره ويطلب منه محاربة ملك السند، وكان الخليفة يريد - فيما يبدو - قطع دابر الأربعمائة: أصحاب بن الاشتر، والقضاء على محاولات شيعته من الزيدية فى إحلال ابنه محله زعيما عليهم.

وفى سنة ١٥١هـ = ٧٦٨م قام الوالى هشام بحملة على الملك السندى وقتله واستولى على ملكه، وهرب أصحابه عبـد الله بن الاشتر وتفرقوا فى أنحاء البلاد

وأسـر ابنه محـمـد وبعث به إلى الخليـفـة المنصور الـذى أرسله بدوره إلى المدينة المنصورة وأمر عامله بها أن يسلمه لأهله.

بعد ذلك قام هشام بن عمرو بحملات على بعض المناطق ومواطن الفتن فى النواحى الشـرقية والغـربية، وقـضى على العرب المتـغلبة من الأمويين فـى مدينة الديبل وما حـولها ثم رجع إلى العاصمـة المنصورة ثم تقدم نحو جـبال " كابل " وسير حملة بحرية استولت على شواطئ كجرات على ثغر بردا.

وهكذا استقرت الأمـور من الناحية الداخلية، فدفع ذلك الاستـقرار هشاما إلى التفكير فـى مد النفوذ الإسلامى إلى بلاد الهند، وإعادة فـتح المناطق التى كان الوالى الجنيد بن عبد الرحمن المرى قد فتـحها، ولذلك الهدف أعد السفن اللازمة وحملها فى نهـر السند وسار إلى منطقة قندهار " كندهاوه " وفتـحها وهدم بيت الصنم بها وبنى مكانه مسدا، وكذلك وجه هشام جيشا بقيادة " عمرو ابن جبل " ومعه بوارج إلى " تارند " بهدف الاستكشاف وجمع المعلومات تمهيدا لفتح بعض مناطق الهند المجاورة لـلسند، وبعث بقوات أخرى إلى بلاد كـشميـر وفتح بعض مناطقها وأصاب منها سبايا.

وكـان الهدف من ذلك كله هو تأديب هـذه المناطق والانتقـام من حكامهـا اللذين كانوا يساعدون المتمردين على الحكم العربى ويشجعونهم على الفتن والقيام بثروات فى بعض الجهات، ولذلك نرى الوالى يعود مره أخرى إلى المنصورة ويقيم فيها، ويحرص على القيام ببعض الإصلاحات وتحسين الخدمات الحكومية.

وكان عهد هشـام فى جملته عصر ازدهار، ففى عـهده أصبحت بلاد السند إسلامية بحته يعمها الهناء والإخاء فى ظل الخلافة العباسية، وقد اطمأن الناس إليه وزارة الكبار والشعراء، ونظرا لبراعته فى التنظيم الإدارى، فوض الخليفة الإشراف على منطقة كرمـان فى إيران سنة ١٥٦هـ = ٧٧٢م، فأصبح مشـرفا على حكومة العرب فى الملتان وعـلى حكام السند وفى المناطق المختلفة، بالإضافـة إلى كرمان، وشهدت البـلاد استقرارا وطمأنينة وأمنا ولم يسـمع عن اضطرابات تذكر طول مدة

ولايته، كما بدأت الاتصالات والعلاقات العليمة بين بلاد السند ومركز الخلافية فى زمنه.

وقد توفى ذلك الوالى ودفن ببغداد سنة ١٥٧هـ = ٧٧٣م بعد ست سنوات من الحكم الناجح فى بلاد السند.

وخلفه فى عمله ببلاد السند.

معبد بن الخليل التميمى ١٥٧ - ١٥٩هـ = ٧٧٣ - ٧٧٥م

وكان حسن المعاملة محمود السيرة بين الراعية، حازما فى حكمه وشهدت البلاد أمنا واستقرارا فى فترة ولايته، التى لم تطل أكثر من سنتين حيث مات بالمنصورة فى أوائل خلافة المهدى سنة ١٥٩هـ = ٧٧٥م.

ويذكر للخليفة المنصور قضاءه على الفتن والمنازعات القبلية على امتداد رقعة الدولة الإسلامية بما فى ذلك بلاد السند، كما شهدت البلاد بدأ النهضة العلمية والفنية التى ازدهرت فيما بعد وأسهم فيها علماء من بلاد السند.

أما الخليفة المهدى (١٥٨ - ١٦٩هـ = ٧٧٤ - ٧٨٥ م)

فقد حرص على تبليغ كلمة الله وأرسل رسائل ووفودا إلى البلدان المختلفة، من بينها رسائل إلى ملوك وأمراء الهند، تدعوهم إلى الدخول فى الإسلام، فاستجاب لدعوته خمسة عشر ملكا وأميرا.

وفى سنة ١٥٩هـ = ٧٧٥م توجهت حملة بحرية إلى بلاد الهند يقودها عبد الملك ابن شهاب المسمعى، وكانت تتكون من جند متطوعه ومرابطين من الأقاليم المختلفة، بلغ عددهم تسعة ألاف ومائتين.

وبعد أن انقسم هؤلاء إلى فرق، توجهوا إلى بلاد فارس ومنها استقلوا سفنا حربيا إلى بلاد الهند، فوصلوا إلى ميناء باربد " بهاربهوت " حيث دار قتال عنيف بين المسلمين وبين الكفار انتصر فيها المسلمون وفتحوا المدينة، وأشعلوا النار

فى معبد بوذا ضخم ظانين أنه قلعة عسكرية، لأنه كان على شكل برج واستشهد من المسلمين بضعة وعشرون.

ويبدو أنه قد حدث اضطرا بات سياسة فى منطقة " كجرات " ترتبت عليها مضايقات للتجار المسلمين وأسر بعضهم، ولحقت أضرار بالمسلمين، ولذلك قامت هذه الحملة لإنقاذهم وقد نجحت فى مهمتها وانتشر الأمن والاستقرار فى المنطقة ن ولكن إلى حين، فقد اشتدت درجة الحارة وبهت رياح سامة وانتشرت الأوبئة فى المنطقة وساعدت على مقتل كثير من المسلمين، الشىء الذى دفعهم إلى ركوب السفن والتوجه إلى بلاد فارس، وما أن وصلوا خليج العرب حتى اشتدت الرياح مرة أخرى وارتطمت السفن واصطدمت ببعضها فتكسرت وغرق معظم من بها ولم ينج إلا القليل.

وهكذا شهد عصر المهدى فتنا فى بلاد السند، وعادت الخلافات بين العرب تطل برأسها من جديد ويشتد النزاع بين القبائل وكان الولاة من الضعف بحيث لم يستطيعوا عمل شىء حتى أنه توالى على هذه البلاد أحد عشر واليا على مدار احدى عشرة سنة حتى نهاية فترة خلافة المهدى أى بمعدل وال كل سنة، بل وصل عدد الولاة فى سنة واحدة ثلاثة فى بعض الأحيان، وهؤلاء الولاة هم:

روح بن حاتم ١٥٩هـ = ٧٧٥ م.

وقد قام الزط بفتن فى الأجزاء القريبة من بلاد السند خلال فترة ولايته، ولم يتمكن من القضاء عليهم، فنقله الخليفة إلى أفريقيا وحل محله:

بسطام بن عمرو التغلبى ١٥٩ - ١٦١هـ = ٧٧٥ - ٧٧٧ م.

وكان نائبا عن أخيه هشام بن عمرو التغلبى الذى كان واليا على السند فى خلافه أبى جعفر المنصور، وكان قد اكتسب خبرة ومعرفة بأحوال البلاد، تمكن بفضلها من القضاء على الفتن والإضطرابات الداخلية وفل من شوكة قبائل الزط، ورغم نجاحه فى إدارة البلاد، فقد عزل لسبب غير معلوم بعد سنتين من الحكم.

ولاية روح بن حاتم للمرة الثانية سنة ١٦١هـ = ٧٧ م.

عـاد ذلك الوالى إلى السند من بلاد أفـريقـيـة، ولكنه لم ينجح فى تدبيـر الأمور فقد تجددت فتن الزط وطالبوا بتطبـيق معاهداتهم مع المسلمين، ولم يستطع الوالى مواجهتها بسبب ضعف شخصيته، فقرر الخليفة إرجاعه إلى حيث كان يعنى إلى أفريقية مرة أخرى وولى على السند:

نصر بن محمد الأشعث الخزاعى ١٦١هـ = ٧٧٧ م.

ولم يكن حظه بأحسن من حظ سابقه حيث استـمر الزط فى شدة مقاومتهم وتمادوا فى عدائهم للحكم العربى، تدعهم قوى خارجية وتمدهم فيما يبدو بالسلاح والمال ليستمـر عداؤهم للإدارة العربية، ولفشل الوالى وعجـز عن القضاء عليهم، عزله الخليفة فى نفس السنة وعين مكانه.

محمد بن سليمان بن على الهاشمى ١٦١ - ١٦٢هـ = ٧٧٧ - ٧٧٨ م.

وقد فرض عليه الخليفة أمر بلاد السند، وعهد إليه بالعمل على حل أزمتها، فاخـتار ذلك الرجل قائدا مـشهورا نائبـا عنه على تلك البلاد وهو عـبد الملك بن شهاب المسمعى، وقد وصل جيـشه إلى هذه المناطق وأصبح على بعد ستة فراسخ فقط من المنصورة العاصمـة وفجأة جاءه أمر بالعودة إلى البصرة لحـاجة الخليفة إليه فى مهمة عاجلة على أن يعود نصر الخزاعى إلى المنصورة.

وقد وصل نصر الخزاعى، وبدأ يضع خططه لتنظيم أمور البلاد والقضاء على الفتن بها، وأعد جيشا يقوم بهذه المهـمة، ولكن جاء الأمر بعزله هو الأخر بأسرع مما كان يتصور ولأسباب غير معلومة.

وهكذا لم يكن يتح للوالى أن يبقى فى منصبه إلا لأيام معدودة لا تمكنه من فهم المشكلات فضلا عن حلها وإدارة البلاد بصورة حاسمة.

ولاية الزبير بن العباس الهاشمى ١٦٢هـ = ٧٧٨ م.

وقد أهمل هذا الوالى بلاد السند ولم يهتم بها أو يحاول حل مشاكلها، وترك الفتن يشتد أوارها، ولهذا فقد عزله الخليفة بعد أشهر من ولايته بل يقال أنه لم يبلغ البلد.

مصبح بن عمرو التغلبى ١٦٢هـ = ٧٧٨ م.

هو الأخ الأصغر للوالى هشام بن عمرو، وقد رافقه أثناء فترة ولايته واكتسب خبرة بأحوال هذه البلاد، ولهذا فقد تمكن بفضل مهارته العسكرية والسياسية من القضاء على الفتن الاضطرابات فى مناطق الزط، ولكن العصبية القبلية للأسف برزت من جديد ونشبت الحرب بين الزارية واليمانية، وبلغت أحوال العرب درجة من السوء لم يتمكن الوالى معها من فعل شيء وتعذر عليه الإصلاح والقيام لوجباته، ولذ قرر ترك البلاد.

ولاية نصر بن محمد الاشعث الخزاعى للمرة الثانية ١٦٢ - ١٦٤هـ = ٧٧٨ - ٧٨٠ م.

وقد فشل هذه المرة وأخفق فى حل المشاكل كما حدث من قبل المرتين السابقتين، وبقى ببلاد السند حتى توفى بها بعد سنتين ثم عهد لسطيح بن عمرو التغلبى بإدارة شئون البلاد بصورة مؤقتة إلى أن اختير لها بعد شهور والى جديد هو:

الليث بن طريف ١٦٤ - ١٧٠هـ = ٧٨٠ - ٧٨٦ م.

وقد اختاره الخليفة بنفسه لما يتمتع به من حنكة سياسية وقدرة عسكرية عله ينجح فى إعادة الأمور إلى نصابها الطبيعى فى بلاد السند، وقد وصل الوالى الجديد إلى العاصمة، وبدأ بداية موفقه حيث عمل على دراسة الأوضاع السياسية والاجتماعية دراسة دقيقة ووضع خطط الإصلاح فى ضوء ما توصلت إليه تلك الدراسة، فجمع زعماء العرب وعقد صلحا بينهم بشكل أرضى كل الأطراف

وحقق لها أهدافها، ونجح فى تكتيل هؤلاء معه ضد الزط، وكان هؤلاء قد قاموا باضطرابات عنيفة استعدوا لها، وجمعوا السلاح على مدار سنوات، وكانوا من الخطورة بصورة جعلت الوالى لا يستطع حل مشكلتهم سواء بالأساليب العسكرية أو السياسية، وكتب للخليفة المهدى بحقيقة الوضع فوجه رسلا إلى الملوك فى المناطق المختلفة يدعوهم إلى الطاعة وأمد والى السند بجيش ضخم وجند كثير، وفى الحال قضى على كل المفسدين والمشاغبين بالقتل فى كل أنحاء البلاد، وخاصة فى مناطق قبائل الزط، وبذلك عاد الأمن وعرفت البلاد الاستقرار والطمأنينة من جديد، وتقدمت الزراعة والصناعة وازدهرت العلوم، وظل ذلك الوالى يخدم البلاد إلى أن عزله الخليفة الجديد مع غيره من الولاة سنة ١٧٠هـ = ٧٨٦ م.

وفى فترة خلافة هارون الرشيد، تولى أمر بلاد السند:

سالم اليونسى (البرنسى) ١٧١ - ١٧٤هـ = ٧٨٧ - ٧٩٢ م.

وقد استفاد من جهود سلفه وعرفت البلاد الهدوء والطمأنينة فى زمنه وكان حسن السيرة، رضى عنه كل فئات الشعب وساسهم بلا مشاكل على مدار سنوات أربع، بعدها نقلها الخليفة لمنصب أعلى سنة ١٧٤هـ - ٧٩٠م وولى مكانه:

إسحاق بن سليمان بن على بن عبد الله العباسى الهاشمى١٧٤هـ=٧٩٠م.

وكان رجلا فاضلا محبا للعلماء، وقد أحاط نفسه بالأطباء ورجال الرياضيات والفلك، وحرص على الترجمة من اللغات الأخرى إلى العربية، ولكن القدر لم يمهله فتوفى بعد أشهر قليلة من ولايته على السند، وحل محله.

طيفور بن عبد الله الحميرى ١٧٤ - ١٧٥هـ = ٧٩٠ - ٧٩٢ م.

وقد أيدته اليمانية لأنه منهم، ووقف معهم وحارب النزارية وتجددت الفتن الطائفى وأشدت الخصومات بين القبائل العربية، وعلم الخليفة بسياسته وما جرته من مشكلات فأمر بعزله بعد ولاية استمرت عاما وحل محله:

جابر بن الأشعث الطائى ١٧٥ - ١٧٦هـ = ٧٩٠ - ٧٩١ م.

وقد عزل بعد عامل واحد لفشله فى إدارة البلاد أيضا، وجاء بعده واليا على السند.

كثير بن مسلم بن قتيبه ١٧٦ - ١٧٩ هـ.

كان الخليفة هارون الرشيد قد فوض حاكم العـراق سعيد بن مسلم ابن قتيبة فى أمر بلاد السند، فولى أخاه كثير عليها، وبعد أن تسلم أعنة الحكم فى المنصورة العاصـمة، اشتغل بمصـالحة الخاصـة وأساء السيرة وضـاق الناس به، ووصل أمره للخليفة هارون الرشيد، فأمر بعزله.

محمد بن عدى التغلبى ١٧٩ - ١٨١هـ = ٧٩٥ - ٧٩٧ م.

فوض الخليفة هارون الرشـيد عيسى بن جعفر بن منصـور العباسى فى أمور بلاد السند، فعين الأخير محمد بن عدى التغلبى نائبا عنه، فقدمها ونيران العصبية مشتعلة، ولما لم يستطيع إطفاءها حـاول ترك المنصورة والتوجه إلى الملتان فى اقليم البنجاب، وبيد أن أهلها خافوا أن تنتقل إليهم مساوئ العصبية وويلاتها فمنعوه من دخول مـدينتهم، وقـاتلوه على أبوابهـا، واستولوا علـى كل مما معه من أسـلحة وأمتعة، واضطروه للعودة من حـيث أتى، بحدث نزاع بين اليمانيين والنزاريين فى المنصورة، وعلك الخليفة بذلك كله فعزله عن السند سنة ١٨١ هـ.

ولاية عبد الرحمن ١٨١ - ١٨٢هـ = ٧٩٧ - ٧٩٨ م.

اختار الخليفة رجلا، لا يعرف عنه أكـثر من اسمه، ويبدو أن المشاكل كانت أكبر من طاقاته، فلم يتسطع له حلا، ولذلك نحاه هارون الرشيد بعد سنة واحدة.

أيوب بن جعفر بن سليمان الهاشمى ١٨٢ - ١٨٤هـ = ٧٩٨ - ٨٠٠ م.

وقـد وصل إلى السند، وفى ذهنه أن حل مـشكلة العـصبـية الـقبليـة التى أهلكت البلاد، وحطمت البـيوت جميعـا، فيه إنهاء لكل مشكلات البـلاد، فبذل

قصارى جهده، ولكنه لم يوفق فى عقد صلح بين الأطراف المتناحرة، وأراد الخليفة اختيار شخصية لها مقدرة وخبرة فكانت شخصية.

داود بن يزيد بن حاتم المهلبى ١٨٤ - ٢٠٥هـ = ٨٠٠ - ٨١٠م.

خشى " داود " ان يذهب بنفسه أول الأمر، بيفقد مكانه ومنزلته فى خضم المعارك القليلة بالسند، لذلك عين أخاه المغيرة نائبا عنه وأمده بجيش وبعث به إلى المنصورة، وتلك سنة ابتدعها كبار الحكام وراجعت فى فترة ضعف السلطة المركزية، لكن النزارية أغلقوا أبواب المنصورة فى وجه الوالى الجديد واشترطوا عليه إخراج اليمانية منها إن أراد دخولها مع تقسيم البلاد بين قريش وقيس وربيعة، فلم يقبل، فقد كان يمانيا، فعرضوا عليه أن يخرجوا جميعا وأن يدخلها هو ويعدل بينهم فلم يوافق أيضا ودخل المدينة واشتد على النزارية بصورة أدت إلى نشوب القتال، وانهزم المغيرة وفر إلى غرب السند حيث كتب إلى أخيه داود بما جرى.

لما علم " داود " بالوضع فى بلاد السند، جهز جيشا كبيرا، وتوجه بنفسه إليها بهدف القضاء على النزارية، ووصل إلى أبواب المنصورة واستمر يقاتل عشرين يوما، وفنى خلق كثير، ومع ذلك لم تفتح أمامه الأبواب، واستمرت الحرب شهورا، ثم تمكن الوالى من الدخول بالقوة وسجن وطارد كثيرا من النزارية وحرق متاجرهم وخرب بيوتهم وساد المدينة هدوء، وتوفر الأمن والاستقرار لسنوات نتيجة ذلك.

ومما يذكر أن الفضل بن من ماهان نجح فى دخول منطقة السندان سنة ١٩٨ هـ، وهى منطقة بعيدة تقع فى اقليم " كجرات " وسيطر عليها واستقل بأمورها مع الاعتراف بالخلافة العباسية، وقد بعث للخليفة المأمون بفيل وبعض الهدايا ودعا له فى المسجد الجامع ثم توارث الحكم أبناء الفضل حتى قضى عليها الفزنوبون أوائل القرن الخامس الهجرى.

وقد اهتم الوالى " داود " بالإصلاحات الداخلية وتنظيم أحوال البلاد، فحسبها ما لحقها من أضرار وخسائر جسيمة فى الماضى وقد نجح فى تحقيق ذلك

إلى حد كبير، فازدهرت البلاد على امتداد فترة ولايته الطويلة فى ميادين الثقافة والعلوم والتجارة وتحسنت العلاقات العربية السندية كثيرا، وتبادلت الهدايا والتحف النادرة بين الخليفة هارون الرشيد وبعض ملوك وأمراء السند والهند، وتوفى لك الوالى بالمنصورة سنة ٢٠٥هـ بعد عشرين عاما قضاها فى العمل على نهضة بلاد السند والارتقاء بها فى مختلف الميادين، وكان على رأس الدولة العباسية آنئذ الخليفة المأمون، الذى ولى على بلاد السند وفاة داود ابنه.

بشر بن داود المهلبى ٢٠٥ - ٢١٢هـ = ٨٢٠ - ٨٢٧ م.

واشترط عليه أن يدفع للخلافة سنويا عشرة ملايين درهم - أو مليون درهم وفقا للطبرى وابن الأثير - وهو ما كان يدفعه أبوه من قبل، وقد واصل سياسة أبية لعدة سنوات ولكنه ما لبث أن تغير وامتنع عن ارسال مبلغ الخراج للعاصمة، وربما اغتر بماله من قوة ونفوذ وباستقرار وازدهار البلاد فى عهده وعهد أبيه، ولذا فقد عزله الخليفة وولى مكانه.

حاجب بن صالح ٢١٢هـ = ٨٢٧ م.

وصل الوالى الجديد إلى منطقة مكران، ولقى المسئول عنها - وهو أخ لبشر بن داود - وطلب تسليم البلدة إليه، ولكن المسئول رفض بحجة أنه تابع للوالى المقيم فى المنصورة، وأن على المعين أن يتسلم العاصمة أولا ثم الأقاليم التابعة لها.

ولكن " حاجب بن صالح " خشى من مواجهة بشر، خاصة وفى الإمكان حصره بين المنصورة ومكران والقضاء عليه، فجبن وتردد، وعلم الخليفة المأمون بقصته، فولى على البلاد.

غسان بن عباد المهلبى ٢١٣ - ٢١٦هـ = ٨٢٨ - ٨٣١ م.

وقد أختاره الخليفة لما يتميز به من قوة وجرأة، ولأنه من آل المهلب، نفس قبيلة بشر، ولجأ الخليفة إلى إجراء آخر هو دعوة محمد أخو غسان وتكليفه بإعداد جيش قوى يذهب على رأسه إلى بلاد السند، ويعمل للقضاء على الفتنة هناك

وإحضار الوالى المعـزول إلى مقر الخلافة، ويبقى الكل هناك إلى اسـتقرار الأحوال تماما ثم يسلم الحكم بعد ذلك لموسى بن يحيى بن خالد البرمكى.

وتم تنفيذ ما أراده الخـليفة، ووصل غسان بالقرب من المنصـورة فخرج إليه "بشر" معتذرا وسلم ما عليه من خراج مـتأخر وترك له مقاليد الحكم، بل وسمح بوضع القيد فى يده تمهيدا للتحقيق مـعه، وقضى " غسان " مدة ينظم أمور البلاد ثم سلم الحكم لموسى بن يحيى البرمكى بناء على تعليمات الخليفة.

وفى سنة ٢١٦هـ وصل غـسان برفقـة بشر إلى دار الخلافـة، وقد عـفا عنه الخليفة وقبل شـفاعة آله، كما قبل المبررات التى قدمـها بين يدى اعتذاره، وأطلق سراح أسرته وأكرمهم وأنعم عليهم، وأقام حفل تكريم لغسان لنجاحه فى مهمته، وأنشد الشعراء شعرا فى هذه المناسبة.

موسى بن يحيى البرمكى ٢١٦ - ٢٢١هـ = ٨٣١ - ٨٣٥ م.

كان أحد أمراء السنـد قد أقام حفلا دعا إليه أمـراء وحكام المناطق المختلفة، بهدف التفاخر وإظهار العظمـة، وكان " غسان " الوالى السابق قد دعى إلى ذلك الحفل، واعتبر ذلك إهانة له ولكن ظروف عودته السريعة إلى بغداد، لم تمكنه من رد تلك الإهانة وكان ذلك من نصيب الوالى الجـديد الذى أرسل حملة إلى منطقة ذلك الأمير السندى (باله ملك الشرقى) ونشبت معركة حـامية انتصر فيها المسلمون وأسر الأمـير الذى جاء عنـد الوالى موسى ورفض دفع فدية مـقابل الحـفاظ على حياته، فنفذ فيه حكم الإعدام.

وقد انخفض الخراج فى عهـد ذلك الوالى إلى مليون درهم فقط رغم تحسن العلاقات التـجارية بين البلاد العربية والبـلاد السندية وإن كان ذلك الوالى قد نجح فى ترك بصماته على العلاقات العلمية ومات فى سنة ٢٢١ ليخلفه على بلاد السند ابنه عمران بن موسى البرمكى.

فتح سندان وقالى ببلاد الهند

فى سنة ٢١٧هـ = ٨٣٢م قام الفضل بن ماهان - وكان حاكما عربيا على منطقة سندية بحملة على مدينة سندان الهندية وفتحها وحكمها بصورة مستقلة وإن ذكر اسم الخليفة العباسى فى خطبة الجمعة بالمسجد الجامع، وقدم إليه بعض الهدايا القيمة، فرضى المأمون عنه، وسر لأن قائدا عربيا أمكنه أقامة إمارة صغيرة مسلمة فى بلاد الهند، ولكن الفضل بن ماهان توفى بعاصمة امارته الجديدة، ومات الخليفة المأمون أيضا، وانتقلت الخلافة إلى:

المعتصم بالله (٢١٨ - ٢٢٧ هـ) = ٨٣٣ - ٨٤١ م.

كان محمد بن الفضل قد خلف أباه، وأراد توسيع دولته الصغيرة عن طريق فتح بعض المدن الهندية المجاورة، فقام أولا بحملة على مناطق قبائل الميد القريبة منه، وقتل الكثيرين منهم، وسيطر على مواطنهم ثم اتجه نحو مدينة " قالى " وفتحها، ورغب فى مواصلة الفتوحات لولا خبر وصله عن انقلاب قام به أخوه ماهان بن الفضل، استولى بع على الحكم فى " سندان " فقرر العودة إلى العاصمة ولم يستطع دخولها، لأن أخاه كان قد حصنها جيدا، واضطر محمد بن الفضل إلى مكاتبة الخليفة العباسى وأهدى إليه وطلب عونه.

ولكن ماهان بن الفضل علم بذلك، فجهز جيشا من أتباعه ومن السند المقيمين فى العاصمة، وخرج للقاء أخيه قبل أن يأتيه المدد العباسى وهزمه وأسره بل زاد وقتله بصورة جعلت الشاعر أبا العتاهية يتألم، ويسجل ذلك فى شعره:

ما على ذا كنا افترقنا بسندا ... ن وما كنا هكذا عهدنا الإخاء

تضرب الناس المهندة البيـ ... ـض على غدرهم وتنسى الوفاء

وانتهز حكام الهند هذا الخلاف المر وصعوبة الاتصال بالخليفة العباسى وبوالى السند، وبعد المسافة، وقاموا متحدين بحملة على سندان وقالى وموطن قبائل الميد واستولوا عليها جميعا، وأسروا ماهان نفسه وقتلوه وصلبوه وسقوه من

نفس الكأس التى أسقى منهـا أخاه، وأن تركوا مسجد " سـنـدان " يقيم المسلمون فيه الصلوات ويدعون للخليفة العباسى.

وهكذا كـانت الأنانيـة والفـرقـة والنزاع، وراء ضـيـاع دولة لم يكتب لهـا الاسـتـمـرار إلا لفتـرة بلغت نحـو عشـر سنوات، ولو بقـيت، ولم تعصف بهـا العواصف، لتغيرت وجهة التاريخ فى هذه البقاع.

عمران بن موسى البرمكى ٢٢١ - ٢٢٦هـ = ٨٣٥ - ٨٤٠م.

بقى موسى البرمكى واليا لمدة ثلاث سنوات أثناء خـلافة المعتصم بالله، ولما مات سنة ٢٢١هـ ولى الخـليفة ابنه عـمران على بلاد السند على أن يدفع خـراجا مقداره مليون درهم سنويا.

وبعد أيام قـليلة من ولايته قـامت قبائل زلـط والميد Meds & Jots السندية بالفتن والإضطرابات فى كل البلاد خاصة فى المناطق الغـربية لنهر السند، منتهزين فتنا قام بها نظراؤهم فى العراق، وقد تمكن المعـتصم من القضاء على حركة هؤلاء ونفاهم إلى أسيا الصغرى وغيرها.

أما عمران البرمكى فـقد توجه بجيشه إلى منطقة القـيقان وقاتل الزط بشدة ونجح فى توفيـر الأمن والاستقرار بالمنطقـة، ونظرا لخطورتهم واشتهارهم بـالفساد والنهب، قرر الوالى إقامـة مدينة تكون بمثابة مراكز عسكرية، يسـتطيع الجيش منها مراقبـة هؤلاء والقضاء على خطورتهم، فـبنى مدينة فى منطقة " بوقـان" أسماها "البيضاء" أسكنها العرب بهدف نشر الاستقرار والأمان.

عاد الوالى إلى العاصمة المنصورة فعلم أن أهل " قناديل " (كنداوى) قاموا باضطرابات فيهـا، وهى مدينة حصينة تقع على جبل ويحكمهـا رجل متغلب من العرب يدعى " محـمد بن الخليل " رفض الولاء لحاكم السند، فـحاربه البرمكى وفتح المدينة وألقى القبض على قادتها وعين عليها حاكما عسكريا.

لم يكد الوالى ينـتهى من فـتنة هؤلاء حـتى علم بقـيـام جـماعـات الميـد

باضطرابات وفوضى مماثلة فى منطقتهم فتوجه إلى مواطن إقامتهم على ضفة نهر السند، وقتل منهم ثلاثة آلاف فى معركة واحدة ثم قطع دابرهم فى منطقتهم المحصنة، وعاد إلى المنصورة العاصمة بعد أن نجح فى فرض الأمن والاستقرار، ولكن لا ليعيش فى اطمئنان بل ليصادف مشكلة أشد خطورة هى مشكلة الصراع بين القبائل العربية نفسها وفى نفس العاصمة.

لقد فقد زعماء النزارية فى عهد داوود المهلبى الكثير من ممتلكاتهم وأموالهم، ثم جاء عهد موسى البرمكى فعمل النزارية واليمانية على تقوية أوضاع قبائلهم سرا، لأن كليهما كان يتوجس شرا من الآخر، وينتظر لحظ يتفجر فيها الصراع بينهما.

وقد تجددت مظاهر النزاع القبلى ببلاد السند فى عهد "عمران البرمكى" رغم أنه كان محايدا، ولكنه ما لبث أن مال إلى اليمانية معتقدا أنهم ظلموا هذه المرة وانهم قلة صبرت، وقد أراد اتباع نفس سياسة داود المهلبى مع النزارية دون أن يضع فى اعتباره أن "داود" جاء بجيش قوى وقواد من بغداد أما هو فمن الزارية ومن سكان المنصورة ومتهم بأنه يعمل لصالحهم، وبسبب ميوله مع اليمانية أخذ النزارية يبذلون قصارى جهودهم لإسقاطه، واتحدوا تحت قيادة زعيم اسمه "عمر ابن عبد العزيز الهبارى"، سليل أسرة قدمت بلاد السند منذ فترة الحكم بن عوانه الكلبى وسكنت منطقة " باتيه " واكتسب الرجل خبرة بأحوال هذه البلاد، وقد مكنه ذلك كله من القيام بحملة على رأس النزارية مؤقتا على أزمة الحكم فى العاصمة.

وهكذا بدأت الحرب الأهلية العربية من جديد. وانفرط عقد القبائل العربية. وكالعادة انتهز الزط والميد الفرصة وقاموا باضطرابات وفتن موجهه ضد العرب، وكذلك استقل الحكام بكثير من القلاع والمناطق فى السند.

ولاية عنبسة بن إسحاق الصبى ٢٢٦ - ٢٣٥هـ = ٨٤٠ - ٨٤٩ م.

بأمر من والى خراسان وموافقة الخليفة المعتصم تولى عنبسة بن إسحاق الضبى على بلاد خرسان ٢٢٦ هـ، ولما آل أمر الخلافة العباسية إلى الواثق بالله ٢٢٧ هـ، وافق على بقاء هذا الوالى فى منصبه.

وقد اهتم عنبسة بالقضاء على الخلافات بين اليمانية والنزارية ونجح فى ذلك إلى حد كبير، ولكنه لم يعاقب عمر بن عبد العزيز الهبارى على قتله للوالى السابق، مما يشير إلى القوة والنفوذ الذى وصل إليه النزاريون مما جعل الوالى يغض الطرف عما فعله زعيمهم هذا وحتى لا يسب ثائرتهم، كذلك اهتم بأن يعيد إلى الطاعة الولاة من السند والعرب الذين استقلوا بقلاعهم وأقاليمهم، ونجح فى مهمته، وهكذا عاد الأمن والاستقرار إلى البلاد وقوى الحكم بفضل وحدة الجماعات العربية.

ومن الإصلاحات التى تذكر " الصبى " بناؤه سجنا مركزيا كبيرا، بعيدا عن المواطن التى ألفت الفوضى والإضطرابات، ليتم فيه التحفظ على المفسدين من المناطق البعيدة، لأن المواطنين كانوا يقومون على السجون فى المدن الصغيرة ويطلقون سراح المعتقلين بها وقد وقع اختيار " الصبى " على مدينة الديبل وعلى المعبد الكبير الحصين الذى حطم محمد بن القاسم علمه وأبراحه ٩٢هـ ليكون مقرا لهذا السجن، فقد كان هذا معبدا بوذيا وأصبح خاليا مهملا بعد تحول كثير من البوذيين إلى الإسلام، فأمر الوالى بقطع رؤوس الأبراج العالية لهذا الحصن وبنى اسقفا متينة عليه، واستفاد من الأحجار الفائضة فى ترميم بعض الأماكن المهمة فى الديبل، وكان ذلك ٢٣٢ هـ، وهكذا تحول المعبد العالى إلى سجن مركزى امتلأت قلوب المفسدين رعبا منه،وأمنت البلاد واستقرت.

ومما يذكر أنه فى خلافة المأمون العباسى قامت أول دولة عربية فى الهند مستقلة عن الخلافة العباسية، لا يربطهما بها إلا الدعاء والولاء، وكان أسمها الدولة الماهانية بزعامة الفضل بن ماهان مولى بنى سامه.

لقد تولى **المتوكل على الله** خلافة العباسيين ٢٣٢ - ٢٤٧هـ = ٨٤٦ - ٨٦١ م.

وعمل على عزل كل ولاة الأقاليم، وعمل والى السند برغبة الخليفة فترك البلاد وتوجه إلى بغداد، وعين المتوكل على بلاد السند.

هارون بن أبى خالد المروزى ٢٣٥ - ٢٤٠هـ = ٨٤٩ - ٨٥٤ م.

وصل الوالى الجديد إلى تلك البلاد ولم يسوسها بحكمة كما فعل سلفة وقويت شوكة وقويت شوكة النزارية فى عهده تحت قيادة زعيمهم عمر بن عبد العزيز الهبارى، وتجددت النزاعات بين هؤلاء المضرية وبين اليمانية ودامت خمسة أعوام إلى أن قتل الوالى ٢٤٠هـ - ٨٥٤ م.

وفى نفس ذلك العام استولى عمر بن عبد العزيز الهبارى على الحكم فى السند وكتب للخليفة يطلب منه التفصيل بالموافقة على تعيينه، ويتعهد بتنظيم الأمور الداخلية والعناية بالشئون الخارجية، فإن له معرفة واسعة بكل هذه البلاد وخبرة بمشاكلها بحكم نشأته وترعرعه فيها، وأعرب عن إخلاصه وولائه للخلافة، وقد وافق الخليفة على تلك الرغبة.

ولما أصبح عمر بن عبد العزيز واليا أخذ فى إنتاج سياسة مستقلة، وساعدته الظروف السياسية التى واجهت مركز الخلافة على تبنى ذلك المخطط الاستقلالى، ولم يكن يربط السند بالخلافة العباسية إلا مجرد الاعتراف من الناحية الرسمية المذهبية واستمر الحال على ذلك مدة تصل إلى قرن تتابع على الحكم خلاله آل الهبارى.

وفى الوقت الذى استقل فيه " الهبارى " بالمنصورة قامت دولة فى الملتان بإقليم البنجاب باسم " الدولة العربية " كما سنرى.

الخوراج فى السند

أما عن الخوارج فى بلاد السند فيقال أن العلافيين الذين هاجروا إلى بلاد السند زمن الحجاج ينتمون إلى جماعة الخوارج وإنهم عاونوا منصور ابن جمهور الكلبى الخارجى على الاستقلال بحكم بلاد السند لمدة ست سنوات وإقامة حكومة خارجية مؤقتة بها، وكان كثيرون من زعماء الخوارج يلجأون إلى بلاد السند فرارا من اضطهاد آخر خلفاء بنى أمية مروان بن محمد، وعندما قامت الدولة العباسية قلت من شوكة الخوارج فقد كان حكامها خبراء بمواطنهم وجوانب قوتهم وأساليبهم، ولهذا أمكنهم القضاء عليهم، ومع ذلك فقد تمكن بعض الخوارج من عمان من الوصول إلى بلاد السند لتكوين قوة والدعوة لمذهبهم والعمل ضد العباسيين والتعاون مع خصومهم فى هذه البلاد النائية البعيدة عن نفوذهم.

وفى سنة ١٤٢هـ = ٧٥٩م قدم حسان بن مجاهد الهمدانى الخارجى من الرقة إلى بلاد السند بحرا، وجاب أرجاء البلاد عله يجد مؤيدين وقوى عسكرية تساعده على إقامة دولة ينطلق منها لمحاربة الخلافة العباسية، لكن الوالى العباسى عمر بن حفص اضطره للعودة إلى الموصل.

وهكذا ترى أن هذه البلاد لم تر نشأة أو إقامة دولة باسم الخوارج تدين بمذهبهم وتعمل على تحقيق مبادئهم، وكل ما هناك محاولات قام بها بعض الخارجين عى بنى أمية ثم على بنى العباس، استغلالا لبعد هذه البلاد وكونها نائية عن مركز الخلافة ورغبة منهم فى تكوين الإتباع ونشر المذهب وتكوين القوات والتعاون مع خصوم الحكومة الشرعية فى نشر الفوضى وإشاعة الاضطرابات وعمل كل ما من شأنه إضعاف الخلافة المركزية، ومع ذلك فلم يتمكن هؤلاء من إقامة دولة تحكم باسمهم.

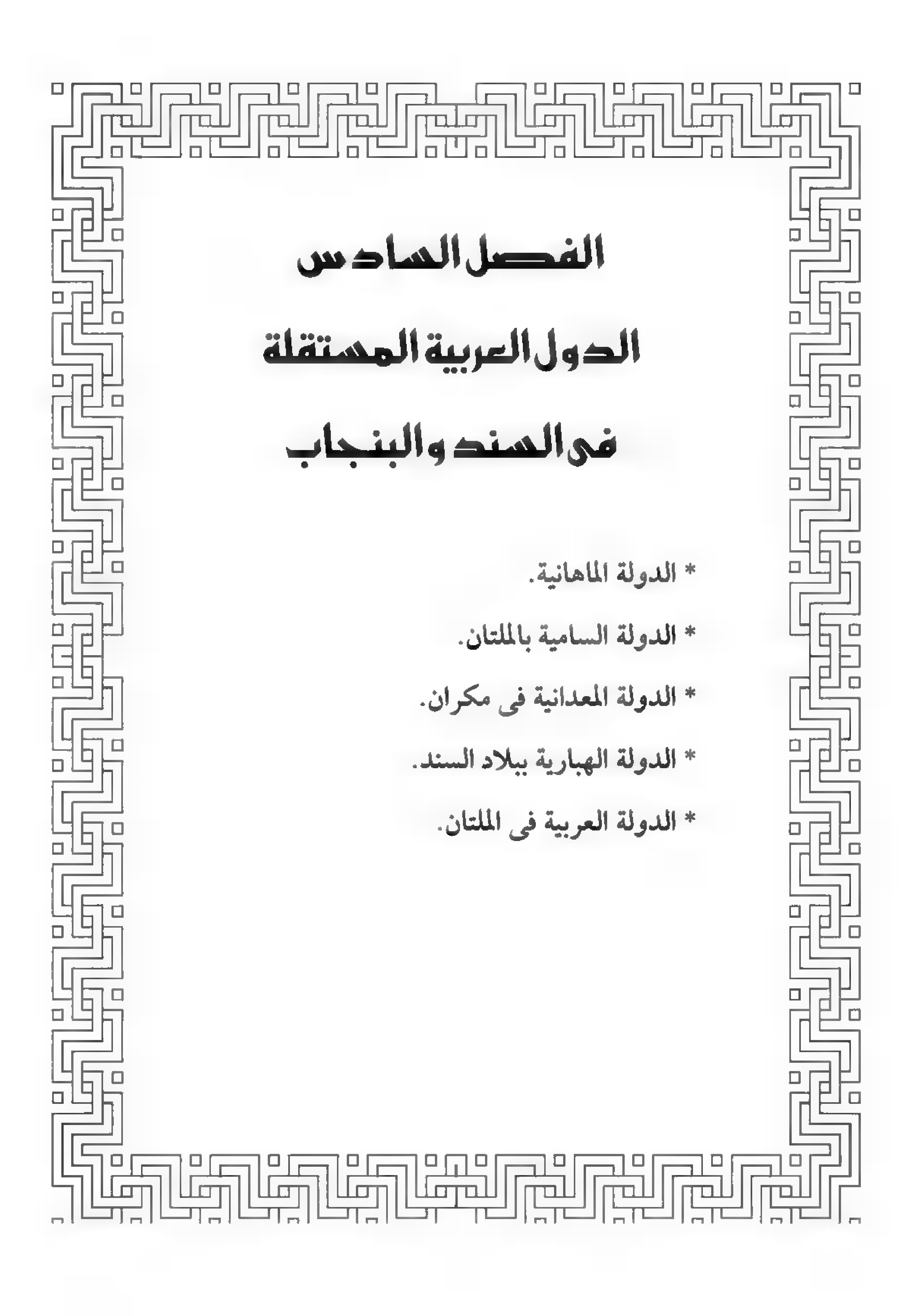
ولكن ما تعرضت له الخلافة العباسية من ضعف فى هذه المنطقة بعد ذلك وانشغالها بالمشاكل الداخلية ساعد على قيام دولتين شبة مستقلتين بإقليمى السند

والبنجاب ابتداء من ٢٤هـ = ٨٥٤م هما الدولة الهبارية والدولة العربية بالملتان كما ذكرنا.

وقد استقرت أمور هاتين الدولتين، بسبب تحسن أحوالها الاقتصادية وما كان لهما من نشاط تجارى، وازدهرت فيهـما العلوم والحضارة، وأوى إليهما من بطش عاصمة الخلافة.

فلنخص كلا منهما بكلمة.

* * *



الفصل السادس
الدول العربية المستقلة في السند والبنجاب

* الدولة الماهانية.
* الدولة السامية بالملتان.
* الدولة المعدانية فى مكران.
* الدولة الهبارية ببلاد السند.
* الدولة العربية فى الملتان.

الإمارات الإسلامية العربية المستقلة بالهند

الإمارات الإسلامية العربية.

المستقلة بالهند:

انقطعت تماما بعد خلافة المتوكل صلة العرب ببلاد السند ٢٤٩هـ / ٨٦٣م وأنشئت الدويلات المستقلة التى كان لها استقلالها الذاتى وكانت هذه الدويلات فى الوقت نفسه تعتبر الخلفاء العباسيين أصحاب السيادة الروحية.

من الواضح أن أعمال السند كانوا مشغولين فى معظم أوقاتهم فى إخماد الثورات ضد الخليفة العباسى وكان هناك خلاف بين اليمنية والمضربة وأن كل منهما كان يريد السيطرة على الحكم، كانت هناك التنظيمات السرية للخوارج والروافض والإسماعيلية كانوا ينتشرون دعوتهم سرا ومن الناحية أخرى كانت هناك، بعض القبائل الهندية مثل الزط والميد كانوا يرفعون علم الثورة ضد العمال العباسين.

والمقصود من هذا أن الجو فى السند كان مشحونا بالخطر وأن العمال العباسيين كانوا يقضون معظم أوقاتهم فى إخماد هذه الثورات والخلافات ولذلك فإن العمال العباسيين لم يتجهوا خارج السند.

الدويلة الماهانية سنة ١٩٨ هـ/ ٨١٣م:

فى مثل هذه الظروف أقام مولى بنى سامة (الفضل بن ماهان) حكومته فى عصر المأمون فى السندان بعيدا عن السند بالسندان، ونلاحظ أن السندان لم يكن لها أى علاقة مع الخلفاء العباسيين بل أنها كانت من أراضى كجرات ملك بلهرا ونلاحظ أن المسلمين كانوا يحاولون السيطرة على هذه المنطقة من عهد عمر رضى الله عنه وأن الخليفة العباسى أبى جعفر كان أول من أرسل جيشا إلى هذه المنطقة ولكن لم يتحقق هدف العباسيين إلا فى عهد المأمون عندما المنطقة بن ماهان أن يفتح هذه المناطق.

أن الفضل بن ماهان كـان سياسيا ناجحـا ولذلك لم يقطع صلته مع الخلفاء العباسيين رغم أنه كان حرا فى حكمـه تماما،ـ لأن الفضل بن ماهان قد حقق بهذا هدفين أولا إرضاء الخليفة العبـاسى وضم هذه المنطقة إلى خلافة المسلمين ثانيا أنه كان مستقلا فى حكمه تماما رغم ارتباطه الاسمى بخليفة العصر.

الدليل على قيام الدولة الماهانية:

ومـا قاله البـلاذى فى هذا المجال "وحـدثنى منصور بن حـاتم قال: كـان الفضل بن مـاهان مولى بنى سامـة فتح سندان غلب عليـها وبعث للمأمـون بقيل وكاتبه ودعا له فى مسـجد جامع اتخذه بها، فلما مات قام (مـحمد بن الفضل بن ماهان) مـقامه فسار فـى سبعين بارجـة إلى الهند فقتل منهم وافتـتح قالى ورجع وكاتب أمـير المؤمنين المعـتصم بالله وأهدى إليه سـاجا لم ير مثـله عظما وطولا، وكانت الهند فى أمر أخيـه محمد فمالوا إليه، فقـتلوه وصلبوه، ثم أن الهند غلبوا على سندان فتركوا مسجدها للمسلمين يجتمعون فيه ويدعون للخليفة.

أن هذا النص يشير بصـراحة إلى أنه كانت هناك الدويلة التى أقامـها الفضل ابن ماهان بعـد نصره على سندان ولكن البـلاذرى لم يشر كيف فـتح الفضل ابن ماهان السندان هل كانت هناك أى مقاومة من جانب سكانها الأصليين؟ إن القرائن تشير إلى أنه لم تكن هناك أى مقـاومة من جانب سكان السندان بل أن الفضل ابن ماهان قد فتح البلاد صلحا للأسباب الآتية:

١ - لو كانت وقعت أيها المقاومة لذكرها المؤرخ البلاذرى.

٢ - من الواضح أن العمـال العباسيـين قد حاولوا بقـدر أمكانهم أن يسود السلام والأمن فى المنطقة، ومن الناحية أخرى فإن العمال العباسيين فى الهند كانوا غير متعصبين ضد الديانات الأخرى.

ولا نجـد فى كتب التـاريخ أى تصـرف منهم يشيـر إلى تعـصبـهم، ولكن الفاتحين العرب كانوا غير متعصبين وراعوا تعاليم الإسلام تماما خصوصا أن العامل

العباسى (هشام بن عمرو التغلبى) ونائبه قد أقاما أعمالا كثيرة لصالح البلاد ولذلك فإن الأمراء والسكن المجاورين للسند سمعوا عن هذا الخير والبركة ورحبوا بالفضل بن ماهان بدلا من أن يثورا ضده، أن المؤرخ البلاذرى يقول: " ثم إن الهند بعد وغلبوا على سندان فتركوا مسجدها للمسلمين يجتمعون فيه، ويدعون للخليفة " أن هذا النص يؤيد ما نذهب إليه لأنه لو غلب الفضل بن ماهان على السندان بالقوة فلماذا أعطى الهندوس المسلمين الحرية فى أداء شعائرهم الدينية والدعوة للخليفة أن كل هذا يشير إلى أن هذه الدويلة قد قامت بالصلح.

قال ياقوت الحموى عن سندان " قال نصر هى قصبة بلاد الهند ولا أدرى أى شيء أراه بهذا، فإن القصبة فى العرف هى أجمل مدينة فى الكورة والناحية ولا تعرف بالهند مدينة يقال لها سندان تكون كالقصبة وإنما سندان مدينة ملاصقة بالسند بينهما وبين الديبل والمنصورة نحو عشر مراحل ولم توصف صفة ما يستحق أن تكون قصيبة الهند.

إن نصر ياقوت لم يقل بصراحة أن حكومة ماهان كانت على السندان ولكنه اعترف على الأقل بأنها كانت قصبة بلاد الهند التى تشير أهميتها ومن الجائر أنه يشير بهذا إلى حكومة ماهان حينما اعترف البلاذرى بوجود حكومة الماهانية.

من الغريب أن ياقوت الحموى قد يبدى الشك فى كلام نصر عن السندان بالرغم من أنه قد اعتمد عليه كثيرا فى كتابه حتى قال فى مقدمة كتابه عن نصر "ألفه أبو الفتح نصر بن عبد الرحمن الاسكندرى النحوى فما اختلف وائتلف من أسماء البقاع فوجدته تأليف رجل ضابطه قد أنفذ فى تحصيله عمرا وأحسن فأما أنا فكل ما نقلته من كتاب نصر فقد نسبته إليه وأحلته عليه ولم أضع نصبه ولا أخملت ذكره وتعبه والله يثبه ويرحمه".

بعد هذا الكلام يبدى ياقوت الحموى الشك فى كلام بدون إبداء السبب وهذا كلام غير مفهوم على الإطلاق.

أن سندان كانت معروفة ومشهورة لذا زارها بعض الشعراء العباسيين وذكروها فى شعرهم منهم البحترى وأبو العتاهية هذا دليل على أهميتها مما يرجح أنها كانت عاصمة فى يوم ما.

قال البحترى:

ولقد ركبت البدر فى أمواجه وركبت هول الليل فى بياس

وقطعت أطوال البلاد وعرضها ما بين سندان وبين سجاس

وهكذا شاعر الزهد أبو العتاهية ذكر سندان فى بيته:

ما على ذا كنا افترقنا لسندا ن وما هكذا عهدنا الاخاء

تضرب الناس بالمهند البيض على غدرهم وتنسى الوفاء

على كل حال أن حضور الشعراء فى هذه الدويلة وذكرها فى شعرهم تشير على الأقل إلى أن المسلمين فى هذه الدويلة كانوا أصحاب قوة وكانت لهم أهمية كبيرة.

حكام الدويلة الماهانية:

إن التاريخ يشير إلى الذين حكموا هذه الدويلة كانوا ثلاثة أشخاص فقط:

١ - مؤسس الدويلة الفضل بن ماهان مولى بنى سامة.

٢ - محمد بن الفضل بن ماهان.

٣ - ماهان بن الفضل بن ماهان.

يقول المؤرخ البلاذرى عن مؤسس هذه الدويلة بقوله: " كان الفضل بن ماهان مولى بنى سامة فتح سندان وولى عليها وبعث إلى المأمون رحمه الله بفيل وكاتبه ودعا له فى مسجد جامع اتخذه بها".

إن عصر المأمون يبتدئ من سنة ١٩٨هـ، / ٨١٣م وينتهى فى سنة ٢١٨هـ/ ٨٣٣م ويظهر أن الفضل بن ماهان قـد أقام هذه الدويلة قبل ولاية المأمون بقليل أو بعد ولايته.

على كل حال أن الفضل بن مـاهان لم يقطع صلته بالخلافة بعـد إقامة هذه الدويلة بل أن يكتب إلى الخليـفة الخطابات ويشـيره فى أمور الـدولة، وظل يدعو للخليفـة فى الخطب كما يظهر مـن كلام البلاذرى وأن الفضل بن مـاهان يقد بنى مسجدا فى سندان وأن حكومته على هذه الدويلة كانت شخصية، ولذلك بعد وفاة الفضل بن ماهان تولى ابنه مـحمد بن الفضل زمام الحكومـة، يقول البلاذرى عن محمد بن الفضل بقـوله: "فلما مات قام محمد بن الفضل بن ماهان مـقامه فسار فى سـبعـين بارحة إلى مـيد الهند فـقتل مـنهم خلقا، وافـتتح قـالى ورجع إلى سندان".

إن المؤرخ البلاذرى لم يشر إلى مـدة حكومة محمد بن الـفضل ولكن يظهر أن الأمن والهـدوء قد سـاد فى عصـره ولذلك أنه توجه إلى مناطق خـارج السند وقضى على بعض قـراصنة البحـر الذين كانوا يسبـبون خسـائر للتجار من عـصر (محمد بن القاسم) بهذا يمكن لنا أن نقدر أن قوته البحرية كانت قوية.

وفى أثناء غياب محمد بن الفضل تسلط أخوه ماهان بن الفضل على السلطة يقول البلاذرى عن هذا بـقوله "ورجع إلى سنان وقد غلب عليهـا آخر له يقال بن الفضل وكـاتب أميـر المؤمنين المعتـصم بالله وأهدى إليه سـاجا لم ير مثلـه عظما وطولا وكانت الهند فى أمر أخيه فمالوا عليه فقتلوه، ثم أن الهند بعد وغلبوا على سندان فتركوا مسجدها للمسلمين يجـمعون فيه، ويهدى للخليفة" يظهر فى هذا النص أن ماهان بن الفضل قـد اغتنم فرصة غياب أخـيه وتسلط على الحكومة وأنه كان يحـاول أخذ الاعتـراف من الخليفة المعـتصم بالله لمشروعـية هذا الاغتـصاب ولذلك أنه بعث إليه الهـدايا، ولكن الوقت كان فى صالح محـمد بن الفضل لأنه حاول أن يسود الأمن والسلام فى المنطقة.

ثانيا: أنه قضى على هؤلاء القراصنة الذين كانوا بمثابة خطر التجار وبهذه العملية قد ستر هؤلاء الناس كانوا مقيمين حول سندان ولذلك تسلط ماهان بن الفضل على السلطة وقد اعتبر اغتصابا وأن الهندوس قد ثاروا عليه وصلبوه كما يقول المؤرخ البلاذرى. لعل هذه الدويلة قد انقرضت فى سنة ٢٢٧هـ، ٧٤١م فى آخر عهد المعتصم بالله ولذلك لا نجد أى نشاط لهذه الدويلة بعد هذه الفترة على الإطلاق.

إن أمراء هذه الدويلة كانوا من أتباع أهل السنة والجماعة كما كان سادتهم بنو سامة، أن أمراء بنو سامة كانوا يخطبون للخليفة على المنابر نفس هذه الظاهرة نجدها عند أمراء الماهانية حق أن اثنان منهم وهما الفضل بن ماهان وماهان بن الفضل قد بعثا بالهدايا هل السنة والجماعة كما كان سادتهم بنو سامة، أن أمراء بنو سامة كانوا يخطبون للخلى الثمينة إلى الخلفاء العباسيين.

أثر الإسلام فى سندان:

هل هذه الدويلة المسلمة العربية قد تركت أى أثر من الآثار الإسلامية فى السندان.

فى الحقيقة أننا لا نجد أى دليل مادى سوى المسجد الذى بناه مؤسس الدويلة الفضل بن ماهان، ولكن دلائل تشير إلى هذه الدويلة المسلمة قد تركت بعض الانطباعات الحسنة على غير المسلمين التى بقيت بعض انقراض هذه الدويلة وذلك رغم استيلاء الملوك الهندوكيين على السندان فقد تركوا العرب المسلمين حرية كاملة فى دينهم ومزاولة أعمالهم الدينية.

وقد زار سليمان التاجر هذه المنطقة بعد انقراض الدويلة الماهانية سنة ٢٢٧هـ، / ٨٤١م، وتحدث عن اطمئنان المسلمين فى هذه البلاد وذكر أن أهلها كانوا أكثر الناس حبا للعرب.

يقول المؤرخ المسعودى فى هذه الصدد " وليس فى ملوك السند والهند من

يعز المسلمين إلا ويعز الإسلام فالإسلام فى ملكه عـزيز مصون ولهم مساجد مبنية والخمسين سنة فصاعدا وأهل مملكته يزعمون إنما طالبت أعمار ملوكهم لسنة العدل وإكرام المسلمين.

فى رأى أن هذه الانطباعات التى تركـتهـا هذه الدويلة لا تقل عن أى آ ثر إسلامى مادى.

الدولة السامية بالملتان سنة ٢٧٩هـ/ ٨٩٢م:

أما الدويلة الثانية التى قامت فى السند فهى دويلة محمد بن القاسم بن منبه الثانى وذلك يمكن أن نـطلق عليها اسم الدويلة الســامية نسـبة إلى هذا المؤسس، ومحمد بن القاسم عربى قرشى كما ذكرت المصادر التاريخة.

وقد بدأت أنظار محمد بن القاسم تتطلع إلى الهند منذ كان واليا على عمان (٢٧٩هـ، ٨٩٢م، التى تقع على الشـاطئ المقـابل للهند ويفـصلهـا عندها خليج عمان، وقـد تولى محمد بن القاسم بن منـبه السامى عمان بعـد أن أرسله الخليفة المعتضد للقضاء على فتنة الخوارج بها فنجح فى مهمته هناك: سؤال متى أقام محمد عبد القاسم السامى دولته فى الملتان؟

فى الحقيقة لا نجد أى شىء بهـذا الصدد بوضوح ولكن يمكن لنا أن نستنتج من المصادر أن محمد بن القاسم الساقى قد فتح الملتان أثناء حكمه فى عمان سواء أكان ذلك بنفسه أو عن طريق عماله رغم عن عدم تصـريح المصادر بهذه الحقيقة، وذلك لأن المصادر كلهـا تؤكد أن فتح المـلتان ثم فى عهـد محمـد بن القاسم وأن دولته فى عمان استمرت حتى عهد أبنائه إلى أن سقطت على أيدى القرامطة.

أما سبب قيـامه بغزو الملتان فى ذلك الوقت فيمكن أن نقـول أنه بعد قضائه على الخوارج فى عمـان قد توجه لاستئصـال بقيتهم فى الملتان لأنها كـانت مركزا للخوارج.

آراء المؤرخين فى هذه الدويلة:

ومن المؤرخين الذين ذكروا هذه الدويلة ابن رستة (٢٨٠هـ/ ٨٩٣م) ولكنه لم يشر إلى أنهم من أبناء محمد بن القاسم بل ذكر أن الملتان يحكمها قوم يدعون أنهم من أبناء سامة بن لؤى يقال لهم بنو منبه وأنهم يخطبون للخليفة العباسى ويدينون بالمذهب السنى، وقد كانت الملتان مصدرا كبيرا لثروة هذه الدويلة بما يقدمه إليه الحجاج الذين يفدون إليه من أنحاء الهند كما أن دولتهم كثيرا ما كانت تتعرض لهجات الهند ملوك ولكن النصر كان دائما فى جانب بنى سامة لتمتعهم بالقوة واليسار.

بعد ابن رسته نرى المؤرخ المسعودى يتحرى عن هذه الدويلة الذى زار الهند بعد ثلاثمائة هجرية " وصاحب مملكة بلد الملتان رجل من قريش من ولد سامة بنى لؤى بنى غالب.

ويذكر فى مكان أخر وكان دخولى إلى بلاد الملتان بعد الثلاثمائة والملك أبو اللهاب المنبه بن أسد القرشى.

ثم يذكر المؤرخ عن حالة هذه الدويلة قدرا من التفصيل "فأما صاحب الملتان فقد قلنا أنه من ولد سامة بنى لؤى بن غالب وهو ذو جيوش ومتعة وهو ثغر من ثغور المسلمين الكبار وحول ثغر المسلمين الملتان من ضياعة قراه عشرون ومائة ألف قرية مما وقع عليه الإخفاء والعدو فى على ما ذكرنا الصنم المعروف بالملتان يقصده السند والهند من أقاصى بلادهم بالنذور والأموال والجواهر والنقوط وأنواع الطيب ويحج إليه الألوف من الناس.

إن كلام المسعودى يشير إلى بعض النقاط لابد أن تؤخذ فى موضع الاعتبار:

أولا: أن المسعودى عندما زار الهند وجد هذه الدويلة قديمة ولكن يوجد فيها نظام التوارث لأنه كان يحكم فى ذلك الوقت حفيد محمد بن القاسم أبو اللهاب منبه بن أسد، من المعروف أن ابن رسته لم يذكر اسم محمد بن القاسم بل

اقتصر على ذكر اسم (قوم بنى منبه) أن هذا يشير إلى أن الحكومة كانت فى الأولى الشورى ولكن بعد تولية أسد بن القاسم أصبحت الحكومة ملكية متوارثة.

بعد ذلك نجد الأصطخرى (٣٤٠هـ/ ٩٥١م) يذكر عن هذه الدويلة: وكان لأمراء هذه الدويلة معسكر خاص يبعد عن الملتان بنصف فرسخ فقط يقيمون فيه بصفة دائمة يسمى (جنداور) ولا يخرجون منه إلى الملتان إلا فى يوم الجمعة فيذهب الأمير إلى الصلاة راكبا فيلا وكان هؤلاء الحكام مستقلين سياسيا عن حكم المنصورة الذين كانوا موالين للعباسين أيضا.

إن ابن حوقل (٣٥٨هـ/ ٩٦٨م) آخر من تكلم عن هذه الدويلة أنه لم يقدم شيئا جديدا إلا تكرار بما قاله الأصطخرى.

القضاء على هذه الدويلة:

نحن لا نعرف متى وكيف انقرضت هذه الدويلة ولكن ما نعرفه أنه قد أعقبها دولة أخرى إسماعيلية تابعة للفاطميين فقد ذكر المقدسى (٣٧٥هـ/ ٩٨٠م) أهل الملتان شيعة يهو علون فى الآوان ويثنون فى الإقامة.

ويذكر فى موضع آخر "وأما الملتان فيخطبون للفاطميين ولا يحكمون ولا يعقدون إلا بأمره".

على كل حال أن هذا يثبت أن الذين تولوا حكومة جديدة كانوا الفاطميين وإن كان لهم اعتقاد بالخلفاء الفاطميين فى مصر.

ولكن هناك سؤال هل أن بنى منبه قد غيروا مذهبهم من السنة إلى الشيعة؟ أو حل مكانها أسرة جديدة؟

فى الحقيقة لا نجد جوابا صريحا على هذا السؤال ولكن المؤرخ البيرونى يلقى ضوءا فيذكر أن القرامطة استولوا على الملتان، وكسر أحد زعمائهم يدعى جلم ابن شيبان صنم الملتان الذى حاف؟ عليه بنو سامة بن لؤى وقتل سدنته وحول بيت الصنم إلى مسجد - ولم يكن فى استطاعته خلفاء بغداد العباسيين أن

يساعدوا أتباعهم بنى لؤى لضعفهم ولبعد المسافة بينهم وبينما كان دعاة العلويين قد جاءوا إلى الهند ونجحوا فى جذب بعض سكانها إليهم ومن هؤلاء الدعاة جلم ابن شيبان الذى أرسله الخليفة المعز الفاطمى لنمشر دعوته بالهند.

وقد انقرضت هذه الحكومـة الإسماعيلية على يد السلطان محـمود الغزنوى فى سنة ٣٦٩هـ/ ١٠٠٥م عندمـا بلغه أن أبا الفـتوح والى الملتـان يعتنق مـذهب الباطنية وأنه يدعو

أهل ولايته إلى مذهبه وفـر هذا الوالى أمام السلطان الغزنوى وبذلك عادت الملتان إلى المذهب السنى وأصبحت فى أيدى العزنويين المواليين للعباسيين.

المذهب الدينى لأمراء بنى سامة:

إن المؤرخ ابن خلدون قد صـرح أن بنى سامة فى عمان كـانوا يعملون على المذهب السنى ويتظاهرونهـا ولكن لا نجد أى تصـريح واضح عن أمراء بنى سـامة بملتان فى هذا الصـدد ولكن القرائن تشير أنهم كانوا سنـيون أولا: أنهم كانوا من أسرة بنى سامة الذين كـانوا يحمون فى عمان ثانيهما: أنهم كـانوا يذكرون أسماء الخلفاء العـباسيين فى الخطب ويدعـون لهم، ثالثا: أن أكبر دليل لسنيـتهم أن هذه الحكومة قد انقرضت بأيدى الإسماعيليين.

العلاقة مع الخلفاء العباسيين:

إن هذه الدويلة قد استقلت عن الخلافة العباسية ولكن صلة دينية كانت باقية مع الخلافة أنهم كانوا يذكرون أسماء الخلفاء العباسيين فى الخطب، يقول ابن رسته فى هذا الصـدد "وهم يدعـون لأميـر المؤمنين " يقـول الأصطخـرى" ولا يطيع صاحب المنصورة إلا أنه يخطب للخليفـة "ويقول ابن حوقل" وهو ليس فى طاعة أحد وخطبته لبنى العباس".

إن هذه القوال تشير إلى أنه كانت لهم علاقة مع الخلافة العباسية.

الدويلة المعدانية فى مكران سنة ٣٤٠هـ/ ٩٥١م

لقد بدأت علاقة المسلمين بمكران منذ عهد معاوية رضى الله عنه. يذكر المؤرخ البلاذرى أن مكران فد فتحت عنوة فى عهد معاوية بن أبى سفيان على يد سنان الهذلى الذى ولاه زياد على هذا الثغر، فقام بتعمير مكران وضبتها، واستقر بها.

ويرى ابن الكلبى أن فتح تم على يد (حكيم بن جبلة العبدى)، ثم تولاها راشد بن عمرو الحديدى من الزد، فاتجه إلى توسيع نفوذه فغزا القيقان والميد أثناء ذلك فتولى من بعده سنان بن سلمة المذكور فأقام بها سنتين.

على كل حال لا نجد فى التاريخ الإسلامى أى حاكم عربى مسلم حكم عليه إلا سنان بن سلمة وراشد بن عمرو الحديدى ولكن عندما ندخل فى القرن الرابع نجد أن الظروف قد تغيرت فى مركان لصالح شخص المعروف بعيسى بن معدان أنه أعلن حكومته المستقلة وإن هذا الشخص كان معروفا فى لغة سكان مهران باسم "مهراج" إن المؤرخ الأصطخرى أشار إلى هذه الحكومة بقوله" والمتغلب عليها رجل معروف بعيسى بن معدان وسمى بلسانه مهراج ومقامة مدينة كيز"

إن ياقوت الحموى قد نقل نفس عبارة الأصطخرى ولمنه حدود وقت استقلاله بها بقوله "والمتغلب عليها فى حدود سنة ٣٤٠هـ/ ٩٥١م رجل يعرف بعيسى بن معدان ويسمى بلسانهم مهراج ومقاومة مدينة كيز.

والمعلومات التى لدينا عن عيسى بن معدان قلية فنحن لا نعرف شيئا عن أسرته ولا منشئته.

ويتبين ما ذكرته المصادر التى رجعنا إليها أنه قد استولى على مكران بقوته الذاتية ولم يكن تابعا لأيه قوة أخرى تشر المصادر إلا انه كان خاضعا للعباسيين أو أنه كان يخطب باسمه.

وقد تولى الحكم بعد ابنه معدان بن عيسى بن معدان ونحن لا نجد فى كتب

التــاريخ أكثــر من هذا فلمــا توفى هذا الأمــير سنة ٤٢٢هـ/ ١٠٣٠م حــدث بين والديه عيــسى وأبى العساكر فــاستبد عيــسى بالولاية والمال فسار أبو العــساكر إلى خراسان وطلب من مسعود بن محمود بن ســبكتكين حاكم غزنة النجدة فسير معه عسكرا وأمــرهم بأخذ البلاد من عــيسى أو الاتفاق مع أخــيه على طاعتــه فوصلوا إليها ودعوا عيسى إلى الطاعــة والموافقة فأبى وجمع جمعا كثيــرا بلغوا ثمانية عشر ألفا وتقدم إليهم فالتقــوا فاستأمن كثير من أصحاب عيــسى إلى أخيه أبى العساكر فانهزم عيسى ثم عــاد وحمل فى نفر من أصحابه فقتل واستــولى أبو العساكر على البلاد ونهبــها ثلاثة أيام "وهكذا تولى أبو العساكر الحكم بمساعــدة الجيش الغزنوى فخضع للغزنويين وأمر بذكر اسم السلطان فى الخطب كما أشار إليه ابن خلدون.

وقد ظلت دولة بنى معدان حتى انقــرضت بيد السلطان غياث الدين الغورى فى سنة ٤٧١هـ وبذلك أصــبــحت مكران ضــمن ممتلكات الغــوريين الذى يدينون بالولاء للخلفاء العباسيين.

إن المؤرخين لم يبينــوا السبب للقضاء على هذه الدويلة ولكن القــرائن تشير أنها انقــرضت بسبب اعتناقهــم مذهب الخوارج لأن المؤرخ المسعــود يقول عن بلاد مكران وهى أرض الخوارج الشراة.

* * *

الدولة الهبارية ببلاد السند

٢٤٠ - ٤١٦هـ = ٨٥٤ - ١٠٢٥م

تنسب هذه الدولة إلى صحابى جليل دخل فى الإسلام سنة ٨هـ = ٦٢٩م واسمه هبار بن الأسود بن المطلب بن أسد، من قبيلة أسد القرشيه، وقد قدم واحد من ذرية ذلك الصحابى إلى بلاد السند واسمه المنذر بن زئير مع واليها الحكم بن عوانة الكلبى سنة ١١٢هـ = ٧٣٠م، واستقر فى هذه البلاد وعين حاكما على مدينة "باتية" حيث تركز نفوذ أسرته، كما شغل أفراد تلك الأسرة مناصب حكومية مهمة سواء على عهد الأمويين أو على عهد العباسيين، ثم استقلوا بحكمتها ابتداء من ٢٤٠هـ كما سبق القول، وعلى النحو التالى:

عمر عبد العزيز بن المنذر بن عبد الرحمن بن هباز ٢٤٠ - ٢٧٠هـ - ٨٥٤ - ٨٨٣م.

كان إقليم السند تابعا للخلافة العباسية اسميا خلال هذه الفترة وقامت بينهما العلاقات التجارية والسياسية والثقافية، والدليل على ذلك أن الخليفة المعتمد (٢٥٦ - ٢٧٩ = ٨٦٩ - ٨٩٢م) عين يعقوب بن الليث الصفارى حاكما عاما على تركيان وسجستان وكرمان، وكانت بلاد السند تخضع لإشرافه رغم سلطة الهبارى ونفوذه الواسع وهذا يعنى اعترافه العباسية ولو من الناحية الشكلية ورضه بمن عينته مشرفا أو حاكما عاما. كذلك عين الخليفة المعتمد أخاه الموافق ٢٦١هـ = ٨٧٤م حاكما عاما على الولايات الشرقية وكانت بلاد السند فى نطاق إشرافه، كما كانت خطبة الجمعة فى بلاد السند باسم الخليفة العباسى حتى نهاية القرن الخامس الهجرى وذلك مظهر من مظاهر التبعية للخلافة.

ورغم وجود بعض الإضطرابات فى المناطق الشرقية، فقد أحسن ذلك الوالى سياسة ذلك الإقليم، ونشر فيه الأمن والرخاء وتوحدت البلاد فى ظل حكمه، ودخل بعض ملوك الهند

فى الإسلام زمن ولايته وقدم هدايا قيمة للخليفة العباسى، كما قدم ياقوتا نادرا على أستار الكعبة واستمر ذلك الوالى يقود البلاد بحزم وحكمة إلى أن توفى ٢٧٠هـ، وتولى بعده حسب نظام الوراثة ابنه.

عبد الله بن عمر الهبارى (٢٧٠ - ٣٠١هـ)

وافقت الخلافة على انتقال الحكم إلى عبد الله بعد وفاة والده، وقد ورث عن والده حكما مستقرا، قائما على أسس وقواعد متينة، مستندا إلى تأييد شعبى صنعته سنوات طويلة من حكم ناجح، ولذلك لم تنجح محاولة قام بها "الصمة ابن أبى الصمة" لانتزاع الحكم من عبد الله بن عمر، فقد انتهز فرصة غياب الوالى عن المنصورة وتوجه إلى "باتيه" وحاول أن يقول بانقلاب ضده فجهز عبد الله جيشا كبيرا وزحف به على المنصورة وهزم الصمة - وهو مولى لكنده واسترد مركز حكمه.

وفى سنة ٢٧٠هـ = ٨٨٣م كتب ملك سندى اسمه "مهروك بن زائك" يطلب من عبد الله بن عمر الهبارى أن يشرح له تعاليم الإسلام بالغة السندية، فأرسل إليه رجلا من أهل العلم شاعرا مكث عنده ثلاث سنوات يوضح أسس وقيم الإسلام ويترجم له معانى القرآن الكريم باللغة السندية وكان من ثمار ذلك أن هدى الله ذلك الملك إلى الإسلام. وظهرت أول ترجمة وأول تفسير لقرآن العظيم فى بلاد السند.

وفى عهد ذلك الوالى تعرضت مدينة الديبل، وهى حلقة الوصل بين بلاد السند وبلاد العرب، لخسوف شمسى استقر حتى منتصف الليل، ثم حدث زلزال مفاجئ، هز المدينة وقلب عاليها سافلها ولم يسلم من بيوتها إلا القليل، وفقدت المئات، وأصيب منها الآلاف، وضاعت مكانتها الإستراتجية والتجارية.

وعلم الخليفة العباسى المعتضد بالله (٢٧٩ - ٢٨٩هـ) بما جرى لتلك المدينة، فأمر بمساعدة سكانها بكل ما يمكن من وسائل.

وقد استمـر عبد الله بن عمر بحكم البلاد بحكمة وكـياسة، ويحرص على الأمن والرخـاء وتبليغ كلمـة الله إلى أن توفى ٣٠١هـ بعـد نحـو ثلاثين سنة من الإدارة الناجحة الموفقة.

ولاية أبو المنذر عمر بن عبد بن عمرو الهبارى ٣٠٢ - ٣٣٠هـ = ٩١٤ - ٩٤١م.

وفى عـهد ولاية عـمر هذه، بدأنا نسـمع عن منصب الوزارة وعن أسـماء وزراء لأول مرة فى بلاد السند مثل الوزير رباح ووجـدنا أن حاكم المنصورة أصبح يلقب بالسلطان بعـد نحو نصف قـرن من قيـام الدولة العبارية، ذكر ذلك المؤرخ المسعـودى وتحدث عن بعض من لقيـهم من ذرية عمر بن عبـد الله وابنيه محـمد وعلى وعبد الله وحمـزة وبعض ذرية على بن ابى طالب وآل أبى الشوارب عندما زار المنصورة ٣٠٣هـ = ٩١٥م.

وقـد اتاحت الفرصـة الكبـيـرة التى حكم خلالـها عـمـر أن يقوم ببـعض الإصلاحات المفيدة، فـوسع مدينة المنصورة واهتم بضواحيها فـأصبح ما للمنصورة من البقاع والقرى ثلاثمائة ألف قرية ذات زروع وأشجار وعمائر متصلة.

كما أعاد فتح بعض المدن حولهـا مثل مدينة "آلور" التى كان يجكمها زمن والده حالكم سندى يخضع لوالى المنصورة، وكانت البـلاد مستقرة فى أيامه، ولا يذكر التاريخ شيئا عن زمن وفاته، ويغلب على الظن أن ابنه الكبر "محمد" تولى من بعـده، ثم تبعه أخـوه " "على" الذى أشار إليـه ابن حوقل عندمـا زار السند ٣٤٠هـ = ٩٥١م، وكان الأسـرة الهبـارية لا تزال تسيطر علـى مقاليـد الحكم فى المنصورة.

وإن ظهرت فى مكران دولة مستقلة تسمى الدولة المعدانية تحت قيادة "عيسى ابن معـدان" المقلب بالمهراج" ٣٤٠هـ وتـوارث أبناؤه الحكم إلى أن كانت سـيادة الغزنويين.

وفى ٣٧٥هـ = ٩٨٥م زار المقدسى البشارى بلاد السند، ويفهم من عبارته أن المنصورة كانت لا تزال تحت حكم أسرة الهبارى وأن الخطبة فيها كانت باسم الخليفة العباسى عضد الدولة وأن أهلها كانوا سنيين ويتبعون فى الفروع مذهب أبى حنيفة النعمان، وأن بدأ مذهب داود الظاهرى ينتشر عند بعض العلماء فى المنصورة.



الشيعة فى المنصورة بالسند

٤٠٢ - ٤١٦هـ = ١٠١١ - ١٠٢٥م

أرسل عبيد الله المهدى الشيعى أول إلى بلاد السند ٢٧٠ - ٨٨٩م فى عهد عبد الله بن عمر الهبارى وكان اسمه الهيثم رسول عبد الله المهدى وقد بدأ اتصالات بالعلماء وأ:ابر البلاد، وييشر بالمذهب الشيعى مستغلا بعد المسافة بين هذه البلاد وبين مركز الخلافة العباسية، ولكن جهوده لم تثمر فأثر الانتقال إلى الملتان فى إقليم البنجاب، ويبدو أن الداعية الأول حقق نجاحا فى هذه المنطقة فتتابع الدعاة عليها، وقاموا بمهمتهم فى نشاط ودأب ساعد على إقامة دولة باسمهم فى الملتان بعد نحو قرن من الزمان وكان يقودهم داعية قدير اسمه جلم بن شيبان، وما لبث أن التف حوله القرامطة القادمين من البحرين وبلاد فارس، وأقاموا أول دولة إسماعيلية بشبه القارة الهندية، بقيت ردحا من الزمان حتى تمكن الغزنوين من القضاء عليهم.

ومن الخطوات التى اتخذها العباسيون لمواجهة الشيعة فى المنصورة إرسال عالم كبير وهو محمد بن أبى الشوارب وتعينه قاضيا على بلاد السند، بهدف مواجهة القيادات السياسية والفكرية الغربية على هذه البلاد، ورغم موت ذلك القاضى بعد أشهر معدودات. إلا أن أسرته ظلت تتوارث منصب القضاء، وحين زار المسعودى المنصورة ٣٠٣ = ٩١٥م كان قاضى العاصمة واحدا من هذه الأسرة.

وقد كتب ابن الأثير عن الحالة فى بلاد السند ٤١٦هـ = ١٠٢٥م، وذكر أن سكان العاصمة قد اعتنقوا المذهب الشيعى منذ سنوات قليلة ـ ولا ندرى متى استولى الشيعة على الحكم فى المنصورة؟ حكام الشيعة من الملتان ولو كان لهم وجود فى المنصورة، لوجه إليهم الغزنوى قوات قضت عليهم.

والغالب على الظن أن الشيعة الذين هربوا من الكلتان، جمعوا صفوفهم وذهبوا متحدين إلى المنصورة وأستولوا عليها نحو ٤٠٢هـ منتهزين فرصة ضعف أسرة الهبارى آنئذ.

محمود القرنوى يستولى على السند

فى ٤١٦هـ = ١٠٢٥م قام السلطان محمود الغزنوى بحملة على المنصورة للقضاء على سلطة الشيعة فيها، وذلك بعد نجاحه فى فتح سومانت Somnath من بلاد الهند، ففى طريقه عائدا إلى غزنة، توجه نحو المنصورة عاصمة السند ونحو ملتان.

ورغم أن قبائل الزط Jats والميد Meds قتلت عددا من جنود السلطان ونهبت أمتعته إلا أنه استطاع أن يصل إلى المنصورة، وعلم حاكم البلاد بقدومه واختبأ مع أتباعه فى غياض واسعة بالمنطقة، فحاصرهم جيش السلطان، وحمل عليهم من الناحيتين وقتل عددا كبيرا منهم، وفر آخرون فغرقوا فى النهر وبذلك انتقل الحكم إلى الغرنويين السنيين فى كل من السند والملتان ابتداء من أوائل القرن الخامس الهجرى، وأصبحت لهم السادة من غرنة وحتى دلهى.

***

الدولة العربية فى الملتان بإقليم البنجاب

٩٤ - ٤٠١هـ = ٧١٢ - ١٠١٠م

فتح محمد بن القاسم بلاد الملتان ٩٤هـ أثناء بشبه القارة الهندية، وكان أول حاكم مسلم تولى على هذه البلاد بعد فتحها هو داود بن وليد العمانى، ويبدو أن هذا الحاكم قد استقل بالملتان بعد الاضطرابات التى أعقبت عزل محمد بن القاسم، ولم يعد هناك اتصال مباشر بين هذا الحاكم وبين حكام إقليم السند، وإن بقى يخطب باسم الخليفة الأموى ثم العباسى ويظهر ولاءه لهما.

وفى ١٥١هـ = ٧٦٨م زمن الخليفة المنصور، كان والى السند هو هشام بن عمرو التغلبى، وقد أشار عليه البعض بأن يعمل على توحيد البنجاب مع السند، لأن ذلك ييسر عليه فتح أقاليم جديدة ببلاد الهند، فقام هشام بحملة على الملتان وفتحها، ثم تصالح مع أميرها العربى، وعاد إلى "قندهار" ليقضى على اضطرابات قامت بها ومنها عاد إلى المنصورة دون أن يكمل فكرة فتح مناطق جديدة فى بلاد الهند ويبدوا أن الأحوال كانت مستقرة ولم يجر فى هذه البلاد ما يلفت النظر، فقد سكت المؤرخون عن رواية ما يحدث بها لمدة ثلاثين سنة.

وفى سنة ١٨١هـ = ٨٩٧م أنشئت حدة القتال بين القبائل العربية، وخشى والى السند من الحجازيين الذين انحاز ضدهم، فهرب إلى الملتان ولما أوصد أهلها الباب فى وجهه، أراد دخول المدينة بالقوة قتال انهزم فيه والى "السند وفر تاركا وراءه سلاحه ومتاعه، ومرة أخرى يصمت التاريخ عن أخبار الملتان مدة تسعين عاما إلى أن يخبرنا ابن رسته عن قيام دولة بنى سامة بن لؤى أو الدولة السامية بزعامة محمد بن القاسم السامى بالملتان عندما زار بلاد السند والهند ٢٩٠هـ.

ثم بدأ يزو الملتان مؤرخون وجغرافيون، ويكتبون معلومات عن الأحوال السياسية والمذهبية والاجتماعية والاقتصادية بتلك البلاد فيقول ابن رسته أن حكام

الملتان هم بنو سامة بـن لؤى أو بنو منبه من قريش وأنهم من أهل السنة وولاؤهم للخليفة العباسى وهكذا يتضح أن بنى سامة هم أنفسهم بنو منبه وأن هذين اسمان لأسرة واحدة ويبدوا ذلك جلبا مما يلى.

زار المؤرخ السعـودى الملتان ٣٠٣هـ = ٩١٥م وكتب عن أخبـارها وذكر أن حكامها العـربى من ولد "سامة بن لؤى بن غالب" ويسمـى "أبو اللباب منبه بن أسد القرشى"، ويظهر من عـبارة المسعودى أن أول حاكم لهذه المنطقـة كان اسمه منبه وأنه من أسرة "سامة" وقد نسب بعض المؤرخين تلك الأسرة إلى "منبه" كما نسبها آخرون إلى الأسرة التى ينتمى الحاكم إليها.

كذلك زار الجغـرافى الأصطخرى "الملتان أيضا سنة ٣٤٠ وذكـر أن حكامها رجل قرشـى من ولد لوئ، وأوضح أنه تغلب عليهـا ولا يخضع لوالى المـنصورة وأنه يدعو للخليـفة العباسى فى خطبة الجـمعة، فالحاكم إذن هـو منبه بن أسد بن لؤى القرشى.

ونفس الشيء نجـده عند "ابن حـوقل" الذى قـدم لزيارة الملتـان ٣٦٧هـ = ٩٧٧م وذكر أن حكامها هو بنو منبه وأنهم على مذهب أهل السنة وأنه سمع الناس فى السند يتحدثون العربية والسندية، ولاحظ صداقة حـميمة وسمحة بين السكان المسلمين والهندوس.

ويخبرنا المقدسى بتطور حـدث فى بلاد السند حين زارها سنة ٣٧٥هـ، فقد سافر منهـا إلى الملتان، وذكر أن حكام الملتان قد أصـبحوا من الشيعـة أنئذ يقول: "وأهل الملتان، وذكر أن حكام الملتان شيعة يهو علون ويثنون فى الإقامة.

حكومة الشيعة فى الملتان ٣٧٥ - ٤٠١= ٩٨٥ - ١٠١٠م.

ليس معروفـا على وجه التحديد الزمن التـاريخى الذى استولى فيه الشـيعة على مقاليد الحكم فى الملتان ويمكن أن القول بصفـة عامة أن زعماء الشيعة أدركوا أن الثورات العلنية لن تحقق هدفهم فى حكم الدولة الإسلامـية، فلجأوا إلى التقية

والتستر والمبالغة فى التمويه والاعتماد على حجة يعهد إليه بأمر تنظيم الدعوة، ونشر الدعاة فى سائر أجزاء الأرض، وقد اتخذ الإمام الحجج وأمرهم أن يتسموا باسم الإمام، "فمن أخذ العهد على مستجيب سمى له أولئك الحجب والحجج حتى يمضى الوهم إليه سترا على صاحب الأمر، وكان الدعاة فى البلاد المختلفة لا يتفقون على اسم الإمام حتى لا ينكشف أمره.

ورغم ذلك فقد ظهر أمر هؤلاء الدعاة فى عهد الخليفة المأمون العباسى، وكان إمامهم الذى يدعون إليه هو "عبيد الله بن محمد بن إسماعيل"، وقد فتك العباسيون بأسرته، واضطر هو للهرب إلى "سليمة" من أعمال حمص بالشام ولم يبح لأحد بأسرار دعوته.

ومنذ ذلك الحين ويرجح أنه ٢٠٦ = ٨٢١م وسليمة هى مركز الدعوة الشيعية ومنها يرسل الدعاة إلى البلدان المختلفة ويحرصون على إخفاء اسم الإمام الذين ينشرون الدعوة باسمه.

ومعروف أن هؤلاء الدعاة نجحوا فى مهمتهم، وتوجت جهودهم بقيام الدولة الفاطمية فى بلاد المغرب ٢٩٦ = ٩٠٨م ثم انتقلت هذه الدولة إلى مصر وأسست مدينة القاهرة واتخذتها عاصمة لها ٣٥٨هـ = ٩٦٨م فى عهد المعز لدين الله الفاطمى.

وفى عهد ذلك الخليفة كان قاضية النعمان بن محمد الفاطمى يتولى منصب داعى الدعاة ويشرف على إرسال الدعاة إلى البلدان المختلفة ومن بينها بلاد السند والملتان، وقد ذكر فى كتابه "افتتاح الدعوة" أن الداعى الكبير أبا القاسم بن حوشب المعروف باسم منصور اليمنى، قد أرسل ابن عمه المسمى "هيثم" داعية إلى الملتان، وأنه قد نجح فى جذب كثير من سكانها إلى المذاهب الشيعى.

وفى نحو ٣٥٣هـ = ٩٦٤م أرسل الخليفة الفاطمى داعية إلى الملتان اسمه "جلم بن شيبان" أخذ يتردد بين مصر والملتان لمدة ١٨ سنة يدعو للمذهب

الشيعى، وفى عام ٣٧٥ أمر العزيز بالله الخليفة الفاطمى الثانى بمصر (٣٧٥ - ٣٨٦هـ) بتجهيز جيش كبير وإرساله إلى الملتان للاستيلاء عليها بالقوة، وقد اتجه ذلك الجيش بقيادة جلم بن شيبان على ذلك الإقليم عن طريق خراسان التى كان بها شيعة كثيرون، وفى الوقت الذى وصل فيه هؤلاء الجنود إلى الملتان قام الشيعة بإضطرابات من داخلها، وساعدت الأوضاع الداخلية والهجوم الخارجى على سقوط الدولة العربية بها.

بعد ذلك تولى: جلم بن شيبان" حكم الملتان باسم الدولة الشيعية بمصر، وضرب السكة باسم الخلفة الفاطمى، ودعا له فى خطبة الجمعة اعتبارا من ٣٧٥هـ = ٩٨٥م، وأمر بكسر صنم المعبد الذى كان موجودا فى الملتان، وأبقاه محمد بن القاسم عند فتحة لهذه المنطقة سنة ٩٤هـ = ٧١٢م بعدة أن علق لحم بقر فى عنقه استخفافا به، وقد بنى جليم بن شيبان مكان المعبد مسجدا جامعا وقتل سدنته..، وأغلق المسجد الذى بناه ابن القاسم لأنه كان رمزا للأمويين وأصبحت الملتان مركزا ثقافيا وموطنا يقصده الشعراء ورجال العلم والفكر وأصبحت البلاد منطقة جذب للتجار والكتاب والدعاة.

وقد عمل الوالى على تنظيم أمور الملتان إداريا وسياسيا ونظم الدعوة للمذهب الشيعى، وحرص على إقامة علاقات ومعاهدات صداقة بينه وبين الحكام الهنود، فقد كان يشعر بالغزلة وسط بلاد إسلامية تابعة للخلافة العباسية، ولم يكن من السهل أن ينجده الخليفة الفاطمى من القاهرة إذا ما تعرض لهجمات عليه، نظرا لبعد المسافة بين مصر وبين الملتان.

ولا يعرف متى انتهى حكم "ابن شيبان" للملتان، ولكنه كان لا يزال حيا ٣٨١هـ = ٩٩١م وعلى كل حال، فقد تولى الحكم من بعده الشيخ حميد عقد صلحا مع السلطان سبكتكين، سلطان غزنة ٣٨١هـ / ٩٩١م.

ذلك أنه كان بحكم المعاهدات بين حالكم الملتان الشيعى وبين أمراء الولايات الهندية، قام حاكم الملتان سرا بمساعدة أمير "لاهور" فى حرب نشبت

بينه وبين الغزنويين، وعلم السلطان سبكتين بذلك فقرر التوجه إلى الملتان ومحاربة أميرها ٣٨١هـ = ٩٩١م.. وعلم بذلك الشيخ حميد وخشى العواقب، فعقد صلحا مع السلطان.

ولا نعرف شيئا عن "حميد" هذا أكثر من اسمه، ولايذكر التاريخ شيئا عن صلته بالحاكم السابق ولا عن منزلته فى الدعوة الشيعية ولا عن مدة ولايته، فقط نعرف أن المعاهدة بين حميد الشيعى وبين السلطان سبكتيكين ظلت سارية المفعول حتى وفاة ذلك السلطان ٣٨٧هـ/ ٩٩٧م وأن الذى تولى الحكم من بعد الوالى حميد حفيده أبو الفتوح داود بن نصر بن حميد ٣٩٥هـ = ١٠٠٤م.

وقد تلوى حكم الغزنونين بعد وفاة السلطان سبكتكين ابنه السلطان محمود الغزنوى، وبعد أن فرغ من مشاكل خراسان، بدأ حملته على بلاد الهند ٣٩٢هـ = ١٠٠١م وفتح منطقة تجاور قندهار كانت تابعة لأمير لاهور. وفى ٣٩٥هـ بدأ أبو الفتوح داود بن نصر الوالى الشيعى على الملتان يسئ إلى معاهدة الصلح بينه وبين الغزنويين.

فقد كانت هناك قلعة حصينة فى منطقة بهاتية المتصلة بإقليم الملتان، وكانت هذه القلعة تابعة للاهور، ووقع خلاف بين حاكم تلك القلعة وبين السلطان محمود الغزنوى جعل السلطان يتوجه إليه بجيشه عبر الملتان، وحارب حاكم القلعة وهزمه، فانتحر الرجل نتيجة لذلك، وأخذ السلطان محمود الغزنوى على والى الملتان الشيعى، مساعدته سرا لحاكم تلك القلعة بزعم ما بينها من معاهدات صداقة ومناصرة عسكرية، وكتم ذلك فى نفسه إلى حين.

وفى ٣٩٦هـ = ١٠٠٥م جهز السلطان محمود جيشا كبيرا بهدف التوجه إلى الملتان والقضاء على دولة الشيعة التى باتت تمثل خطرا على الوجود الغزنوى، وبعد حصار للمدينة استمر سبعة أيام تم عقد صلح بين الطرفين، يدفع حاكم الملتان بمقتضاه جزية للسلطان مقدارها ٢٠٠٠ ألف درهم سنويا، كما تم الاتفاق على أن تكون المنطقة المتصلة بنهر السند عند الملتان تابعة للغزنويين، وبذلك أصبح

من اليسير على السلطان محمود أن يقوم بحملة مباشرة على الملتان من هذه الناحية إذا اقتضى الموقف ذلك، وعاد السلطان بعد ذلك إلى غزنة.

حدث بعد ذلك أن تعرضت بلاد خراسان لحملة معاوية ودخل السلطان محمود فى حرب ضد أعدائه فى هذه المنطقة، فانتهز حالكم الملتان الشيعى الفرصة وألغى المعاهدة وأعلن استقلال بلاده ورفض دفع الجزية المتفق عليها.

لما انتهى السلطان من أعدائه فى خراسان توجه نحو الملتان وقام بحملة شديدة قتل فيها وأسر كثيرا من الشيعة، وكان الوالى داود نفسه بين الأسرى، فأخذه السلطان مقيدا وألقى به فى سجن "غزنة أو قلعة عورك حتى مات، وأصبح الملتان جزءا من الدولة الغزنوية وسقطت الدولة الشيعية بها وعين فيها السلطان حاكما سنيا ٤٠١هـ = ١٠١٠م.

وقد قدمنا أن الشيعة الذين فروا من الملتان، أمكنهم التوجه إلى المنصورة عاصمة السند، واستولوا على الحكم بها، وظلوا يحكمونها من ٤٠٢ حتى ٤١٦هـ = ١٠١١ - ١٠٢٥م، ففى السنة الأخيرة توجه الغزنويون بقواتهم إلى المنصورة واستولوا على مقاليد الأمور وبذلك عادت بلاد السند والملتان بالنجاب إلى الحكم السنى مرة أخرى تحت قيادة السلطان محمود الغزنوى والدولة الغزنوية، وتلك حقبة أخرى من التاريخ، تمثل مرحلة ثانية من التاريخ الإسلامى لشبه القارة الهندية، لقد انتهت المرحلة الأولى بإتمام فتح السند وشمال غربى البنجاب ٩٦هـ - ٧١٤ م، وقد بقى الحال على ذلك على امتداد نحو ثلاثة قرون، حيث لم تكن توسعات أكثر للسيادة الإسلامية التركية فى "غزنة" والتى سلكت الطرق الجنوبية الغربية التقليدية لفتح شبه القارة الهندوباكستانية، وذلك حديث آخر.

***



الفصل السابع

الدويلات المستقلة

الدولة الغزنوية ودورها فى نشر الإسلام فيها

* الدولة الغورية.
* دولة سلاطين المماليك.
* الدولة الخلجية.
* دولة بنى تغلق.

الغزنويون والغوريون فى بلاد الهند

١ - الغزنويون:

٢ - اعتمد السامونيون على الأتراك فى أمور دولتهم، فكان قوام جيشهم منهم، وولوهم المناصب العسكرية والمدينة الرفيعة، فزاد نفوذهم، وعلا شأنهم فى دولة آل سامان، والمعروف أن الأتراك من العناصر التى كانت مصدرا للقلاقل والاضطرابات فى الدول التى استعانت بهم، ومن بينها الدولة السامانية، فقد أضعفوها، وعملوا على زوالها.

ومن أبرز هؤلاء الأتراك الذين أرتفع شأنهم فى الدولة السامانية "ألبتكين"، كان يعمل فى الجيش السامانى، وما زال يرتقى فى شلك الوظائف حتى ولى منصب حاجب الأمير عبد الله بن نوح (٣٤٣ - ٣٥٠هـ، ٩٥٤ - ٩٦١م) ومن ثم ارتفع شأنه، وازداد نفوذه فى الدولة السامانية، حتى أ، الوزير كان يأتمر بأمره، ويلتزم بتنفيذ تعليماته وتوجيهاته.

لم تصف الأمور لألبتكين، إذ خشى الأمير عبد الملك بأسه، وعول على إبعاد عن حاضرة دولته، فأسند إليه. ولاية خراسان فى عام ٣٤٩هـ/ ٩٦١ ولما توفى الأمير عبد الملك سنة ٣٥٠هـ/ ٩٦١م تشاور الأمراء فى الدولة السامانية مع ألبتكين - الذى كان أكبرهم فيمن يراه مناسبا لتوليه أمر الدولة السامانية فوقع اختيار ألبتكين

على عم الأمير المتوفى، ورفض اختيار منصور بن عبد الملك خلفا لأبيه، لأنه شاب حدث لم تحنكه التجارب، على أن اقتراح ألبتكين لم يعمل به، ذلك أن الأمراء ولوا منصورا دون أن ينتظروا وصول ألبتكين. لذلك نشأ العداء بين الأمير الجديد، منصور بن عبد الملك وبين ألبتكين، الذى رفض اختياره كما قلنا أميرا على السامانين، ولم تجد محاولات ألبتكين فى التودد للأمير السامانى.

خشى الأمير منصور من انتقاض ألبتكين عليه فى خراسان فاستدعاه إلى بلاط، ولما علم ألبتكين أن الأمير السامانى يضمر له السوء، رفض التوجه إليه، وأظهر التمرد والعصيان فعزله منصور عن خراسان، وأسند ولايتها إلى أبى الحسين سيمجور، فقصد ألبتكين بلخ. وعول الأمير السامانى على إخضاع هذا القائد الثائر، فأرسل إليه جيشا، اشتبك معه وهزمه، فتوجه ألبتكين إلى غزنة، وحاصرها واستولى عليها من حاكمها السامانى، "أبو بكر لوبك"، ولم يكتف بذلك غزا زبلستان وأقام بها إمارة مستقلة عن سادته السامانين عاصمتها غزنة، على أن الأمير منصور السامانى لم يقف مكتوف اليدين إزاء تمرد ألبتكين، فبذل عدة محاولات لسحق تمرده، وباءت كلها بالفشل، فكف عنه، وبذلك قوى شأ، ألبتكين فى إمارته، وتوطد فيها سلطانه.

ولما توفى ألبتكين سنة ٣٥٢هـ / ٩٦٣م خلفه فى حكم غزنة ابنه أبو إسحاق إبراهيم - قائد جيوش خراسان السامنية - غير أنه لم يستطيع السيطرة على مقاليد الأمور فى غزنة، إذ ثار عليه أهلها، وطردوه من بلدهم، فاستنجد بالأمير منصور بن نوح، فأمده بجيش مكنه من استرداد غزنة وحكمها باسم السامانيين. وبذلك استرد السامونيون نفوذهم على غزنة.

على أ، أبا إسحاق لم يلبث أ، توفى دون أن يترك وريثا يعقبه فى حكم غزنة، فحكمها بلكاتين أحد مماليكه وضرب النقود باسمه فى غزنة سنة ٣٥٩هـ/ ٩٦٩م وخلف بيرى بلكاتكين وهو فيما يبدو من أهالى غزنة، غير أنه لم يستطيع القيام بأعباء الحكم فثار عليه الجند وخلعوا طاعته، ونظروا فيمن يصلح لحكم غزنة، فلم يروا أفضل من سبكتكين لما عرفوا من علقه ودينه وكمال الخلال فيه وصرامته، ومما يجدر ذكره أن سبكتكين هو أحد موالى ألبتكين وكان حاجبا لابنه إسحاق "عليه مدار أموره، وبيده مناظم شئونه" وولى سبكتكين إمارة غزنة ٣٦٦هـ/ ٩٧٦م.

لما أفضى الأمر على سبكتكين، استطاع سياسته، وبعد عمته اكتساب محبة الرعية وأمراء البلاد المجاورة له، ولم يلبث الخليفة العباسى أن اعترف بحكومته، فاصطبغ حكمه بهذا الاعتراف بالصبغة الشرعية، وتحققت أمنية له طالما اختلجت فى صدره فتقلب بناصر الدولة، وبعث له الخليفة بالعقد والخلع التقليدية، وأصبح سبكتين المؤسس الحقيقى للدولة الغزنوية الشرعية. وعلى الرغم من استقلاله الفعلى ظل يظهر ولاءه للسامانين.

لم يكتف سبكتكين بحكم غزنة، بل عمل على بسط نفوذه على البلاد المجاورة، فبسط سيطرته على "قصدار" القريبة من غزنة، كما سيطر على خراسان، وشرع فى غزو أطراف الهند، وسطر على كثير من المعاقل والحصون هناك "فاتسعت رقعة ولايته" وعمرت أرض خزانته، وأشفقت النفوس من هيبته وتوفى سنة ٣٨٧هـ / ٩٩٧م وإليه يرجع الفضل فى وضع أساس إمبراطورية الغزنويين، إذ امتد إلى سلطانه إلى ناحية الهند حيث أسس بها حكومة فى أخبى أسس دولة كبيرة فى جنوب غرب آسيا.

ويهمنا فى دراستنا هذه أ، نتحدث بالتفصيل عن فتوحات الغزنويين فى الهند، فقد أنشأ جيشا قويا من الأفغان والترك، ورأى ضرورة الانطلاق بتلك القوة الهائلة إلى ميدان فسيح ولم يكن فى استطاعته الاتجاه نحو بلاد العراق لأن البويهيين كانوا قد وطدوا نفوذهم فيها، كما أن بلاد ما وراء النهر كان القره خاتيون يعملون على بسط سيطرتهم عليها، وانتزاعها من السامانين، لذلك انطلق الغزنويون إلى بلاد الهند من منطقتهم الوعرة كما سنرى.

ومما لا شك فيه أن الرغبة فى الجهاد ورفع راية الإسلام فى غير بلاد الإسلام من أقوى الأسباب التى دفعت الغزنويين إلى القيام بفتوحاتهم، فمن الثابت أن محمود الغزنوى كان مسلما قوى العقيدة تواقا إلى نشر الإسلام.

سار سبكتكين سنة ٣٦٦هـ/ ٩٧٦م على رأس جيش كبير إلى بلاد الهنادكة، ويحكمها جيبال - راجا البراهمة، وتقع مملكته فى شمال غرب الهند من

الكنج إلى الأفغـان ومن كشـمير إلى الملتـان، وفتح قلاعـا حصيـنة على شواهق الجبال، ومن بينـها مدينة كابل، وعاد إلى بلاده سـالما ظافرا. ولقد كان لاسـتيلاء سبتكتكين على كابل أثر كبير فى إضعاف شأن مملكة جيبال، ذلك أن كابل تسيطر على المسالك المؤدية إلى السـهل الهندى الخصيب ومما هو جدير بالذكـر أن يعقوب بن الليث الصفـار لما مد فتوحه إلى كـابل سنة ٢٥٨هـ / ٨٧١م وجد ة أهل هذه البلاد لا يزالون على الوثنية، فنشر الإسلام بينهم، وتوطد فى عهد سكتكين وابنه محمود كما انتشر فى كافة بلاد الأفغان.

ودهلى وكلنجـر، وأعدوا جندا جـاوز المائة ألف مـقاتل، ولكن سـبكتكين باغتـهم، وشتت شملهم فاضطر الأمـراء المتحالفـون إلى طلب الصلح على أموال كثيرة طائلة عدا الفيلة وعرة آلاف من رءوس الخيل.

أسفرت غزوات سبكتكين لبـلاد الهند عن امتلاكه بعض البلدان والقلاع فى الشمال الغربى من شبه القارة الهندية، وتقع على وجه التحديد بين لمغان وبشاور، مهدت لخلفائـه سبيل فتح المزيد من البلدان الهندية كما أدت انتـصارات سبكتكين على أعدائه إلى ازدياد قوته وهيـبته، فأطاعه الأفـغانية والخليج وأصبحـوا مصدرا هاما يمده بالجند الضرورى لتحقيق سياسته.

سار محمود الغزنوى على سـياسة أبيه التى تنطوى على بسط سيطرة الدولة الغزنوية على بلاد الهند، وسـاعد على ذلك قرب غزنة من بلاد الهند الشـمالية، ووقوعها على قـمة الهضة التى تشرف على سهولـها، ورأى فى بلاد الهند الجهاد الأكبر فغـزاها سبع عشرة غزوة فى مدى فى مـدى سبعة وعشرين عامـا فيما بين عامى (٣٦١ - ٤١٧هـ / ١٠٠٠ - ١٠٢٦م) حـتى خضع له شـمال شبـه القارة الهندية فأتم فتح إقليم كابلـستان، وفتح الملتان وكشميـر، وسعى إلى نشر الإسلام وإحلاله محل البـرهمية فى كل مكان، وأضع البنجاب حـيث استطاع خلفاؤه من بعده أن يثبتوا سلطانهم فى عاصمـتهم لاهور طوال مائة وخمسين سنة واندفع فى فتوحاته إلى ما وراء نهر الكنج ليختتم فتوحه فى الهند باحتلال كجرات.

ولتفصيل ذلك نقول: إن السلطان محـمود الغزنوى لما فرغ من إقرار الأمور فى خراسان وسجـستان رأى أن يغزو الهند غزوة تكون كفـارة لما كان منه من قتال المسلمين، فسار على رأس جيش يتكون من عشرة آلاف مقاتل وعند مدينة.

غيـر أن جيـبال عظم عليـه استيـلاء المسلمين على أطراف ممـلكته ورأى أن يشكل خطرا كبيـرا على ملكه، إن هو تغاضى عن ذلك فحشـد جيشا كبـيرا سار على رأسه إلى حدود الدولة الغزنوية عن ذلك ومعه جمع غفير من الجند والمتطوعة بسبب قتال بين الفريقين انتهى بانتصار المسلمين على أعدائهم، وأرسل ملك الهند إلى سبكتكين يـعرض عليه الصلح على مـال يؤديه وبلاد يسلمها وخـمسين فـيلا يحمـلها إليه. لـكن محمـود بن سبكتـكين أقنع أباه برفض الصلح إذ أبى إلا أن يكون فيصل الحرب عنوة وقهرا حميـة للإسلام والمسلمين، على أن جيبال عاد إلى طلب الصلح، وهدد بأن الهنادكة لا يهابون الموت إذ طرقهم طارق، فهم سيفقتون أعين أفيـالهم ويلقون بأطفالهم فى النار ويخربون بيوتهم بأيديهم، فـهم يعرضون أنفسهم على سيـوفهم ورماحهم، فيزهقون أرواحهـم بأيديهم، فلا يجد المسلمون حـين يدخلون ديارهم إلا تلالا خـربة عندئذ عدل سـبكتكين وابنه مـحمـود عن موقفهما، وتم الصلح بين الفريقين على ألف ألف درهم وخمسين رأسا من الفيلة يؤديها جيبال إلى السلطان الغزنوى ويتنازل له عن عدد من البلدان والقلاع، وسير معه سبكتكين من تسلمها.

غير أن جيبال نقض الصلح، وقـبض على المسلمين الذين وفدوا عليه لتنفيذ شروط الصلح، وجعـلهم عنده عوضا عن رهائنه الموجودين عند سـبكتكين، فلما نمى ذلك إلى علم السلطان الغزنوى لم يقف مكتوف الـيدين، بل عول على النفاذ إلى أرض العدو وإعـادة إخضاع جـيبال. فسـار إلى مملكته، وعاش فـيها فـسادا وتخـريبا، وقصـد لمغان وهى مـن أحسن قلاعـهم فاسـتولى علـيها وهدم بـيوت الأصنام، وأقام فيهـا شعائر الإسلام، وسار عنها يفتح الـبلاد، وينكل بمن يعترض طريقه من الهنـود، وعاد إلى غزنة فـاستعـان جيبـال على خصمـه بأمراء أجمـير

والوهن، فارسل خسـر وشاه السلطان الغزنوى إلى شهاب الدين قـائد الغور وفدا يطلب الأمان فأجابه

شهـاب الدين إلى طلبه، ودخل الغـور لاهور، وقبضـوا على خسـروشاه. وبذلك فقدت الدولة الغزنوية آخر معـاقتها، زالت الدولة الغزنوية بذلك فى الهند وغيـر الهند، وامتـد ملك الغور فى أفـغانسـتـان وبلاد الهند على حـساب الدولة الغزنوية، كما اتسع ملك الغور واستقر سلطانهم الدين بإقامة الخطبة له بالسلطنة، ولقبـه الخليفة غـياث الدين والدنيا، مـعين الإسلام قـسيم أميـر المؤمنين، ولقب السلطان غـياث الدين أخاه شـهاب الدين، عـز الدين. وأكسب اعـتراف الخليـفة العباسى لسلطان الغور الصفة الشـرعية لحكمه على البلاد التى دخلت فى حوزته. وبذلك قوى نفوذ غياث الدين.

لم يكتف الغور بما امتلكوه من بلدان، بل سـعوا إلى توسيع دائرة نفوذهم، فبعدأن استقر أمر لاهور، سار السلطان غياث الدين محمد فى صحبة أخيه شهاب الدين إلى هراة وشدد الغور عليهـا الحصار، وكان يسيطر عليها جـماعة من الترك السلاجـقة يخضعـون للسلطان سنجر، وما زال الغـور يحاصرون هراة ويضيـقون عليها الحصار حتى طلب أهلها الأمـان، فأمنهم غياث الدين محمد، ودخل هراة، وضمها إلى دولته، وتقدم سلطان الغور إلى "بـوشنج" واستولى عليها، ما امتلك بادغيس وبعض البلدان المجاورة لها فى إقليم خراسان.

يتضح لنا مما تقدم أن إمارة الغور الأفغـانية انضمت إلى الدولة الغزنونية فى عـهد السلطان مـحمـود، واعتنق أهـلها الإسـلام، وترقبـوا الفرص للعـودة إلى الاسـتقلال ولما ضعـفت الدولة الغزنوية، تمكنوا من الانـفصال عنهـا، بل وتجاوز أراضيهم الجبلـية الوعرة إلى بلاد الغزنوية فى أفغانسـتان وبلاد الهند حتى أدخلوها فى دائرة نفـوذهم وضموا إلـى دولتهم كذلـك أجزاء من إقليم خـراسان وإقليـما هنديا.

الغور وبلاد الهند

يرجع إلى الغور الفضل فى توطيد دعائم الحكم الإسلامى فى شمال الهند، وحقيقة أن السلاطين من بنى سبكتكين هم الذين فتحوا أمام قادة المسلمين من بعدهم سبيل التوسع والفتح فى بلاد الهند، إلا أن سياسة سلاطين بنى سبكتكين تختلف عن سياسة سلاطين الغور فى الهند، فالغوريون لم يعلموا على تثبيت أقدامهم للحصول على المغانم الكثيرة من بلاد الهند، أما الغور فقد استقروا فى البلاد الهندية التى ضموها إلى حوزتهم، ومن ثم احتفظت الهند بمالها وثرواتها واتسع سلطانهم فى بلاد الهند، ورأى الهناركة فى المسلمين خلاصا من نير أمرائهم الذين جرموهم من التدرج فى الوظائف مهما كانت كفاياتهم ومعتقداتهم، بينما يساوى الإسلام بين أبنائه.

وقبل أن نتحدث عن فتوحات الغور فى بلاد الهند يجدر الهند يجدر بنا أن نناقش الدوافع والأسباب التى وجهت أنظار المسلمين الغور إلى بلاد الهند.

لما كانت دولة الغور قد قامت فى أفغناستان فى منطقة جبلية وعرة، واتخذت لها قوى ضاربة قهرت الغزنويين، وانتزعت ممتلكاتهم فى غزنة وما جاورها، فمن الطبيعى أن يعمل الغور على البحث عن ميادين جديدة للتوسع، ومن الطبيعى جدا أن تكون بلاد الهند هى ذلك الميدان، ويؤيد ذلك ما ذكره المؤرخ بانيكار إذ قال: "كلما كانت أفغانستان قوية مدت نفوذها إلى بلاد الهند، والعكس كلما ضعف أمر أفغانستان أمنت الهند من غزوها لأراضيها". ومن السباب التى دعت الغور على الاتجاه إلى بلاد الهند عدم استطاعتهم الزحف إلى وسط آسيا حيث الدولة الخوارزمية ودولة الخطا تقومان فى هذه الجهات، ولا تمكنان الغور من التوغل فى بلادهما.

وكان من الضرورى للغور، ومن المنتظر أيضا أن يولوا وجوهم شطر الهند لأن الغزنويين نقلوا مقر دولتهم إلى لاهور، وأخذوا فى العمل على تقوية أمرهم

لاسترداد البلاد التى انتزعها الغور منهم فى أفغانستان، فكان لابد إذن للغور من القضاء نهائيا على آخر معاقل الغزنويين فى الهند حتى يأمنوا على دولتهم الناشئة من أية محاولة قد يبذلها الغزنويون لاسترداد أفغانستان منهم.

وهناك أسباب أخرى شجعت الغور على الاتجاه إلى بلاد الهند، فالأمراء كما سنرى فى الشمال الهند أضعفتهم وأنهكت قواهم الانقسامات والخلافات، وعلى ذلك رأى الغور أنهم لن يواجهوا متاعب كثيرة فى تحقيق سياستهم فى بلاد الهند. ولا يفوتنا أن نذكر أن الغور كانوا حديثى عهد بالإسلام تحدوهم الرغبة والأول فى الجهاد فى سبيل نشر الإسلام فى غير بلاد الإسلام، وبلاد الهند التى لا يزال معظم سكانها على الوثنية خير ميدان يجاهد فيه الغور من أجل رفع راية دينهم ونشره. ولقد انقسم القسم الشمالى من الهند حينما شرع الغور فى الزحف إليها إلى ممالك متعددة منقسمة على نفسها ومستقلة عن بعضها البعض، فهناك مملكة البنجاب ويحكمها السلطان الغزنوى "خسروشاه" - آخر سلاطين بنى سبكتكين، ومملكة الملتان، وتحكمها أسرة هندية تسمى سمارس، يضاف إلى ذلك إمارات يحكمها أمراء هنود الراجيوتيين فى شمال الهند من أهمها مملكة دهلى وآجمير ومملكة قنوج وتضم بنارس، ومملكة جوجورات ونهر البنغال، ويسمى هذا القسم هندوستان ويشمل أخصب بقاع الهند وأكثرها سكانا.

سار الغور بقيادة السلطان غياث الدين محمد إلى الملتان سنة ٥٧٠هـ / ١١٧٤م واستولوا عليها، ثم ضموا بشاور ولم يستطيع بهيم ديوا راحا نهرواله - وقف زحف الغور مما مكنهم من مواصلة تقدمهم فى أراض السند حتى استولوا عليها.

قصد السلطان الغورى بعد ذلك لاهور، وتصدى له السلطان خسروشاة وأوقع به الهزيمة، فاتجه سلطان الغور إلى "سيالكوت" وانتزعها واتخذها قاعدة لشن الغارات على لاهور، وبعد عدة سنوات استطاع سلطان الغور الاستيلاء على

لاهور، وبسقوط لاهـور فى أيدى الغور، اكتملت سـيطرتهم على إقليم البنجاب بأكمله.

لما أتم السلطان الغورى ضم بلاد السند والبنجاب إلى حـوزته عهد إلى أخيه شهاب الدين بحكم هذه البلاد نيابة عنه فاتخذ من لاهور مركزا له، وعمل شهاب الدين منذ أن ولى أمر هذه البلاد على تثـبيت أقدام الغور فيـها وتوسيع ممتلكاتهم فى الهند.

فظن الأمراء الراجبـوتيون إلى خطر الغور وخشـوا من ازدياد نفوذهم ورأوا فى ذلك خطرا يهدد سلطانهم فتـخالفوا فيما بينهم ونسوا خلافـاتهم وعقدوا العزم على طرد الغور من بلاد الهند قبل أن يهاجموا ديارهم وينتزعوا بلادهم. أو بعبارة أخرى يتـغذوا بالغور قـبل أن يتعيـشوا بهم. وفى سنة ٥٨٧هـ / ١١٩١م حـشد الأمراء الـراجبوتيـون أمراء شـمال الهند أصـحاب دهلاى وآجـمر وقنوج وبـهار والبنغال والكجرات وبندلخـاند، حشدوا قواتهم عند سـر هند على حدود البنجاب الشرقية واستـقروا الهنادكة بالانضمام إليهم فأقـبلوا عليهم من كل حدب وصوب على الصعـب والذلول، فلما علم شهـاب الدين بنوايا الأمراء الراجـيوتيـين نحو وتجمعهم لملاقاته سار إليهم على رأس جيش كبير ودارت معركة عنيفة بين الفريقين انتصر فيها الهنادكة على الغور وقتلوا واسروا من المسلمين كثيرين، وأصيب شهاب الدين بجراح شديـدة وكاد أن يلقى مصرعه لولا أن بعض جنـده حمله إلى خارج ميدان القتال، ودارت المعركة عند (تارين (على مقربة من (ثنيسر).

على أن غياث الدين سلطان الغور لم يتـغاض عن هزيمة جنده فى الهند بل رأى ضرورة محاربة أعدائه وإخـضاعهم، وإعادة نفوذ الغور والغلبة، فـأعد جيشا مكونا من مائة وعشرين ألف مقاتل من الأفغان والترك والخلج والفرس، سار على رأسه شهـاب الدين فى العام التالى، والتقى بأعـدائه فى نفس الموضع الذى نشبت فيه معركة العام السابق، وعلى الرغم من التفوق العددى للهنادكة واستخدام الفيلة فى الحرب إلا أن قـوات الغور أحـرزوا انتصـارا رائعا على الهنـادكة وقتلـوا ألوفا

منهمك من بينهم بعض الأمراء وخر أمير "آجمير" صريعا، وغنم الور مغانم كثيرة.

وكان لهذه الواقعة آثار بعيدة المدى فى شمال بلاد الهند، فقد تقلص نفوذ وسلطان الأمراء الراجيوتيين فى هذه الجهات، ما امتد سلطان الغور إلى بلاد روستى وسمته وكهرام وهنسى وآحمير، وحكم شهاب الدين الأصنام فى هذه البلاد التى امتلكها، وشيد مساجدها يذكر فيها اسم الله، وحطم معابد الشرك كذلك أصبح الطريق مفتوحا أمام الغور للزحف إلى دهلى "وهى كرسى الممالك التى فتحها الغور فى بلاد الهند "وفعلا تمكن الغور من ضم دهلى إلى حوزتهم وبذلك اتسعت أسس الحكم الإسلامى فى هذه البلاد.

عهد شهاب الدين الغورى إلى مملوكه قطب الدين أيبك بحكم البلاد الهندية الداخلة فى دائرة نفوذية نيابة عنه، وعاد إلى غزنة، وجدير بالذكر أن أيبك عرف عنه الحنكة السياسية والكفاءة الحربية.

وجعل من دهلى قاعدة لحكمه فى بلاد الهند بدلا من لاهور التى تبعد عن البلاد الهندية التى يمتلكها الغور. على أن الأمراء الهنادكة لم يلبثوا أن أعدوا عدتهم وتأهبوا لطرد الغور من بلادهم فى بلاد الهند، ووآتتهم الفرصة حين نمى إلى علمهم هودة شهاب الدين إلى غزنة فاتحدوا بقيادة "راجا قنوج جندار" ومملكته تمتد من وراء دهلى حتى حدود بنارس، وفى غضون ذلك وصل شهاب الدين إلى بلاد الهند، وانضم إليه قطب الدين، وسار جيش الغور إلى الأمراء المتخالفين، واشتبك الفريقان فى معركة فى شاندوار، وانتصر فيهل المسلمون على أعدائهم انتصارا رائعا، وزحف الغور إلى بنارس واستولوا عليها وقتل أمير قنوج فى ٥٩٠هـ / ١١٩٤م. ومن أبرز نتائج هذه المعركة ازدياد نفوذ وهيبة الغور فى بلاد الهند وفشل الأمراء الراجيوتيين فى شمال الهند فى استرداد بلادهم التى انتزعها منهم المسلمون لذلك لجئوا إلى صحراء "الراجيوتانا" التى حملت اسمهم (الثأر)

لم يأل قطب الدين أيبك جهدا فى سبيل اوسيع رقعة دولة الغور فى الهند، بل عمل ضم المزيد من بلاد الهند إلى حوزة الغور، ففى ٥٩٣هـ/ ١١٩٦م استولى أيبك على "جاولار" Gawalior كما استولى على نهر واله. وفى سنة ٥٩٩هـ/ ١٢٠٢م ضم كلنجار إلى حوزته، ولم تستطيع قلعتها الصمود أمام ضربات المسلمين القوية فاستلمت حاميتها، يضاف إلى ذلك استيلاء الغور على بعض البلاد فى شمال الهند، وبذلك سيطر الغور على أراضى شمال الهند كلها.

وبينما يعمل قطب الدين أيبك على تثبيت أقدام المسلمين فى بلاد الهند خرج قائده محمد بن بختيار الخلجى فى قلة من الجند يواصل سياسة حكومته الرامية إلى توسيع إمبراطورية الغور فى الهند، فاستولى على "بندنتبورى" عاصمة إقليم بهار ويحكمها ملوك أسرة. "بالا" Pala ولم يلبث إلا أن استولى على مملكة بالا بأسرها. وكانت الديانة البوذية عقيدة السواد الأعظم من سكانها. فحطم معابدهم وأصنامهم. ونشر الإسلام بينهم وانضمت هذه البلاد إلى إمبراطورية الغور.

وأذن قطب الدين أيبك - نائب سلكان الغور فى الهند - إلى الخلجى بمواصلة الفتح والتوسع، فتجه محمد بختيار الخلجى إلى " نادية " عاصمة البنغال وعلى الرغم من قلة عدد قواته فقد اقتحم نادية، ويحكمها لكشمن سنا من أسؤة سنا سنة ٥٩٥هـ / ١١٩٧م وفر الملك الشيخ من عاصمة دولته بعد أن علم بدخول الغزاة المسلمين لها - فاستولى عليها بختيار وضمها إلى مملكة الغور. وأقام فيها الخطبة لساكن الغور، وقد يسر سقوط نادية فى أيدى الغور أمر الاستيلاء على إقليم البنغال بأكمله.

لم يكتف بختيار الخلجى بما أحرزه من انتصارات بل تطلع إلى السير إلى التبت والاستيلاء عليه ففى سنة ٦٠٣هـ / ١٢٠٦م اتجه من " ديفكوت " Devko إلى " دناجبور " Dinajpur فى عشرة آلاف فارس. لكن حملته فشلت فشلا ذريعا، وفى عودته إلى ديفكوت فقد معظم جيشه. ولم يلبث هو كذلك أن

توفى. وقد حرس قطب الدين أيبك على المحافظة على ممتلكات الغور الهندية فقضى على ممتلكات الغور الهندية فقضى على محاولات بعض أمراء الهند فى الاستقلال على مملكة الغور، فقاتلهم أيبك وهزمهم شر هزيمة، وشتت شملهم واسترد نهروا له وعفا عن حاكمها. وإبقاء فى بلدته بعد أن دفع مبلغا كبيرا من المال وتعهد بعدم العودة إلى العصيان.

بدأت متاعب الغور فى بلاد الهند فى القرن السابع الهجرى ذلك أن بعض الولايات الهندية خرجت على حكومة الغور منتهزة فرصة انشغال الغور فى الحروب فى إيران، ومن أبرز الانتفاضات التى أنهكت الغور ثورة الكهكربة وبلادهم قليلة المياه صعبة المسلك وتقع على قمم الجبال، وامتنعوا عن دفع الخراج إلى حكومة الغور وقطعوا الطريق بين غزته ولاهور. ولم يستطع وإلى الملتان التصدى لهم، ولما زاد خطر الكهكرية أرسل شهاب الدين إلى قطب الدين أيبك يأمره بالضرب على أيدى الكهكرية، وإعادتهم إلى الولاء والطاعة، وأرسل أيبك إليهم يدعوهم إلى الطلاعة، وترك التمرد والعصيان، لكن الكهكرية لم يذعنوا لنداء نائب السلطان وبقوا على عصيانهم، وطردوا عمال الغور من بلادهم، وأقبلت الهنود عليهم تؤيدهم فى موقفهم العد ائى من الغور فقوى أمرهم.

لما رأى شهاب الدين عدم استطاعة عماله فى الهند إخضاع الكهكرية وأعوانهم سار بنفسه إلى بلاد الهند لإعادة الأمن والهدوء إليها واشتبكت قوات الغزو مع الكهكرية فى قتال عنيف، هزم أعدائهم، وقتلوا كثيرا منهم، وفر من نجا إلى هناك وأشعلوا نارا وألقوا بأنفسهم فيها قبل أن تأخذهم سيوف المسلمين، وغنم المسلمون منهم ما لا يسمع بمثله، وبذلك عادت إلى الغور هيبتهم فى بلاد الهند وأمنت إمبراطوريتهم فى الهند من حركات التمرد، بل وفد على شهاب الدين بعض رؤساء القبائل الذين انضموا إلى الكهكرية يعلنون ولاءهم وعودتهم إلى الطاعة.

ويجدر بنا أن نناقش أسباب تفوق الغور المسلمين على الهنود، فمن بين هذه الأسباب دقة المسـلمين ومهارتهم فى إدارة العمليات الحـربية، يضاف إلى ذلك أن بلاد الهند كانت تنقصها وحده سياسـية تجمع بينها وتقوى من أمرها إذ كانت الهند دولا مسـتقلة يحكمـها أشخـاص لا يرتبطون مع بعضهم البـعض برباط يمكن أن يؤدى دورة فى الدفاع عن الوطن فى حالة تعرضه للغزو.

حقيقة أن الأمراء الراجبوتيين كانوا مـحاربين أكفاء لكنهم لم يخضعوا لأمير يوحد شملهم فى مواجهة العدو المشترك، ولما واجهوا الغور، لم يستطيعوا الصمود كثـيرا أمام هجمـاتهم نظرا لأن الترك كـانوا فى مستوى أعلـى منهم فى التدريب والتنظيم والتطور الحـربى، والهنادكـة لم يكن عندهم الاسـتعـداد الكافى لمسـايرة أحدث التطورات فى التنظيمـات العسكرية والأساليب الحربية، وأخـيرا فإن الدين الإسلامى قـد أعطى الغور حمـاسا وقوة للجهـاد فى سبيل الله، ولقـد وحد بين المسلمين وجمع شملهم روح الأخوة والمسـاواة التى بثها الإسلام فى قلوب أبنائه. أما الهنادكة فالنظام الطبقى السائد بينهم والذى بمقتضاه، انقسم الناس إلى منبوذين وإشراف عرقل وقوفهم صفا واحدا فى وجه غزاتهم.

والخلاصة أن سلاطين الغور، نجحوا فى إقامة دولة إسلامية فى شمال الهند ومهدت سياستهم فى هذه البلاد إلى قيام إمبراطورية لها تقاليدها ومقوماتها، ذلك أنهم أسندوا إدارة دولتهم فى الهند إلى رجال أكفاء أحسنوا توجيههم، فعملوا على تثبـيت الحكم الإسلامى فى هذه البلاد، ولقـد حرص خلفاء شـهاب الدين - من مماليك الترك - على إتباع التقاليد التى وضعها سيدهم فى حكم الهند لذلك يمكن القول بأن شـهاب الدين الغـورى ليس للهند فقط، بل يعـتبـر بحق واضع أساس إمبراطورية المسلمين فى الهند.

ضعف مملكة الغور وانهيارها

سار السلطان غياث الدين محمد فى دولته سيرة حسنة فقد شيد بها المساجد والمدارس، وكان ينسخ المصاحف بخطه، ويودعها فى مكتبات المدارس التى أسسها، وخفف عن الناس عبء الضرائب، ولم يتعرض لمال أحد بسوء، وإذا مات رجل فى غير بلدة، سلم ماله إلى أحد التجار من أهل بلده، فإن لم يجد أحدا يسلمه إلى القاضى، ويختم عليه إلى أن يصل إليه من يأخذه من ورثته وكان يخلع على الفقهاء والأدباء والشعراء، وينفق على الفقراء، يضاف إلى ذلك حرصه على وحدة العقيدة، إذ كان يكره التعصب لمذهب معين، ويقول: التعصب فى المذاهب من الملك قبيح.

كذلك كان شهاب الدين محمد عادلا حسن السيرة فى رعيته وبلغ من اهتمامه بسير العدالة أن القاضى بغزنة يحضر داره فى بعض أيام الأسبوع، ويحضر معه أمير حاجب وأمير دار وصاحب بيت المال، فيحكم القاضى، وموظفو السلطان ينفذون أحكامه على الصغير والكبير والشريف والوضيع، وإن طلب أحد الخصوم الحضور عنده أحضره، واستمع إلى أقواله وأمضى عليه أو له حكم الشرع. لذا سارت الأمور فى مملكة الغور على أحسن نظام، بعد أن ساد العدل البلاد.

على أن دولة الغور اضطربت اضطرابا شديدا بعد وفاة السلطان شهاب الدين محمد، فقد تنافس الأمراء والقواد حول عرش السلطنة، وحدثت حروب انتهكت قوى الدولة الغورية حتى زالت فى النهاية.

فلما توفى شهاب الدين تنافس حول السلطنة غياث الدين محمود نجل السلطان غياث الدين محمد، يساعده تاج الدين يلدز - من أقوى قواد الغور - وابنا بهاء الدين الغورى - صاحب باميان - علاء الدين وجلال الدين، ودخل الأخوان غزنة فعلا وانتزعا قلعتها، وفرقا الأموال على الجند والأعيان، فدانت

لهما غزنة بالولاء والطاعة منتهزين فرصة تغيب غياث الدين محمود فى خراسان، على أن غـزنة لم تصف لعـلاء الدين وجلال الديـن، ذلك أن تاج الدين يلدز لم يلبث أن دخلها ونهب جنده المدينة، واستولى يلدز عـلى القلعة، وأخرج الأميرين الغوريين منها ومن غزنة كذلك، وكان يلدز قد عظم أمره بعد أن استولى على كل ما فى معسكر سيده شهاب الدين من مال وسلاح وجند.

على أن يلدز لم يكن يعمل باسم غياث الدين محـمود كما كان يدعى، بل كان يعمـد إلى انتزاع الحكم لنفسه، فلـما استوثق له أمر غـزنة، لم يأمر الخطيب بالخطبة لغيـاث الدين محمود وإنما يخطب للخليفة، ويتـرجم على شهاب الدين، وفرق الأموال فى الناس، فطابت نفوسهم.

أما غياث الدين محمود بن غياث الدين محمد فقد تربع على عرش الملك، وخطب لنفسـه بالسلطة، وتلقب بألقاب أبيه غيـاث الدين محمد فى فـيروزكوه، وفرح أهل البلد به، ونكل بأعـدائه ومعارضـيه، وسلك طريقه أبيه فى الإحـسان والعدل، إلا انه لم يسـتطع استرداد بلاد خـراسان التى انتزعـها الخوارزمـيون من مملكته.

على أن أمر يلدز قد سـاء، ذلك أن قطب الدين أيبك - نائب سلطان الغور فى الهند - أرسل إلى يلدز يهـدده بالحـرب، إن لم يعد إلى طاعـة غيـاث الدين محمود، ويقـيم له الخطبة، كما أن أحد قواد يلدز، واسمه " أيدكـز التتر " ساءه موقف يلدز، فخرج على صاحبه، واستولى على غزته وأموالها، وأقام الخطبة فيها لغياث الدين محمود، وأرسل غياث الدين محمود إليه يلقبه " ملك الأمراء " ورد عليه المال الذى كان أخذه من الخزانة، وقال له " أمـا مال الخزانة فقد أعدناه إليك لتخرجه، وأمـا أموال التجار وأهل البلد، فقد أرسلته مع رسـول ليعيده إلى أربابه حتى لا يحـدث ظلم فى دولتنا، وقد عـوضتك عنه ضـعفـه. وأرسل أموال أهل غزته إلى قـاضيها، وأمـره بردها إلى أصحابها، وسـار غياث الدين محـمود إلى

"بست "، واستردها من يلدز وأحسن إلى أهلها، وأعفاهم من خراج سنة لما نالهم من الضر والأذى على أيدى هذا القائد.

أضعفت هذه الانقسامات من شأن دولة الغور، حتى أن السلطان خوارزمشاه، انتزع ما تبقى فى خراسان بل طمع فى الاستيلاء على البقية الباقية من ممتلكات الغور فى أفغانستان، فأمر - أمير ملك - عاملة على مراة بقصد غياث الدين محمود - صاحب الغور وفيروزكوه فسار أمير ملك - القائد الخوارزمى إلى فيروزكوه - عاصمه مملكة الغور - ولما رأى غياث الدين محمود - سلطان الغور - أن لا قبل له بالجند الخوارزمى طلب منه الآمان، فأمنه القائد الخوارزمى، ونزل سلطان الغور غليه من القلعة، ولكن القائد الخوارزمى نكث بالعهد وقبض على السلطان الغورى وقتله، وضم بلاد الغور إلى دولته الخوارزميه سنة ٦٠٥ هـ.

ولم يلبث علاء الدين محمد - السلطان الخوارزمى - أن استولى على كافة أرجاء خراسان، وانتزع " باميان " من الأميرين الغوريين علاء الدين وجلال الدين، واستناب يلدز عنه فى حكم غزنة، فأقام الخطبة له فيها، ونقش اسمه على السكة غير أن خوارزم شاه لم يطمئن إلى يلدز وأعوانه، فسار بنفسه إلى غزته سنة ٦١٢ هـ، وقتل من بها من جند الغور ولا سيما الأتراك، وهرب يلدز إلى لاهور حيث اغتاله بعض رجال شهاب الدين الغورى.

وبذلك زالت الدولة الغورية على أيدى الخوارزميين والهنادكة. ويذكر ابن الأثير أن دولتهم كانت من أحسن الدول سيرة، وأعدلها وأكثرها جهادا.

١ - سلطنة دهلى الإسلامية فى عهد الملوك المماليك

شهد العالم الإسلامى فى تاريخه حكاما من الترك كانوا أرقاء عند سادتهم السلاطين بالجندية، وتدرجوا فى سلكها حتى بلغوا مناصب رئيسية، وقد يحدث فى حالة وفاة السلطان وتركه ذرية ضعافا، أو عدم وجود وارث يخلفه أن يقوم هذا التركى - الذى كان عبدا للسلطان المتوفى - بانتزاع السلطنة لنفسه، فسبكتكين كان مملوكا لألبتكين، ولما توفى سيده دون أن يترك من يرثه مكن سبكتكين لنفسه، وانفرد يحكم دولة سيدة، ووضع أساس إمبراطورية الغزنويين فى جنوب غرب آسيا، وظل أعقابه يتوارثون حكم الدولة الغزنوية حوالى قرنين من الزمان، وعماد الدين زنكى أقام دولة فى الموصل على أنقاض دولة سادته السلاجقة، وقد كان أتابكا لهم. والمماليك فى مصر أقاموا دولتهم بعد أن ضعف ساداتهم سلاطين بنى أيوب. وهذا ما حدث بالنسبة لموضوع بحثنا، إذ أقام المماليك دولة فى الهند بعد أن زالت دولة الغور، وظلت تحكم أربعة وثمانين عامل (١٢٠٦ - ١٢٩٠) ويذكر " لين بول " فى هذا الصدد أن الجندى الكفء من أرقاء الترك كان يستطيع أن يصل إلى أعلى الدرجات وأرفعهما بما فى ذلك منصب السلطنة. أما عامة الناس من الزراع والصناع والتجار، فكانت أوضاعهم محمدة لا تتغير ولا تتبدل، ويتعاقب عليهم الحكام من مختلف الأجناس، ويقفون منهم موقف المتفرج، وما عليهم إلا الطاعة والولاء للحاكم سواء كان إيرانيا أو هنديا راجيوتيا. أو تركيا أو أفغانيا أو مغوليا، ويسيرون حيث تسير بهم الحياة، كيفما أراد حكامهم الذين يبهونهم الحياة أو ينتزعون حقوقهم فيها.

وسلاطين إمبراطورية المماليك فى الهند كانوا أرقاء من أجناس مختلفة، وصلوا إلى ما وصلوا إليه بفضل ما اتصفوا به من أجناس مختلفة، وصلوا إلى ما وصلوا إليه بفضل ما اتصفوا به من شجاعة وبسالة وكفاءة، وكان شأنهم شأن مماليك مصر يحرصون على تخليد أسمائهم بإقامة المنشآت الكبيرة مثل المساجد الفخمة والعمائر الرائعة.

وقطب الدين أيبك - أول سلاطين المماليك فى الهند - كان مملوكا عند سيده شهاب الدين - سلطان دولة الغور الأفغانية - (٥٩٩هـ - ٦٠٢ هـ) وهو تركستانى الأصل، اشتراه قاضى نيسابور، وأدبه وأحسن تأديبه، وعلمه علوم الدين وأساليب الفروسية، ولما توفى هذا القاضى حمله أحد تجار الرقيق على غزنة حيث اشتراه شهاب الدين الغورى، ولمس فيه الشجاعة والذكاء وحسن الخلق، وعهد إليه بالعمل فى الجيش كجندى، وتجلت شجاعته وبراعته الحربية فى معركة تارين سنة ٥٨٨هـ / ١١٩٥ م، وهى المعركة التى كانت بين السلطان الغور من ناحية، والأمراء الراجيوتيين من ناحية أخرى - وكافأ شهاب الدين مملوكه بأن جعله نائبا له على ممتلكات الغور فى الهند، فأقام فى دهلى وجعلها قاعدة لحكمه فى بلاد الهند بدلا من لاهور.

لم يأل قطب الدين أيبك جهدا فى سبيل المحافظة على دولة الغور فى بلاد الهند بل عمل على ضم المزيد من أراضى الهند إلى دولة الغور، ففى سنة ٥٩٣هـ / ٣٠٠م استولى أيبك على كواليار ونهروالة، وضم كالنجار إلى حوزته، وكذلك امتلك بلاد " البغال " وأوقف كل محاولة بذلها الهنادكة لتحرير بلادهم من قبضة الغور.

وبقى أيبك على ولائه لدولة الغور حتى فى أشد حالات ضعفها، فلما ولى غياث الدين محمود سلطنة الغور سنة ٦٠٢هـ / ٢٠٦م لم يكن هناك إجماع على توليته، فخرج عليه بعض مماليكه، وعملوا على الاستئثار بالسلطة والنفوذ دونه، ومن بين هؤلاء المماليك " تاج الدين يلدز " الذى سيطرب على غزنة، وأقام الخطبة فيها لنفسه، وخلع طاعة سلطان الغور، بينما بقى قطب الدين أيبك يدير الممتلكات الإسلامية فى الهند باسم سلطان الغور ويقيم الخطبة باسم غياث الدين محمود، وضبط الأمور فى الهند وضرب بيد من حديد على المفسدين، وعارض بشدة الحركات المناهضة للحكم الغورى، فأرسل إلى ديلذر يقبح فعله، ويأمره بإقامة الخطبة للسلطان الغورى، وهدده بالمسيرة إليه ومحاربته، إن لم يعد إلى

الولاء والطاعة، ولما لم يستجب تاج الدين يلدز قام أيبك بالعمل على ضم غزنة إلى مملكة الغور، وطرد يلدز منها.

على أن يلدز لم يركن إلى الهزيمة بل انتهز فرصة سقوط الدولة الغورية على أيدى الخوارزميين، وسيطر على غزنة وحكمها باسم علاء الدين محمد خوارزم شاه لكنه لم يلبث أن غادر غزنة خوفا من أن يبطش به السلطان الخوارزمى الذى شك فى إخلاصه، وتوجه إلى البنجاب، وانتزعها من نائب قطب الدين أيبك، فسار أيبك إليه، ومازال يطارده حتى غادر الهند. وبذلك أنفرد أيبك بحكم الإقليم الإسلامى فى الهند، وأعلن نفسه سلطانا فى لاهور، وأقيمت الخطبة له فى بلاد الهند الإسلامية، ونقش اسمه على السكة، واتخذ من دهلى قاعدة لدولته.

على أن قطب الدين أيبك لم يلبث أن عفا عن تاج الدين يلدز كما أحسن إلى غيره من مماليك شهاب الدين مثل ألتمش وقباجة وارتبط بهم بعلاقات مصاهرة، فزوج أخته إلى قباجة، وابنته إلى ألتمش، وتزوج من أخت تاج الدين يلدز، وكفل بسياسته هذه ضمان تأييد هؤلاء القادة لحكمه، وعدم التصدى له.

ويعتبر قطب الدين أيبك أول سلطان مسلم استقل بحكم دولة المسلمين فى الهند وتمكن هذا السلطان بفضل قوته وشجاعته وكفاءته الإدارية من بسط سيطرته على شمال الهند على مدى العشرين عاما التى حكمها، وضبط الأمور فى دولته وسايس الهنادكة أحسن سياسة، وضرب بيد من حديد على أيدى اللصوص وقطاع الطرق، وأنفق بسخاء على الفقراء والمساكين، وحكم الناس بالعدل وعم السلام ربوع دولته حتى قيل أن الذئب والحمل كانا يشربان من نبع واحد فى عهده، وساوى فى المعاملة بين الهنادكة عظيمهم وحقيرهم، وهذا أمر لم يعتادوه من قبل.

وعنى قطب الدين بالعمارة، ومن أبرز ما خلف مسجده المشهور الذى بدأ تشييده سنة ١١٩١ م، وأكمله ألتمش سنة ١٢٣٠م وما تزال منارة هذا المسجد باقية إلى يومنا هذا، وتسمى منارة قطب الدين، ويبلغ ارتفاعها ٢٥٠ قدما، وعلى

واجهة أحد أبواب المسجد كتب باللغة العربية بحروف بارزة من الحجر " بسم الله الرحمن الرحيم والله يدعوا إلى دار السلام. . . " ثم كتب تحت ذلك " جرت هذه العمارة بأمر. . . " وبجانب المسجد أسس مدرسة كبيرة. أما المنار فكانت مكونة من سبع طبقات، لكن الموجود منها الآن خمسة فقط أسس أيبك الطبقة الأولى، وأقام ألتمش الطبقتين الثانية والثالثة، وأتم خلفاؤه الباقى، وفى كل طابق نقش على جدرانه آيات قرآنية، وبعض المراسم السلطانية.

توفى قطب الدين أيبك سنة ١٢١٠ م، وخلفه فى الحكم (ابنه آرام شاه) وكان شابا صغيرا لا يستطيع القيام بعبء الملك، لذا عجز عن إدارة على هون الدولة، فاستدعى رجال الدولة ألتمش - وكان يلى حكم أحد الأقاليم الهندية، وذكرنا سابقا أنه كان من مماليك شهاب الدين أيبك - وطلبوا منه أن يلى السلطنة، فقدم إلى دهلى، وطرد آرام شاه منها، وتربع على عرش السلطة سنة ١٢١١ م.

يعتبر شمس الدين ألتمش المؤسس الحقيقى لدولة المماليك فى الهند، وأصله مملوك ابتاعه قطب الدين أيبك من غزنة وحمله معه إلى الهند، ولمس فيه نبل الأخلاق والفضيلة والذكاء والشجاعة، فجعله رئيسا لحرسه، ثم أسند إليه حكم بعض ولايات الهند، وكما كان أيبك لشهاب الدين الغورى، فقد كان ألتمش لأيبك.

بعد أن ولى شمس الدين ألتمش سلطنة دهلى، تعرض لمشاكل داخلية تستهدف التخلص منه، ذلك أن بعض كبار رجال الدولة طمع فى الوصول إلى الحكم منتهزين فرصة الفوضى التى أعقبت وفاة أيبك، فاستولى قباجة على الملتان والسند، وتنازع مع تاج الدين حول السيادة على لاهور، ما أن خلفاء بختيار الخلجى سيطروا على بهار والبنغال. يضاف إلى ذلك أن قواد قطب الدين أيبك لم يرضوا عن تولية ألتمش، وانتهز الأمراء الهنادكة فرصة هذه الاضطرابات والقلاقل، وانشغال السلطان فى قمعها وتحركوا لنيل استقلالهم.

لم يقف شمس الدين ألتمش مكتوف اليدين إزاء موقف قطب الدين أيبك

والتـرك المناهض له ولحكمه، والذين لم يرضـوا أن ينصب عليـهم سلطان هو فى الواقع مملوك لمملوك بل عول على إخضاعهم واشتبك معهم فى معركة بالقرب من دهلى هزمهم فيهـا شر هزيمة، وأجبرهم على الدخول فى طاعـته وكان من أقوى الرجال الذين تصدوا لحكم ألتمش تاج الدين يلدز سيطر على غزنة بعد انهيار دولة الغـور وبسط نفوذه علـى البلاد المجـاورة لغزنة حـتى أقـترب من خـوارزم وشن حـملات ناجـحـة على أطراف الهند. وعلى الرغم من أنه أقـام الخطبـة للسلطان الخوارزمى فى غزنة، إلا أن السلطان لم يطمئن إلى ولاء يلدز له، وسار إلى غزنة سنة ٦١٣هـ / ١٢١٧م لانتزاعها من يلدز، وطرد الأتراك منها، فولى يلدز الأدبار إلى بلاد الهند، والتقى بناصر الدين قبـاجة - والى لاهور والملتان وديبل، وغيرها من قبل ألتمش - فى مـعركة عنيفة هزم فـيها قباجـة، واستولى على لاهور، ثم زحف إلى مدينة دهلى لانتزاعها من ألتمش فتصدى له السلطان الهندى فى معركة عنيفة على الطريق إلى دهلى، وهزمه وقتله فى نارين سنة ١٢١٦ م.

لم يكد يستقر الأمر لألتمش حـتى تعرض لخطر جديد من قبل المغول الذين بدءوا يشنون حملاتـهم العنيفة على الدولة الخوارزميـة، واستولوا على أقاليـمها، وألحقوا ببلدانها الخراب والدمار، ولما توفـى السلطان الخوارزمى علاء الدين محمد خلفه ابنه جلال الدين منكبرتى، وعـول على استرداد ملك آبائه وأجداده من براثن المغول المعتـدين، فصار إلى خوارزم، لكنـه علم أن المغول قد استولـوا عليها. . . لذلك اتجه إلى خـراسان، وتنقل بين بعض مدنها. ولم يلبث أن غـادرها حتى لا يصطدم بالقوات المغـولية المرابطة فى خراسان فى وقت لم يكن هو فـيه على أهبة الاستعـداد لمهاجمة عدوه، فولى وجـهه شطر غزنة - وكان يحكمهـا من قبل أبيه قبل أن يحـتلها المغول - ورحب أهل غـزنة بمقدمه ورأوا فـيه خيـر منقذ لهم من ويلات المغول وغيرهم، والتفوا حوله، ولما سـمع الجند الخوارزمى المبعثر بين كابل وبشاور وغـيرها من المدن الواقعة على حـدود الهند بمقدمة، سارعـوا إليه ودخلوا تحت لوائه، وبذلك كثر جمعه، وأصبح جيشه يضم ستين ألفا من المشاه، وسبعين

ألفا من الخيالة، وواتته الفرصة للعمل على تحقيق هدفه الرامى إلى استعادة دولة أبيه التى انتزعها المغول، فسار على رأس جيشه إلى السهول المحيطة ببروان Par-wan فى الشمال الشرقى من غزنة، واشتبك مع المغول فى قتال استمر ثلاثة أيام، أحرز فيه على أعدائه انتصارا رائعا، وقتل المسلمون من المغول كثيرين وشجع انتصار جلال الدين، البلاد الإسلامية على الوقوف فى وجه المغول، فثار أهل هراة على والى المغول وقتلوه وأعلنوا ولاءهم لجلال الدين منكبرتى.

لما علم جنكيز خان بانتصارات السلطان الخوارزمى على جنده. وانضمام البلدان الإسلامية إليه، أعد جيشا كبيرا للقضاء على جلال الدين منكبرتى وجنده، وسار على رأس جيشه إلى كابل. والتقى جند المغول بالجيش الخوارزمى فى معركة ضاربة، دارت فيها الدائرة على المغول للمرة الثانية، وغنم المسلمون ما معهم، وفكوا أسر الأسرى، لكن الأمور ما لبثت أن تحولت إلى صالح المغول رغم هزيمتهم، ذلك أن خلافا حدث بين بعض قادة جلال الدين منكبرتى، فارق على أثره القائد التركى بغراق جيش السلطان الخوارزمى واتجه إلى الهند، وتبعه من الجند ثلاثون ألفا كل يريدونه، وحاول منكبرتى أن يثنيه عن عزمه، وألح عليه، بل بكى بين يديه، وخوفه من الله إذا تقاعس عن الجهاد فى سبيله، لكن هذه المحاولة لم تجد مع القائد التركى فتيلا، فقد أصر على الانسحاب الأمر الذى أضعف الجيش الخوارزمى، وأصبح عاجزا عن الوقوف فى وجه المغول.

كل ذلك حدث بينما جنكيز خان يتجه بجحافة إلى الناحية التى يعسكر فيها جلال الدين وجنده، لذلك لم ير السلطان الخوارزمى بدأ من الانسحاب والمسير إلى الهند، ولما بلغ السند، لم يجد من السفن ما يكفى لعبوره هو وقواته. وفى غضون ذلك أدركه جيش المغول ودار قتال عنيف بين الفريقين أبلى فيه المسلمون بلاء حسنا، فلما رأى المسلمون عدم استطاعتهم قتال المغول لقلة عددهم، ونقصان عتادهم، دبروا أمر العبور إلى الهند، بينما عاد المغول إلى غزنة وامتلكوها، وأبدى جلال الدين من ضروب الشجاعة والبسالة مالا مزيد عليه فى العبور حتى أنه بلغ الشاطئ الشرقى ومعه أربعة آلاف جندى كانوا حفاة عراة.

على أن جلال الدين منكبرتى لم يجد استجابة وقبولا من دولة المماليك فى الهند فقد توجس ألتمش ورجال دولته خيفة من الخوارزميين. لذلك اصطدم جلال الدين بجد ألتمش فى السنوات الثلاث التى قضاها فى الهند، وبدأ هذا الصدام مع قباجة - حاكم السند الذى حاول منعه من الإقامة فى السند خوفا من أن يتعقبه المغول، ويطيحون به وبولايته، لكن جلال الدين أوقع به الهزيمة، وأحبط محاولته، ولما علم جلال الدين أن المغول يعتزمون القدوم على الهند لدحره والقضاء عليه سار إلى دهلى، وأرسل إلى ألتمش يطلب منه أن يمنحه هو وجنده حق الإقامة فى دهلى، لكن السلطان المملوكى اعتذر إليه بحجة أن حرارة الجو فى دهلى لا تناسب الخوارزميين، ذلك أن سلطان دهلى خشى أن ينضم الجند الترك فى دولته إلى سلطان الخوارزميين. وطلب منه الانسحاب من دولته، وحدثت معركة بين الجيش الخوارزمى وجيش ألتمش بالقرب من دلهى، وانسحب على أثرها جلال الدين إلى لاهور، وكثر جمع جلال الدين بما وفد إليه من جند أخيه غياث الدين - حاكم العراق - كذلك انضمت إليه قبائل الكهكوية الناقمين على قباحة - حاكم السند - فازدادت قوته، وانتزع من والى السند بعض البلدان.

لم يكن جلال الدين يهدف من التجائه إلى الهند اتخاذها مستقرا ومقاما، لكنه كان يهدف إلى تجنب الاشتباك مع المغول حتى يستعيد قوته، ثم يستأنف الحرب ضدهم. وواته الفرصة لشن الحرب من جديد على المغول، فقد توفى جنكيز خان، وعقب وفاته انسحاب القوات المغولية الرئيسية التى تحتل أقاليم الدولة الخوارزمية إلى مواطنها الأصلية فعبر نهر السند سنة ٦٢٢هـ / ١٢٢٥م وقصد إيران وظل يقاتل المغول حتى ضعفت ووهنت قوته وفر من أمامهم، وظلوا يتعقبونه حتى قتل فى كردستان سنة ٦٢٨هـ / ١٢٣١ م.

لما غادر جلال الدين منكبرتى الهند أمن السلطان ألمتش على دولته من الخطر الخوارزمى، وما قد يسفر عنه من هجوم المغول على بلاده، لكنه لم يكد يتنفس الصعداء من جراء هذه الأزمة حتى واجه أمورا داخلية تمس وحدة دولته ومن أبرز

هذه الأمور خروج غياث الدين الخلجي - والى البنغال من قبله - عليه وأعلن استقلاله عن دهلي، وأقام الخطبة باسمه، ونقش اسمه على السكه، وتلقب بألقاب الملوك، وقوى أمره حتى امتد نفوذه على جاينكر وكمروب وترهوت وجور إلى الشرق من دهلي.

عون السلطان ألتمش على سحق محاولة الخلجي الاستقلالية عن دولته، وسار على رأس جيش قوى إلى البنغال، ولما رأى الأمير الخلجي عدم استطاعته الوقوف في وجه سلطان دهلي أعلن عودته إلى الولاء والطاعة له، وتعهد بدفع الجزية المقررة عليه، إلا أنه لم يكن صادقا في تعهده، بل كان يزعم انتظار فرصة أخرى تتيح له العودة إلى الاستقلال بولايته، فلما ابتعد السلطان ألتمش عن البنغال، عاد وأعلن الاستقلال وسار إلى بهار واستولى عليها، غير أنه لم يهنأ بهذا الاستقلال طويلا، إذ سار إليه " ناصر محمد شاه " - وإلى " أوده " Oudh من قبل أبيه السلطان ألتمش وهاجم البنغال، وأوقع الهزيمة بالخلجي وأنصاره، وأعاد سيطرة دهلي على إقليم البنغال.

على أن الأمور لم تستتب فى إمبراطورية الهند الإسلامية بعد عودة البنغال إلى سيطرة الحكومة المركزية فى دهلي، ذلك أن قائدا آخر انتقض على السلطان دهلي، وهو ناصر الدين قباجة، وكان ألتمش قد طرده من لاهور بعد أن حاول الاستقلال بها على دهلي، فبسط سيطرته على بعض بلدان السند، لكن جلال الدين منكبرتى اشتبك معه، وانتزع منه أوكا والملتان، ولما انسحب السلطان الخوارزمى من الهند عاد قباجة وسيطر على هذه البلاد، وحكمها مستقلا عن سلطان دهلي، فسار إليه شمس الدين ألتمش، بينما اتجه وإليه على لاهور لنجدته وهزمه بالقرب من بهكر Bhakkar، وظل يتبعه، حتى سقط فى نهر السند وغرق وهو يحاول عبوره فرارا من خصمه. بشاور التقى بجيش جيبال البذى يتكون من أثنى عشر ألفا من المشاة معها ثلاثمائة من الفيلة فنشب القتال بين الفريقين، هزم الهنود وقتل منهم كثيرون، وأسر جيبال ومعه جماعة من أهله وعشيرته، وغنم

المسلمون مغانم كثيرة، واستولوا على عدد من البلدان. ولما وضعت هذه الحرب أوزارها، وحطت على الظهور أثقالها، وافق السلطان محمود على إطلاق سراح جيبال بعد أن افتدى نفسه بمال كثير وعدد كبير من فيلة الحرب، ولم يستطع الأمير الهندوكي بعد أن أطلق سراحه أن يبقى على قيد الحياة بعد أن لحقه الذل والعار، فألقى بنفسه فى النار فاحترق فى شوال سنة ٣٩٢هـ / ١٠٠١ م.

ثم سار السلطان محمود نحو الهند وانتصر على أهلها ثم قصد الملتان وهو مركز مشهور للحجاج الهنود، وقد وصف الأصطخرى صنم البراهمة فى الملتان فقال: إن أهل الهند يعظمون هذا الصنم ويحجون إليه من أقاصى بلدان الهند، ويتقربون إلى الصنم فى كل سنة بمال عظيم ينفق على بلد الصنم والمتعلقين به، وصورته على خلقة الإنسان متربع على كرسة من جص وآجر، والصنم قد ألبس جميع بدنه جلدا، لا يتبين من جثته إلا عيناه، فمنهم من يزعم أن جسده خشب، ومنهم من يزعم أنه من غير الخشب إلا أنه لا يترك بدنه ينكشف، وعيناه جوهرتان، وعلى رأسه إكليل ذهب، متربع على ذلك الكرسى، قد جعل ذراعية على ركبتيه، وقد قبض أصابع كل يديه كأنما يحسب أربعة.

لما قصد السلطان محمود الملتان، غزا " بهاطية " - جنوب بلاد البنجاب - وصاحبها يسمى " بحيزا " - وهى مدينة حصينة عالية السور، يحيط بها خندق عظيم فامتنع صاحبها بها، ولما شدد المسلمون عليه الحصار، وأرك ضعفه ووهنه أمام القوات الغزنوية أخذ جماعة ثقاته واعتصم بالجبال المجاورة، فسير إليه السلطان الغزنوى فرقة من جيشه باغتته على غرة وأنزلت به الهزيمة، ودخلت بهاطبة فى حوزة محمود بن سبتكتين، وأقام بها حتى أصلح أمورها ورتب قواعدها، ودعا أهلها إلى الإسلام واستخلص بها من يعلم من أسلم من أهلتها تعاليم الدين الحنيف.

وفى العام التالى قصد السلطان محمود مدينة الملتان نفسها وانتصر وهو فى طريقه إليها على أنديال بن جيبال الذى رفض مرور القوات الإسلامية من بلاده ووصلت القوات الغزنوية الملتان واستولت عليها ولاذ صاحبها بالفرار.

اتجه السلطان محمود بعد ذلك إلى قلعة كواكير فاستولى عليها وأحرق أصنامها. وأعتصم وتحصن صاحبها فى قلعة منيعة فحاصره السلطان الغزنوى، وضيق عليه الحصار وما لبث أن صالحه وعاد إلى خراسان لإنقاذها من غارات الترك وعهد إلى نواسه شاه حفيد جيبال الذى أعتنق الإسلام ودخل فى طاعة السلطان الغزنوى بأن ينوب عنه فى حكم بلاد الهند الغزنوية، لكن نواسه ضاه لم يكن مخلصا لغزنة، وانتهز فرصة ابتعاد محمود بن سبكتكين عن بلاد الهند، وارتد عن الإسلام، ومالأ أهل الكفر والطغيان، فلما علم محمود بذلك أسرع إلى بلاد الهند، ففر نواسه شاه من بين يديه، واستعاد السلطان محمود تلك الولاية، وأعادها إلى الإسلام، واستخلف عليها رجلا من ثقاته.

لما رأى أمراء الهند انتصارات السلطان محمود الغزنوى فلا بلادهم وتهديده لاستقلالهم عقدوا العزم على الاتحاد والوقوف يدا واحدة أمام الخطر الغزنوى الزاحف على بلادهم، لذلك حشدوا جيوشهم بأرض البنجاب فى حماس بالغ، واشتبكوا مع القوات الغزنوية بقيادة السلطان محمود الذى حمل عليهم حملة لم يستطيعوا الصمود إزاءها، ففر أمراؤهم، ولم يستطع جنودهم الثبات أمام ضربات الغزنويين القوية، فلاذ من نجا بالفرار، واستولى السلطان محمود على عتاد وذخائر وكنوز الجيوش الهندية، ولم يكتف بذلك، بل أرسل بعض قواته فى أثر فلول العدو المهزومة فلحقت بإبرهمن بال أنديال فى قلعة بهيم - وهى جبل عال - وكان الهنود جعلوها مخزنا لصنمهم الأعظم، ينقلون إليها أنواع الذخائر، ونفيس الجواهر منذ سنين طوال، تقربا إلى هذا الصنم، فحاصر القلعة الجند الغزنوى، وضيقوا على من بها الحصار حتى وهنوا واستسلموا وفتحوا باب الحصن، وملك المسلمون القلعة، وحصلوا منها من نفيس الجواهر ما لا يحد ومن الدراهم تسعين ألف ألف درهم، ومن الأوانى الذهبية والفضية العلية الكثير، وكان ذلك سنة ٣٩٨هـ / ١٠٠٧ م.

وفى سنة ٤٠٠هـ / ١٠٠٩م قام السلطان محمود بغزوة أخرى إلى بلاد الهند فهاجم تارين، واستولى عليها، وحكم أصنامها، ولما رأى صاحب تارين عدم استطاعته الوقوف فى وجه السلطان محمود عرض عليه الدخول فى طاعته وإرسال عدد من الفيلة ومال عظيم وألف رجل من عسكره إليه كل عام. فأجابه السلطان محمود إلى طلبه " وتتابعت القوافل بين ديار خراسان وبلاد الهند فى ضمان الأمان وجوار الحيطة والإحسان " .

بلغت فتوحات السلطان محمود فى بلاد حدا لم تبلغه رايات الإسلام المنصورة قبلا، ودخل فى دين الله أفواج عديدة من أهل الهند، ومع ذلك لم يتوقف السلطان محمود الغزنوى عن سياسته فى مواصلة ضم المزيد من البلاد الهندية فسار على رأس جيش كبير على ناردين، فسقط فى يد صاحبها، لذلك أوى هو وجنده إلى جبل عال صعب المرتقى ضيق المسلك، لعله من بأس الجند الغزنوى وكتب إلى قومه يدعوهم إلى الوقوف إلى جانبه، فكثر جمعه، وعظمت قوته ودخل مع المسلمين فى معركة دارت فيها الدائرة عليه، وقتل من جنده كثير، وغنم المسلمون أموالهم ودوابهم، وفتح المسلمون ناردين فتحا طرزوا به شعائر الإسلام، ووجدوا فى بيت كبير صنما قيل: أنه بنى منذ أربعين ألف سنة دمره السلطان محمود.

حرص السلطان محمود على الوقوف فى وجه أمراء البلدان الهندية الذى يحاولون النيل من سلطانه فيها، ففى سنة ٤٠٥هـ / ١٠١٤م سار السلطان محمود إلى " ثانير " لإخضاع صاحبها الذى تمادى فى الفكر والطغيان والعناد للمسلمين، فلقى فى طريقة أودية وعرة المسالك وقفارا فسيحة قليلة الماء قاسى جنده فى قطعها مشقة بالغة وحمل الجند الغزنوى على أهل ثانير جملة أدت إلى هزيمتهم، وغنم المسلمون ما معهم من أموال وفيلة، وعادوا إلى غزنة ظافرين. وترتب على هذا الانتصار أن دان للمسلمين إقليم البنجاب وأصبح الطريق إلى سهول الهند ممهدا أمامهم.

كان من أثر الانتصارات الرائعة التى أحـرزها السلطان محمود فى بلاد الهند والغنائم التى حصل عليـها جيشه المظفـر، أن كان جنده كثيرا مـا يتركون وراءهم أوانى الفضة لثـقلها أكفاء بما كـانوا يحملون من ذهب كثيـر وجواهر. والمعرف أن أوانى المعابد الهندية، وأكـثر الآنية التى تزخر بها دور الأغنيـاء لم تكن فى الغالب إلا من الذهب الخالص، لذلك قدم على السلطان محمود من المتوعة عشرون ألف مقاتل من بلاد ما وراء النهـر وغيرها من البلاد، فقوى بهم، واعتزم غـزو كشمير المجاورة لممتلكاته الهندية، ولما بلغ بقواته بلاد الهند خشى أمراؤها باسمه، فأرسلوا رسلا إليه يبذلون الطاعـة والولاء له، ولما بلغ مشارف كشمير أتاه صـاحبها وأسلم على يديه، وواصل السلطان الغـزنوى زحفه، وفى طريقه اسـتولى على الولايات الفسيحة والحـصون المنيعة حتى بلغ حصن " هودب " فاستـسلم صاحبه للسلطان محـمود، ودخل هو وقـومه فى الإسلام، وسـار عنه السلطان الغزنوى إلـى قلعة "كلجند "، والطريق إليها غياض ملتفة لا يمكن اجتيازها إلا بشق الأنفس، وكان صاحبها كما يقول العتبى من أعيان الهند وشياطينهم، فسير جيشه إلى أطراف تلك الغيـاض كى يمنع المسلمين من اجـتيازها، ولكن الجـيش الغزنوى أحبط مـحاولة النيل منه، وقـد ألحق بالعدوة خـسارة فـادحة، وعـمد " كليـجند " إلى زوجـته فقتلها، ثم قتل نفسه بعدها، وغنم المسلمون أمواله وملكوا حصونه، وسار محمود إلى بيت الأصنام المشهورة بهذه البلاد به خمـسة أصنام من الذهب الأحمر مرصعة بالجواهر وفيها من الذهب ستمائة ألف وتسعون ألفا وثلاثمائة مثقال فأخذ السلطان الغزنوى كل ذلك وأحرق الباقى.

لم يكتف السلطان محـمود بما حقـقه من انتصارات، إنما واصل سـيره إلى قنوج، فغـادرها راجيـال - صاحبـها - فاسـتولى عليـها محـمود وعلى قلاعـها وأعمالها، ثم سار إلى قلعة البراهمة، ودار قتال بين الغزنويين وبين أهلها، دارت فيـه الدائرة على الهنود، ولم ينج منهم إلا الشريد، ثم اتجـه إلى قلعة " آسى "، ولما لم يستطـع " جندبال " مواجهـة القوات الغزنوية، لاذ بـالفرار، وعلى ذلك

امتلك محمود الغزنوى حصنه، ثم صار إلى قلعة " شروة "، ولم يستطع صاحبها أيضا الثبات أمام القوات الغزنوية، وقتل أكثر جنده، وغنم المسلمون ما معه من أموال وخيل، وعاد محمود بن سبكتكين إلى غزنة ظافرا، وأنفق ما حصل عليه من هذه الغزوة من مال وفير فى تشييد مسجد كبير فى غزنة.

على أن ملوك الهند لم يستسلموا لما لحقهم من هزيمة، وسقوط بلادهم لبلدة تلو الأخرى فى أيدى الغزنويين، بل عولوا على التخلص من نفوذ وسيطرة غزنة، وقد تزعم هذه الحركة الاستقلالية " بيدا " ملك كجوراهة - والتف حوله ملوك الهند، غير أن راجيال فاجأ حلفاءه وخرج عليهم، وعاد إلى الولاء للدولة الغزنوية فباغته ملك كجوراهة وقتله، فازدادت قوته ورأى فيه ملوك الهند خيرمن يقودهم فى معركة تحرير بلادهم من سيطرة الغزنويين، لكن السلطان محمود ابن سبكتكين لم يقف مكتوف اليدين إزاء هذا الخطر الداهم الذى يهدد دولته فى الهند، بل سار سنة ٤٠٩هـ / ١٠١٨م على رأس جيش كبير إلى بلاد الهند، عبر نهر الكنج، والتقى بالقوات المتحالفة. لقد كان لظهور السلطان محمود فى الميدان أثر كبير على أعدائه، فأخذهم الهلع والفزع، ولم تعن عنهم كثرتهم شيئا، إذ انقضت عليهم القوات الغزنوية، وألحقوا بهم الهزيمة، ولما رأى ملوك الهند عدم جدوى التصدى للسلطان الغزنوى، وأرسلوا رسلهم إليه، يبذلون الطاعة والإتاوة، تقل منهم محمود الصلح، وسار فى أثر بيدا، والتقى به فى موقعه كبيرة نصر الله فيها المسلمين على أعدائهم، وغنموا أموالهم وسلاحهم واقتفوا فلول المنهزمين، بواغتوهم فى الغياض والآجام، وأكثروا فيهم القتل والأسر.

تتابعت غزوات وانتصارات السلطان محمود فى بلاد الهند، واتسعت أملاك الدولة الغزنوية فى هذه البلاد، وعظمت هيته فى نفوس أهلها، وتوقفوا عن مقاومة النفوذ الغزنوى، على أن معظم غزوات السلطان محمود حدثت سنة ٤١٦هـ / ١٠٢٥م إذ فتح عدة حصون ومدن واستولى على الصنم المعروف بسومنات، وهو أعظم أصنامهم يحجون إليه كل ليلة خسوف، ويعتقد الهنود أن

الأرواح إذا فارقت الأحياء اجتمعت فيه، فينعليها فيمن يشاء، وكانوا يحملون إليه نفائس الجواهر، ويعطون سدنته المال الوفير، وله وقف يزيد على عشرة آلاف قرية، يفد إليه البراهمة لعبادته، وإقامة الحفلات الدينية على بابه، ويعتقد الهنود أن السلطان محمود فى غزواته كلما حطم صنما، يعتقدون أن سومنات غير راض عنهم ولو أنه راض لأهلك من قصده بسوء، ويعتقدون أن هذا الصنم يحيى ويميت، وأنه إذا شاء أبرأ من جميع العلل، ومن لم يصادف من أهل الهند انتعاشا احتج بالذنب وقال: إنه لم يخلص له الطاعة، ولم يستحق منه الإجابة، ولا يوجد فى بلاد الهند على تباعد أقطارها وتفاوت أديانها ملك ولا سوقة إلا قدم لهذا الصنم ما عز عليه من أموال وذخائر.

لم يهاجم محمود الغزنوى سومنات لتدمير أو الاستيلاء على ما فيه من أموال كما يدعى بعض المؤرخين، ولكن لأن سومنات كان أخطر مراكز المقاومة والعدوان الهندوكى فى وجه الزحف الإسلامى، ومهما يكن من أمر فلقد سار السلطان محمود على رأس جيش كبير سنة ٤١٦هـ / ١٠٢٥م فاقتحم صحراء جرداء قاحلة متوامية الأطراف هى صحراء " الثأر " - أكبر صحروات الهند - فلما اجتاز هذه الصحراء، رأى طرفها حصونا مشحونة بالرجال ففتحها ودمر أصنامها، وحصل منها على الماء والميرة اللازمتين لرجاله، وسار إلى " أنهلوارة " ففر صاحبها منها، واحتمى بحصن له، فاستولى محمود على المدينة وسار إلى سومنات ودمر فى طريقة عددا من الحصون فيها كثير من الأوثان فيما يبدو - حجابا ونقباء لسومنات - حسب اعتقاد الهنود - فقاتل من بها، وفتحها، وحطم أصنامها وسار إلى سومنات، وقضى على كل مقاومة اعترضت طريق الوصول إليه، ولما بلغ حصن سومنات قاتل من به، وأسرعوا إلى صنمهم سومنات ليقانلوا عنه، وفعلا قاتلوا على بابه بعنف وضراوة، وتضرع الهنود إلى صنمهم لعله ينصرهم، وحمل الجند الغزنوبى عليهم حملة أخذت الكثير منهم، وحطم السلطان محمود الصنم سومنات وأحرق بعضه، وأخذ بعضه إلى غزنة، وجعله عبته مسد غزنة الجامع.

غير أن بعض ملوك الهند قد أغضبهم ما حاق بمعبودهم الأكبر فأعدوا العدة لمقاومة السلطان محمود، فخرج صاحب " أنهلوارة " وقصد قلعة " كنزهة " - قرب سومنات - ولما نمى إلى علمه أن السلطان محمود قصده، فر على بلاده، ما قصد السلطان الغزنوى المنصورة وكان صاحبها قد ارتد عن الإسلام، وأعد العدة لمحاربة السلطان محمود - فسار السلطان الغزنوى إلى المنصورة، واشتبك مع صاحبها وهزمه، وأخضعه لنفوذه، ثم سار على بهاطبة، فأطاعه أهلها ودانوا له بالولاء، وعاد إلى غزنة سنة ٤١٧هـ / م.

أعجب محمود بجمال إقليم " جوجرات "، وارتاح إلى مناخه، حتى أنه فكر فى الإقامة فيه، واستخلاف ابنه مسعود على غزنة لولا اعتراض قادته، ومهما يكن من أمر فإنه يمكن اعتبار محمود الغزنوى سلطانا هنديا خالصا، فتح إقليم البنجاب، ونشر الإسلام فى ربوع الهند، وفتح طريقا سلكه بعده كثيرون. وقنع خلفاؤه بعد أن فقدوا أملاكهم فى فارس وأفغانستان بالاستقرار فى إقليم البنجاب ولم تكن غاية محمود من غزواته فى بلاد الهند جمع الأموال - كما يدعى بعض المؤرخين - حقيقة أن محمود غنم الكثير من غنم الكثير من غزواته، لكن هدفه كان أولا وقبل كل عليه نشر الإسلام، وتحطيم الأصنام، بديل أنه رفض ما عرضه عليه الهنادكه من افتداء صنم السومنات بالأموال الطائلة، وقال: إنه يؤثر أن يصفه من يأتى بعده بأنه محطم الأصنام على أن يقولوا عنه بأنه بائع أوثان وعلى ذلك يمكن القول بكل ثقة بأن محمود الغزنوبى كان غازيا مجاهدا، أخذ على عاتقه نشر الإسلام وبلغ فى فتوحه " إلى حيث لم تبلغه فى الإسلام رأيه، ولم تقل به قط سورة ولا آية، فدحض عنها أجناس الشرك وبنى بها مساجد وجوامع، وأقام بدلا من بيوت الأصنام مساجد الإسلام، ومن مشاهد البهتان معاهد التوحيد والإيمان ".

واصل مسعود بن محمود الغزنوى سياسة أبيه فى المحافظة على أملاك الدولة الغزنوية فى بلاد الهند، ضم المزيد من الأراضى الهندية إلى الدولة

الغزنوية، وأقـر أحمد بن ينالـتكين على بلاد الهند الغزنوية، وقـد قام هذا الوالى بالاستيلاء على " منارس " من ولاية الكنج التى لم تبلغها جيوش الإسلام قبلا.

قوى شـأن أحمد بن بنالتكين فى بلاد الهند، وحـدثته نفسـه بالخروج على الدولة الغزنوية، لكن السلطان مسعود تصدى له وتخلص منه.

وعلى الرغم من أن السـلاجقـة كانوا يشـكلون خطرا جسيمـا على الدولة الغزنونية فى فى عهد السلطان مسـعود إلا أن هذا السلطان لم يتقاعس عن مواصلة الفتوح فى بلاد الهند ولم يستمع إلى تحذير رجال دولته بالبقاء فى غزنة حتى يكون قريبـا من السلاجقة، فـسار إلى بلاد الهند سنة ٤٢٩هـ - ١٠٣٧م لتحقـيق حلمه القديم وهو الاستـيلاء على قلعة " هانس " وكانت تسـمى " بالقلعة العذراء "، لأن أحدا لم يستطع فتـحها من قبل. واستولى على هذا الحـصن الهندوكى الكبير ثم زحف إلى " منارس " عند الشمال الغربى من دهلى، فـفر أهلها إلى الغابات المجاورة مما يسر للسلطان مسعود أمر الاستيلاء على هذه البلاد.

على أن جـهود السلطان مـسعـود فى بلاد الهند يسرت لـلسلاجـقة تحقـيق أطماعهم فى إقليم خـراسان، واستولوا على بعض بلدان خـراسان، وتطور الأمر فى الدولة الغزونيـة إلى أسوا من ذلك، فقد هزم السـلاجقة السلطان مسـعود فى داندانقان سنة ٤٣٢هـ - ١٠٤٠ م.

ولما رأى السلطان الغزنوى ضعف قوته، قـرر الرحيل إلى الهند حتى يجمع الجموع ويعود إلى غـزو السلاجقة، واسترداد خـراسان، لكنه قتل فى الطريق إلى الهند، فخلفه ابنه مـودود، وسار على سياسة أبيـه فى المحافظه على أملاك الدولة الغزنوية فى الهند، فتصدى لأخيه مـجدود إلى ولى إقليم البنجاب منذ عهد أبيه، وكـان من أثر ثورة مجـدود أن تشـجع بعض أمـراء الهنادكة وتحـالفـوا، وأعلنوا الاستقـلال عن الدولة الغزنوية، وزحفـوا لاهور، لكن الجند الغزنوى ردهم على أعقابهم، وعادت إلى المسلمين هيبتهم فى شمال شبه القارة الهندية.

ولما ولى السلطان إبراهيم بن مسعود الحكم. أعاد إلى الدولة الغزنوية هيبتها ونظم أمورها، وأقر الأمور فى هندوستان، ولما توفى امتد النفوذ السلجوقى إلى الدولة الغزنوية، فواتت الفرصة الأمراء الهنود لمحاولة الانفصال عن الدولة الغزنوية لكن السلطان بهرام شاة أدحص محاولتهم، وقضى على الفتن التى حدثت فى البنجاب والملتان، ورد عصبة الأمراء الهنادكة عن لاهور، وكانت الآمال قد بعثت فى نفوسهم من جديد لطرد الغزاة من بلادهم، وهكذا استطاع بهرام شاة أن يحافظ على النفوذ الغزنوى فى بلاد الهند، ويثبت أقدام الدولة الغزنوية فيها.

ولما ضعفت الدولة الغزنوية لجأ سلاطينها إلى ولايتهم فى بلاد الهند للاعتصام بها أو الاستغاثة بأهلها لرد الغزاة الطامعين فى غزنة - حاضرة ملكهم - فلما ولى السلطنة " خسرو شاه " لجأ إلى الهند على أثر اقتحام قبائل التركمان لحاضره دولته، كما انتهز الغور فرصة الفوضى التى عمت الدولة الغزنوية المتداعية، فانقضوا على غزنة وأعملوا فيها الخراب والدمار. وقضى آخر ملوك الدولة الغزنوية أيامه الباقية فى لاهور وتفاقم خطر الغور، واشتد ساعدهم فاستعاد زعيمهم غزنة من التركمان، وظلوا يطاردون السلطان الغزنوى فى بلاد الهند حتى قبضوا عليه، وبذلك انتهت الدولة الغزنوية التى يرجع إليها الفضل فى توطيد أقدام المسلمين فى أرض الهند، ونشر الإسلام فى تلك الديار.

والواقع أن حملات الغزنويين فى بلاد الهند واتخاذهم لاهور مقرا لهم يعتبر بدء حكم المسلمين الحقيقى فى هذه البلاد، ذلك أن ملوك الغور الذين ورثوا الدولة الغزنوية تولوا سلطنة دهلى، ونشروا نقود المسلمين فى أرجاء بلاد الهند الشمالية قاطبة.

نتائج الفتوحات الغزونية فى بلاد الهند

لاشك أن الإسلام انتشر بين الهنود نتيجة غزوات سلاطين بنى سبكتكين ودخل الهنود فى الإسلام عن طوع واختيار. وحقيقة ساهم التجار المسلمون بدور كبير قبل أن يعمل الغزنويين فى بلاد الهند على نشر الإسلام، وبنو مساجد فى بعض مدن الهند، كما أن حكومة الملتان الإسلامية كان لها السيادة فى بلاد السند منذ الفتح العربى فى عهد بنى أمية، وكان لها نصيب فى نشر الإسلام فى هذه البلاد. ولكن ينبغى أن نؤكد أن السلاطين الغزنويين وخصوصا محمود بن سبكتكين كان لهم تأثير كبير على الهنادكة حتى أن جموعا غفيرة منهم أقبلوا على الهنادكة حتى أن جموعا غفيرة منهم أقبلوا على اعتناق الإسلام.

انتشر الإسلام فى بلاد الهند نتيجة لانتصارات راياته فيها ففى سنه ٤١٠هـ أحرز السلطان محمود انتصارات رائعة على " هرداتا " - أحد الملوك الهند - فوافق على اعتناق الإسلام. وتقدم إلى السلطان الغزنوى مع عشره آلاف رجل، وأعلنوا رغبتهم فى التحول إلى الإسلام، ونبذ عباده الأصنام، ومما لا شك فيه أن بعض الهنود تركوا عباده الأوثان واعتنقوا الإسلام تقربا لحكامهم الجدد.

ولقى الإسلام ترحيبا كبيرا من الطوائف الفقيرة الذين كان حكامهم الآريون ينبذونهم ويحتكرونهم وينقصون من شأنهم، فأعلى الإسلام - دين المساواة - منزلتهم ورفع من شأنهم.

كذلك انتشر الإسلام بين الهنود عن طريق الفقهاء والوعاظ ودروسهم والعلماء والمتصوفة ورحلاتهم، ومن أبرز وأشهر هؤلاء الشيخ إسماعيل وكان من أهل بخارى، وعرف بثقافته الدينية والدنيوية. وقدم إلى لاهور سنة ٣٩٦هـ - ١٠٠٥م وظل يدعو الناس إلى الإسلام ويعلمهم شرائعه، وقد وفد عليه كثير من أهل الهند للاستماع إلى مواعظه، وسرعان ما هدى الله الكثير من الناس إلى الإسلام على يديه.

ولما كان الغزنويين سنيين متشـددين، فقد اعتنق الهنود الإسلام على المذهب السنى، وحذوا حذو غزاتهم فى تعصبهم وتزمتهم. وكذلك عرف أهل الهند اللغة الفارسية عن الغزنويين، والمعروف أن هذه اللغة نمت وازدهرت فى بلاط سبكتكين فى غزنه، كـذلك وجد المتصـوفون من الفرس والـترك فى بلاد الهند خيـر موئل يلجئـون إليه من بلادهم المضطربة، ولقيت الصـوفية ترحيـبا من أهل الهند الذين يميلون إليها بطبيعـتهم. كذلك اثر الترك فى الهنود، والهنود فى الترك، وأخذ كل منهما عن الأخـر، إذا نقل الترك إلى الهند الثقافـة الفارسية ومظاهر الحيـاة الركية والفارسية، وبهذا انتشرت فى المجتمع الإسلامى بالهند اللغة الفارسية - لغة الثقافة فى ذلك العصر - واللغـة الأوردية التى هيا خليط من الهندية والعربية والفـارسية والتركيـة، ولم تنتشر اللغة وبالتـالى لم تزدهر الثقافة العـربية بالهند ازدهارها فى الأقاليم والدول الإسلامـية الأخرى، وساعد على هذا أن بعض الشـيوخ والعلماء الذين وفدوا على الهند وكانوا من علماء ما وراء النهر، وهؤلاء كانوا أتباع مذهب أبى حنيفة يعتمدون على كتب فقهاء هذا المذهب، كما كانوا شغوفين بعلوم اليونان القديمة والثقافـة الفارسية، وبهذا اصطبغت الثقافة الإسلامـية بالهند بهذه الصفات الثلاث، ولم تقم على أسـاس قوى من الثقافـة العربية، ونشـأ فريق من المولدين يمثل حضارة إسلامـية، مزيجا من الحضارات التركيـة والفارسية والهندية، وينعم بالتسامح الإسلامى، ينبذ التفرقة التى كانت من أبرز خصائص المجتمع الهندى من قبل، وظهر مفكرون يهاجمون الديانة البرهـمية، واحتم الهنادكة عقائد المسلمين، كما أن المسلمين استفادوا من فلسفة الهند، وتقدم علمائهم فى علم الفلك.

ولقد تأثرت الحياة الاجـتماعية بالترك، وتجلى ذلك فى انتـشار الحجاب بين النساء، وتخلص المنبوذون من قيود النظام الطبقى وساهموا بحرية فى ميادين الحياة المختلفـة من سياسيـة واقتصادية، واقـتبس الهنود على المسلمين أنظمـتهم الإدارية والمالية والقضـائية، وشهد الأدب الفارسى ازدهـارا زاد منه رحيل أدباء فارس إلى الهند، وأصبحت الفارسية لغة التأليف والكتابة للمسلمين وغير المسلمين، واستفاد

المسلمون من السنسكريتية، وترجموا عنها إلى الفارسية كما ترجموا إليها، وفى ميدان الفن استفاد المسلمون من الهنود والهنود من المسلمين، وتجلى ذلك فى المساجد والعابد.

تجمعت عوامل متعددة أدت على ضعف الدولة الغزنوية وانهيارها فى أخر الأمر، ومن أبرز هذه العوامل المحاولات المتكررة التى بذلها ولاة الأقاليم فى الدولة الغزنوية للاستقلال بالولايات التى يحكمونها، ولم تكن هذه الركات الانفصالية هى عوامل ضعف الدولة الغزنوية فقط، بل أن أمراء أل سبكتكين أيضا قاموا بدور كبير فى تدهور شأن بيتهم العريق، فقد حارب بعضهم بعضا حول الوصول إلى السيادة والحكم، وحاول بعضهم الاستقلال ببعض أقاليم الدولة الغزنوية بل استعان بعضهم على بعض بأعداء دولتهم المتربصين للنيل منها.

ومن أكبر العوامل التى عجلت بانهيار الدولة الغزنوية ظهور الأتراك السلاجقة وارتفاع شأنهم وسعيهم إلى توسيع ممتلكاتهم على حساب الدولة الغزناويه، كمان أن الغور خرجوا من عزلتهم الجبلية، وعملو ا على مد نفوذهم فى ما وراء حصونهم، وكان خير ميدان لتنفيذ سياستهم بلدان الدولة الغزنوية التى أخذت عوامل الضعف والانحلال تنال منها حتى أنهكت قوامها، ولم تعد تستطيع مقاومه أعدائها الأشداء.

واصل الغور سياساتهم التوسعية على حساب الدولة الغزنوية المتداعية حتى استولوا على غزنه، وسقطت لاهور أخر معاقل الغزنوين سنة ٥٧٩هـ / ١١٨٣م فى أيدى الغور وبسقوطها زالت الدولة الغزنوية وانتهت أيامها.

٢ - الغوريون

تقع بلاد الغور فى أفغانستان الحالية بين هراة وغزنة، وقامت دولة مستقلة فى هذه المنطقة تتخذ من فيروزكوه عاصمة لها، وكان الغور لا يدينون بالإسلام حتى غزاهم السلطان الغزنوى محمود بن سبكتكين سنة ٤٠١هـ / ١٠١٠ م.

شكل الغور خطرا جسيما على الدولة الغزنوية فى عهد السلطان محمود بن سبكتكين، ذلك أنهم دأبوا على شن الغارات على رعايا هذا السلطان، واتخذوا من وعورة بلادهم وصعوبة مسالكها معصما يقيهم بأسه لما كثرت غارات الغور على بلدان الدولة الغزنوية أنف السلطان محمود أن يكون مثل أولئك المفسدين جيرانه، وهم على هذا الحال من الكفر والفسوق والعصيان، وعول على إخضاعهم، وأعد جيشا كبيرا سار على رأسه إلى بلاد الغور سنة ٤٠١هـ / ١٠١٠م والتقى بجحافلهم فى معركة عنيفة، ومزقهم فيها كل ممزق، وأغلق الطرق المؤدية إلى بلادهم، بينما سار الجيش الغزنوى داخل بلاد الغور، وألتقى بأميرهم فى مدينة " أهنكران "، وحدث اشتباك عنيف بين الفريقين تفوق فيه جند الغور، لذلك أمر محمود بن سبكتكين جنده أن يولوا الأدبار على سبيل الاستدراك، وأنسحب الجند الغزنوى، فظن الغور أن ذلك هزيمة، وساروا فى أثر جيش السلطان محمود حتى ابتعدوا عن بلادهم، فواتت الفرصة الجند الغزنوى للانقضاض على الغور، وفعلا باغتوهم، ووضعوا السيوف فيهم، وقتلوا كثيرا منهم، وشتتوا شملهم، ووقع أمير الغور أسيرا فى أيدى الغزنويين، وأمتلك السلطان محمود قلاع الغور وحصونهم. ومن ثم دخلت بلاد الغور فى حوزة سلطان غزنة..

ولما كان الغور حتى ذلك الحين على غير دين الإسلام، فقد حرص محمود بن سبكتكين على نشر الإسلام، بينهم فاستخلف عليهم الفقهاء يعلمونهم الدين وشرائعه.

رفض أمير الغور أن يقع أسيرا فى أيدى غريمه، لذلك أثر الانتحار، وأبقى السلطان محمود حكم الغور فى أيدى بيتهم الحاكم، ولكن فى ظل السيادة الغزناوية، وارتفع شأن أمراء الغور فى الدولة الغزناوية حتى أنهم ارتبطوا بصلة النسب ببيت سبكتكين، لكنهم رغم ذلك تطلعوا، لكنهم رغم ذلك تطلعوا إلى الاستقلال عن غزنة، وأخذوا يتحينون الفرص المناسبة لتحقيق سياستهم، وفعلا تطورت الأمور فى صالحهم، ذلك أن الدولة الغزنوية انشغلت فى دفع خطر السلاجقة الزاحفين على إقليم خراسان فأعد الغور عدتهم للاستقلال، وتحقيق أطماعهم التوسعية على حساب الدولة الغزنوية، ولما أنهك السلاجقة قوى سلطان غزنة، واستولوا على الكثير من ممتلكاته، سار محمد بن الحسين - أمير الغور - إلى غزنة بغية الاستيلاء عليها سنة ٥٤٣هـ / ١١٤٨م لكن السلطان الغزنوى بهرام شاه أحبط محاولته وهزم نده، وقبض عليه وقتله.

استنكر الغور قتل السلطان الغزنوى لأميرهم، وعولوا على الانتقام من بهرام شاه، وأعد سورى بن الحسين - أمير الغور الجديد - العدة لذلك، فقوى من أمر جنده، وسار على رأسهم إلى غزنة بقصد الاستيلاء عليها، والأخذ بثأر أخيه، ولما أقترب سورى من غزنة بجحافلة، رأى بهرام شاه أنه لا يستطيع التصدى للغور الأقوياء، فقادر حاضره دولته، وذهب إلى الهند الغزنوية ليجمع منها جيشا قويا، ويعود إلى غزنة لتحريرها من قبضة الغور.

أما الغور بقيادة سورى، فقد استولوا على غزنة، لكن جند غزنة وأهلها ساءهم احتلال الغور لمدينتهم، وانتزاعهم الحكم من بيت سبكتكين، وظلوا يتحينون الفرص للتخلص من الغور، وواتتهم الفرصة حينما عاد السلطان بهرام شاه إلى غزنة على رأس جيش كبير لاسترداد حاضرة ملكه من الغاصبين، ووقف جند غزنة وأهلها إلى جانب بهرام شاه فى الاشتباك الذى حدث بينه وبين أمير الغور الذى اغتصب أعز قطعة من مملكته، وقد انتهى القتال بهزيمة سورى، وقبض بهرام شاه عليه وقتله وولى جنده الأدبار إلى بلادهم لا يلوون على شىء

وعاد بهـرام شاه إلى حـاضرة ملكه ظافـرا منتصـرا سنة ٥٤٤هـ / ١١٤٩م وأبهج أهلها بمقدمة، ويقهر الغزاة الطامعين.

لما قتل سـورى خلفه عـلاء الدين الحسـين بن الحسين فى حكـم الغور ولم يتغـاض عن قتل أخيـه سورى وهزيمة جنده، وطردهم من غـزنة، بل عول على الانتقام من السلطـان الغزنوى وأهل غزنة لتنكيلهم بجند الغور وأمـيرهم سورى، فسار على رأس جيش كـبير إلى غزنة، واستولى عليـها، وولى السلطان الغزنوى بهرام شاه هاربا على بعض المجاورة ليستجـمع قوته، ويعود إلى حاضر دولته. أما علاء الدين الحسين بن الحسين، فقـد أقر الأمور فى غزنة، وعاد إلى بلاده بعد أن استخلف على غزنة أخاه سيف الدين، وأمره بإقامة الخطبة له فى هذه المدينة، كما طلب منه أن يسير فى الناس سيرة حسنة، ويحكم بالعدل. وفعلا نفذ سيف الدين تعليمـات أخيه، فـأحسن إلى أهل غزنة وأجـزل على أعيانهـا الصلات النفسـية، وخلع عليهم خلعا سنية حتى تطيب نفوسهم ويخلصوا للعهد الجديد.

على أن هذه السـياسـة لم تؤت ثمارها، إذ كـان أهل غزنة مـا يزالون على ولائهم وإخلاصهم ما يزالون على ولائهم وإخلاصـهم لبيت سبكتين، ويعارضون حكم ما يزالون على ولائهم وإخـلاصهم لبيت سبكتين، ويعـارضون حكم الغور لهم، وأعدوا العـدة للتخلص منهم، فلما كان شـتاء سنة ٥٤٧هـ/ ١١٥٢ وانقطع الطريق بينغـزنة وبلاد الغـور بعـد أن غطاه الثلج، أمـن أهل غزنة عـدم وصـول النجدات العـسكرية من بلاد الغور إلى بلدهم، ونادوا بشعار بهـرام شاه، وأرسلوا إليه يطلـبون منه العودة إلى حـاضرة ملكه، وتحـريرهم من نير الغور المـغتصـبين للحكم من أصحابه الشـرعيين، فاستجاب بهـرام شاه لنداء أهل غزنة، وسار على رأس جيش كبيـر إلى غزنة، ولما اقترب منها قـبض أهل غزنة على سيف الدين - الحاكم الغـورى - ومهدوا لبـهرام شاه أمر دخـول غزنة، فدخلهـا ونكل بالغور، وبذلك استرد بهـرام شاه غزنة للمرة الثانيـة. على أن بهرام شاه لم يلبث أن توفى وولى بعده ابنه خسروشاه وكان علاء الدين الحـسين بن الحسين - أمير الغور - قد

أعد العدة للسير إلى غزنة واستعادتها والانتقام من أهلها الذين قتلوا رجاله، فلما علم خسروشاه بزحف أمير الغور على غزنة أسقط فى يده وخاف العاقبة وغادر غزنة وقصد لاهور واستقر بها ونقل إليها حكومته وجعلها لدولته بدلا من غزنة. أما أمير الغور فقد استرد غزنة سنة ٥٥٠هـ/ ١١٥٥م ولم ينس هذا الأمير موقف أهل غزنة العدائى من قومه فألحق بهم ويلاته، وأباحها لجنده ثلاثة أيام كاملة لقى خلالها أهلها سوء العذاب، ولم يكتف بذلك بل دمر حاضره بنى سبكتين بما فى ذلك المنشآت التى أنشأها سلاطين غزنة العظام حتى سماه أهل غزنة »محرق العالم« على أنه أصلح أمور غزنة بعد أن أسرف فى الانتقام من أهلها ورأب الصدع، ونقل الكثير من أهل غزنة ممن يخشى بأسهم إلى بلاده وأسكنهم بعض قلاعها، وبذلك كفل بسياسته هذه أضعاف مقاومة سكان غزنة لحكم الغور وبقاءها فى حوزته.

قويت دولة الغور فى عهد أميرها علاء الدين الحسين بن الحسين وتطلع إلى توسيع رقعة دولته فسار على رأس جيش كبير إلى خراسان وعاث جنده فسادا وتخريبا فى أعمال هراة - وسار إلى بلخ وحاصرها وضيق عليها الحصار حتى استسلمت له وضمها إلى حوزته، على أنه لم يحظ بحكمها طويلا فقد سار إليه السلطان السلجقى «سنجر» ليستعيد بلخ من الغور ويمنعهم من التعرض لخراسان والتقى السلطان السلجوقى بالأمير الغورى فى قتال عنيف هزم فيه الغور ووقع أميرهم أسيرا فى أيدى السلاجقة، على أن السلطان «سنجر» لم يلبث أن عفا عنه وخلع عليه وأعاده إلى «فيروزكوه».

وأصل أمير الغور سياسته الرامية إلى ضم مزيد من البلاد إلى دولته على الرغم من الهزيمة التى لحقت به، ونظم إدارة دولته واستعمل العمال والأمراء على البلاد، وكان ابنا أخيه وهما غياث الدين محمد بن سام وشهاب الدين محمد فيمن استعمل على بلد من بلاد الغور اسمه «سنجه». فما الناس إليهما وانتشر ذكرهما فسعى بهما من يحسدهما إلى عمهما علاء الدين وقال إنهما يريدان

الوثوب بك وقتلك والاستيلاء على الملك، فأرسل عمهما يستدعيهما إليه وأوقعا به الهزيمة، عندئذ جاهرا بعصيان عمهما وقطعا خطبته فتوجه إليهما علاء الدين وحدث اشتباك بين الفريقين انهزم فيه علاء الدين ووقع أسيرا فى أيدى ابنى أخيه عقد صلح بين الأمير الغورى والأخوين بمقتضاه تزوج غياث الدين من ابنة عمه علاء الدين وجعله ولى عهده.

لما توفى علاء الدين الحسين بن الحسين سنة ٥٥٦هـ/ ١١٦٠م خلفه غياث الدين محمد، وأقيمت الخطبة له فى غزنة، لكن الغور لم يلبثوا أن فقدوا غزنة، ذلك أن الغز طمعوا فيها بعد موت علاء الدين الحسين، واستولوا عليها، وطردوا الغور منها، وبقيت غزنة فى أيديهم خمس عشرة سنة ساموا خلالها أهلها سوء العذاب كعادتهم فى كل بلد ملكوه.

وفى تلك الفترة كان غياث الدين محمد - أمير الغور - يعد العدة، ويجمع الجيوش لاسترداد غزنة من مغتصبيها الغز.

سار غياث الدين إلى غزنة فى صحبة أخيه شهاب الدين، واشتبك الغور مع الغز فى معركة ألحقوا بهم الهزيمة، وطردهم من غزنة، واستردوها، وأحسن غياث الدين أهلها.

لم يكتف غياث الدين محمد أمير الغور - بامتلاك غزنة، بل عقد العزم على امتلاك البقية الباقية من الدولة الغزنوية لتوسيع دولته الناشئة، واستئصال شأفة آل سبكتين حتى يضمن لدولته - التى قامت على أنقاض الدولة الغزنوية - الأمن والاستقرار، فأرسل جيشا استولى على بلدان الغزنيين غير الهندية، وضمها إلى دولته. ثم عبر شهاب الدين الغورى نهر السند معتزما الاستيلاء على ممتلكات الغزنويين فى الهند واتجه إلى لاهور - قاعدة آخر سلاطين سبكتكتين - وفى طريقه إليها استولى على ممتلكات الغزنويين الهندية ثم حاصر لاهور - آخر معاقل الغزنويين - فى جميع عظيم وحشد كبير. حاصرها وضيق عليها الحصار، وأرسل شهاب الدين إلى خسروشاه وأهل لاهور يعرض عليها الأمان على أنفسهم

وأهليهم وأموالهم على أن ييسروا أمر استيلائه على لاهور، وحذرهم عاقبة التعرض لقواته، لكن خسروشاه أهل لاهور أصورا على مقاومة الغور، وبذلوا فى سبيل ذلك الأنفس والأموال، غير أن مقاومتهم للغور اعتراها الضعف.

وبذلك قضى السلطان أتلمش على حصومه منافسيه، واكتسب حكمة الصفة الشرعية حينما أرسل إليه الخليفة العباسى المستنصر بالله تقليداً بحكم دولة الإسلام فى الهند سنة ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م، ولقبه بـ«ناصر أمير المؤمنين، حامى الإيمان» وقدم السلطان الخليفة فى الخطبة والسكة على نفسه، وأبرز كذلك الألقاب التى منحها له الخليفة على العملة الفضية العريضة التى سكها، ومما لاشك فيه أن اعتراف الخليفة بسلطان دهلى أكسبه موحبة وتقديراً واحترام رعاياه المسلمين.

وكان لتأييد الخليفة للسلطان ألتمش أثر كبير فى تقوية دولته فخرج يقضى على ما تبقى من خصومه، ولم يكن هؤلاء الخصوم قادة من الترك، بل كانوا بعض راجات الهند الذين انتهزوا فرصة انشغال السلطان بمشاكلة الداخلية، واستطاعوا الاستقلال ببلدانهم، فسار إليهم ألتمش وساعاد »رانثمار« وكذلك استراد ماندوار Maddawor فى جبال السوالك. وفى سنة ٦٢٩هـ/ ١٢٣١ هاجم جواليار Guwalior وحاصر قلعتها شهرا حتى سيطر عليها، ثم سار إلى ملاوى واستردها كذلك، واستولى عليها Bhlsa وآجان Ajjan وعاد إلى الاشتباك مع الخلجيين الذى حاولوا من جديد الاستقلال بالبنغال وتقوية نفوذهم فيها وخصوصا بعد وفاة ناصر الدين محمد شاه - وإلى البنغال من قبل أبيه سلطان دهلى.

توفى ألتمش سنة ٦٣٣هـ/ ١٢٣٥م بعد أن وطد نفوذه وسلطان دولة المماليك فى الهند، وخاض فى سبيل ذلك حروبا كثيرة - كما ذكرنا - ضد خصومه الذين حاولوا انتزاع بعض بلدان دولته، ولذلك يمكن القول بأن ألتمش هو المؤسس الحقيقى لسلطنة دهلى المملوكية.

ولم تمنع الغزوات المتكرره التى خاضها ألتمش ضد أعدائه من إصلاح أحوال بلاده، فأعاد تنظيم الجهاز الإدارة، وهو من هذه الزاوية يعتبر رجل دولة

من الطراز الأول، وقد كان الجهاز الإدارى من قبله ينقصه التنظيم. وحدد لكل إدارة أو مصلحة اختصاصها، ورسم لها الخطة التى تسير عليها. وبذلك سارت الأعمال الحكومية فى عهده بدقة. كذلك حرص السلطان ألتمش على إقرار العدالة فى بلاده، ورفع الظلم عن رعاياه وباشر بنفسه أمر إقرار العدل ودفع الظلم. لتحقيق ذلك أمر كل صاحب مظلمة بلبس ثوب مصبوغ، يميزه عن لباس الهند الأبيض، فكان متى جلس للناس أو ركب، ورأى أحدا ارتدى ثوبا مصبوغا، استدعاء إليه، ونظر فى شكواه ورفع عنه مظلمته، لكى يتيح الفرصة لأصحاب المظالم برفع شكاواهم إليه، وأثناء وجوده فى داخل قصره، أقام على باب قصره تماثيل لأسدين موضوعين على برجين - وفى أعناقهما سسلتان من الحديد فيهما جرس كبير، يدقه المتظلم، وحينئذ يسمح السلطان بمثوله بين يديه، ويستمع عليه وينظر فى أمره.

وعنى ألتمش بتشجيع العلوم والآداب وأنفق أموالا كثيرة فى كتابة نسخ كثيرة من القرآن الكريم حتى تكون فى متناول الناس لقراءتها والاستفادة منها، وأسس العديد من المدارس وزين بلاطه بالشعراء والعلماء، وجعل عاصمته مركزا هاما للعلوم والأداب، كذلك أولى الفن المعمارى عناية كبيرة فأتم بناء مسجد قطب الدين فى دهلى، وشيد مسجدا آخر فى آجمير.

بوفاة ألتمش يكون قد بقى من عمر سلطنة المماليك فى دهلى ثلاثون سنة أثقلت المشاكل كاهلها فى خلالها حتى عصفت فى النهاية بذلك الصرح الضخم الذى بدل ألتمش جهودا كبيرة فى سبيل تشييده. ومن الأمور التى أضعفت هذه الدولة عجز السلاطين الذين خلفوا ألتمش عن إدارة شئون الدولة، والمنازعات الشديدة التى قامت بين كبار رجال الدولة حول الاستئثار بالسلطة.

وتفضيل ذلك أن ألتمش عهد إلى ابنته رضيه بالحكم من بعده، ذلك أن ابنه الأكبر ناصر الدين محمد توفى فى البنغال، وحاول ألتمش تدريب ابنته على إدارة شئون الدولة، وعهد إليها بمباشرة سلطانه أثناء غيابه عن دهلى تمهيدًا لتوليتها

السلطنة من بعده. على أن كبار رجال الدولة اعترضوا على تولية رضية الحكم بعد وفاة والدها، ودبروا خلعها، واستدعوا آخاها فيروز من لاهور، وطلبوا منه أن يتولى سلطنة دهلى بدلا من أخيه، فسار فيروز إلى دهلى، ومكنه رجال الدولة من تولى الحكم بعد أن عزلوا أخته رضية. على أن هذه السلطان الجديد لم يستطع إدارة أمور الدولة بحكمة وكفاءة، بل انصرف إلى اللهو والعبث، وترك مقاليد الأمور فى يد أمه شاه تركان، وهى امرأة حقود وضيعة النشأة، وسارت سيرة سيئة فى الحكم، لذلك حدثت فى الدولة الكثير من القلاقل والثورات والفتن، وعول حكام الملتان ولاهور وهانسى وبدون Budaun وأورده على إنهاء هذا الحكم الفاسد وتحركوا إلى دهلى فعلا. ففر فيروز من دهلى، وتبعه جنده، والتقى بالخارجين عليه بالقرب من العاصمة، لأنه لم يستطع الاشتباك معهم فى قتال، ذلك أن جنده انفضوا من حوله، وعادوا إلى دهلى، وأعلنوا خلع فيروز، وتولية رضية، وقبض على فيروز وزج به فى السجن.

على أن هذا الحل لم يرض أمراء الولايات المتجهين إلى دهلى إذ كانوا يعتزمون تولية أحد الأمراء الحكم، وحاصروا دهلى فعلا وقطعوا عنها سبل الاتصال بالولايات التابعة لها، لكن السلطانة رضية أظهرت مقدرة وكفاءة فى سحق هؤلاء المناوئين. فعلى الرغم من أنها كانت فى قلة من الجند، فإنها استطاعت إضعاف أعدائها وهزيمتهم، وردهم على أعقابهم خاسرين، وأصبحت سلطانة الإمبراطورية بلا منازع، وعاد الأمن والهدوء إلى ربوع دولتها.

وحرصت رضية على أن تبلغ مبلغ الرجال فى أعمالها وتصرفاتها، حتى تضفى على نفسها الرهبة أمام الناس، فتزيت بزى الرجال، وقادت الجيوش بنفسها ضد أعدائها، وشهدها الناس وهى تركب الفيل على رأس جيشها، إلا أنها أغضبت أمراء الدولة الترك الذين رفع ألتمش من شأنهم، وقربهم إليه، وأسند إليهم الأمور الهامة فى الدولة، وأبعدتهم عن التدخل فى شئون الحكم، لأنها كانت تدرك مقدار معارضتهم لحكمها، وسوء نواياهم نحوها.

كذلك أثارت رضية المعارضة ضدها حينما رفعت من شأن رجل حبشى يعمل أميرا للخليل فى بلاطها يسمى جلال الدين ياقوت، وأسندت إليه قيادة الجيش، بل همت به، وتزوجت منه، فدبر الأمراء الترك مؤامرة للتخلص منها، أو على الأقل تقليص نفوذها، وقادها أيتيكين Aitigin - أمير حاجب - لكن رضية أحبطت المؤامرة، ولم تنته متاعب رضية عند هذا الحد، إذ أعلن حاكم البنجاب الثورة، فسحقت رديه تدمره. أما اختيار الدين ألتونيا Altunia - حاكم بهاتندا - فقد رفع هو الآخر راية العصيان، وبينما هى بعيدة عن العاصمة، إذا بالأمراء الترك فى دهلى يعلنون عزلها، ويولون منها «معز الدين بهرام بن ألتمش».

لما ولى »بهرام شاه« سلطنة دهلى لم يستطع الانفراد بالحكم بل اضطر على الخضوع للأمراء الترك، والسير وفق أهوائهم وأسند أمر الملك كله إلى واحد منهم هو وزيره اختيار الدين أيتيكين الذى قبض على زمام الأمور فى الدولة دون السلطان ولم يلبث أن غضب السلطان من وزيره الذى جعله اسما فقط فدبر السلطان مؤامرة لاغتياله، وأدى نجاحها إلى استرداد سلطانه.

لكن بهرام شاه لم يستمتع بالانفراد بالحكم طويلا، ذلك أن «بدر الدين سنقر» - أمير حاجب - سيطر على أمور الدولة، كذلك تعرض السلطان لمؤامرة أخرى تستهدف خلعه، فقد انتهز ألتونيا - حاكم بهاتندا - فرصة مقتل أيتكين، وعول على المسير إلى دهلى، والتربع على عرش السلطنة، ولتحقيق ذلك أفرج عن أسيرته - رضية - وتزوج منها، ورأى أن ذلك يعطيه الحق فى تحقيق أطماعه الرامية إلى الاستحواذ على السلطنة، وتقدم الاثنان إلى دهلى، لكن القبائل الكهكرية هاجمت جيوش ألتونيا وشتت شملهم، وعثروا على رضية تستظل بظل شجرة فاغتالوها. وبذلك فشلت هذه المؤامرة على أن رضية كانت سلطانة عادلة على جانب كبير من الكفاءة والمقدرة، شجعت العلوم والآداب، وكانت تتجول فى الأسواق فى زى الرجال، وتجلس إلى الناس، وتستمع إلى شكواهم، ومما يجدر ذكره أن رضية عاصرت شجرة الدر - ملكة فرنسا - عن مصر فى الحملة الصليبية

السابعة، وكان زوجها الملك الصالح أيوب قد توفى أثناء معركة المنصورة، فقبضت شجـرة الدر على زمام الأمور فى مصـر حتى قدم توران شـاه بن الملك الصالح، وخلف أباه فى الملك.

لم تستتب الأمـور فى دهلى بإحباط كؤامرة أمير بهـاتندا، ورضية، ذلك أن أمير حـاجب ظل قابضا على زمام الأمور فى الدولة وبينمـا تسير الدولة فى طريق الاضطراب واجـهت خطراً آخـر ليس من الـداخل، ولكن من الخـارج، ذلك هو خطر المغول الذين هاجموا لاهور سنة ١٢٤١م، فقاد أمير حاجب جيشا إلى لاهور لوقف تقـدم المغول، غـير أنه لم يلبث أن توجس خـفيـة من السلطان إذ رأى أن ابتعاده عن العاصمة سيؤدى إلى تآمـر السلطان وحاشيته ورجاله ضده، وعزله عن منصبه، ومنعه من دول دهلى، وانضم إليه الجيش فى إعلان التمرد والعصيان على السلطان، فأرسل إليه بهرام شاه رسول من رجال الدين ليحثه هو والجند على ترك الفتنة والمضى قـدما فى طريق الجهـاد فى سبيل الله، لكن الشـيخ الرسول لم يقم بالواجب الذى كلفه به السلطان، بل انضم إلى الثوار، وعـادوا جميعا إلى دهلى، وتركوا المغول يهاجمون لاهور.

أعد السلطان العدة للدفاع عن عاصمة ملكه، لكن رجال أمير حاجب داخل دهلى وساعدوا المهاجمـين على الاستيلاء على العاصمة، وقبـضوا على بهرام شاه سنة ١٢٤٢م، وولوا بدلا منه علاء الدين مسعود - حفيد ألتمش - وكان عمره لا يتجاوز السادسة عشرة.

لم يكن علاء الدين مـسعود أسعد حظا من سـابقة، فقد فـوض أمور دولته إلى قطب الدين حسين، وجعله نائبا ووزيرا له، لكنه استبد بالسلطة دونه، وأسند الوظائف الإدارية الهامـة فى الدولة إلى أعوانه وأنصاره على وزيره وقتـله، وعهد إلى نجم الدين أبى بـكر بمنصب نائب السلطـان، وعيـن «بلبن» فى منصب أمـيـر حاجب.

واجه بلبن صعابا جسيمة فى ضبط أمور الدولة، فقد كثرت الفتن والقلاقل بها، إذ حاول الأمراء الهنادكة الاستقلال عن دهلى وحاول أمراء الولايات كذلك الانفصال عن الحكومة المركزية وحارب بعضهم بعضا، وتعرضت البلاد كذلك لخطر المغول الزاحف إليها وبلغ من ضعف السلطة المركزية أن أمراء الولايات القريبة استنجدوا بالمغول لدحر كل محاولة قد تقوم بها لاستعادة سيطرتها على ولاياتهم.

على أن بلبن لم يستطع أن يمضى فى تنفيذ سياسته الرامية إلى إعادة الهدوء والسكينة إلى الدولة بسبب تعرضه لمؤامرة تستهدف إقصاءه عن الحكم، ذلك أن الهنادكة عولوا على إقصاء العناصر التركية عن إدارة أمور الدولة، والحلول حلهم، وقادة هذه الحركة عماد الدين ريحان الذى ولى منصب وكيل الدار، وأفلح فى إقصاء بلبن ورجاله الترك عن الحكم. وبذلك حل النفوذ الهندوكى محل النفوذ التركى فى سلطنة المماليك بدهلى.

على أن الهنادكة لم يستمتعوا طويلا بإدارة شئون حكومة دهلى ذلك أن الأمراء الترك ساءهم اعتصاب الهنادكة بقيادة ريحان السلطة فى دهلى، وعقدوا العزم على إعادة بلبن، وانضم إليه الكثيرون من حكام الولايات الترك، وطلبوا من السلطان إعادة بلبن وعزل ريحان، ولما لم يستجب السلطان لرغبتهم تعاضدوا وتحالفوا على تنفيذ رغبتهم بالقوة، فخرج السلطان من عاصمته دهلى لسحق تمرد الثوار لكن الثائرين هزموا جيش السلطان ودخلوا دهلى، وأعادوا بلبن إلى الوزارة، وعزل ريحان سنة ١٢٥٤م، وأحسن أهالى العاصمة الهندية استقباله بعد غياب دام عامين.

واجه بلبن مشاكل متعددة لإقرار الأمور فى الدولة، فالبلاد مضطربة، والثورات متعددة فى الإمبراطورية، وخصوصا قبائل المواتى Mewatis وأصبحت البلاد تعيش فى فوضى شاملة، لذلك كان على بلبن استعادة هيبة ونفوذ حكومة

دهلى والقضـاء على الفتن فى الولايات التابعـة لها، وقد فـوض إليه السلطان كل هذه الشئون بينما انصرف إلى مجالسة العلماء والدراويش.

أثبت بلبن كفاءة ومقدرة فى إدارة شئون الدولة، وإعادة الهدوء إليها، فقضى على الفتن الداخلية، وأخضع الكهـكرية وغيرها من القبائل الثائرة المثـيرة للشغب والفوضى، وزحف إلى الدواب Doab، وأخضع الأمراء الهنادكة الـثائرين بها، ما أعاد أودة والسند إلى الولاء والطاعة لحكومة دهلى.

على أن أبرز مـواقف هذا الرجل البطولية تجلت فى مـقاومـته لغـزو المغول للهند سنة ١٢٤٥، فقد هاجموا السند، وضيقـوا الحصار على حصن أوكا فتصدى فهم بلبن واشتبك معهم فى قتال مرير وأوقع بهم هزيمة كبيرة وردهم على أعقابهم خاسـرين وأمنت بلاد الهند الغربيـة من خطر المغول، وعادت سـيطرة دهلى على هذه المنطقة.

توفى ناصر الدين محمود بعد حكم عشـرين عاما، وكان عادلا كريما زاهدا متدينا، يرعى العلوم والآداب، وقد عهد إلى أبى عمر عثمان منهاج السراج بشغل وظيفـة كبـيرة فى بلاطه، ووضع هذا العالـم مؤلا كبـيرا أهداه للسلطان، أسـماه «طبقات ناصرى» ومكافأة كبيرة على هـذا الجهد الكبير، ومما يجدر ذكره أن ناصر الدين عاش عـيشه الـزهد، وكان يقتـات من عمل يده، إذ كان يـنسخ المصاحف ويبيعها، ويغطى بما يرد إليه من هذا العمل نفقـاته الخاصة، كذلك لم يتخذ خدما فى بيته، إنما كانت زوجته تباشر الشئون المنزلية بنفسها بما فى ذلك إعداد الطعام.

ذكرنا أن غياث الدين بلبن ارتفع إلى أعلـى المناصب فى إمبراطورية المماليك فى عهد ناصـر الدين محمود، ولعب دورا هاما فى تاريخ سلـطنة دلهى المملوكية حتى أن المؤرخين يذكرون أن تاريخ نـاصر الدين محمود هو فى حقيـقته حلقة من تاريخ بلبن، ولم يكن لدى السلطان ناصر الدين محـمود أبناء ذكور، وتزوج بلبن من ابنه ناصر الدين محمود، الأمر الذى يسر له أمر تولية السلطنة بعد وفاة صهره سنة ١٢٦٦م وكان قد جاوز الستين من العمر.

ينتمى بلبن إلى قبيلة تركية، كان أبوه من شيوخها، ووقع بلبن فى أسر المغول، واشتراه الخواجة جمال الدين فى البصرة، وبيع فى دهلى إلى ألتمش. ظهرت شجاعته ومقدرته فى سلك الجندية، فأدخله ألتمش فى جماعة حرسه، ولما وليت رضية السلطنة، أسندت إليه منصب أمير الصيد، وأدرك بهرام شاه شجاعته وإقدامه، فولاه بعض الولايات فأحسن إدارتها وأعاد إليها الهدوء والاستقرار، وراجت فيها الزراعة، وتحسن الأحوال الاقتصادية، ثم ولاه ناصر الدين محمود منصب الوزارة ونيابة السلطنة كما رأينا.

وواجه بلبن بعد توليته السلطنة نفس المشاكل التى واجهها فى عهد ناصر الدين محمود، فالبلاد مضطربة، والمغول عادوا إلى تهديد الحدود، وكان على بلبن أن يؤمن دولته من الأخطار الخارجية والمشاكل الداخلية، فبدأ بتقوية السلطة المركزية وأعاد الهيبة إلى بلاطه وحكومته، وذلك بأن جعل بلاطه قويا فخما كما كان أيام ملوك الفرس القدامى، وكان مجلسه يتسم بطابع الجد، وأعاد تنظيم جيشه وتدريبه على أحسن نظام. وأضعف من شأنه القادة المماليك - موالى ألتمش - وكانوا لا ينقطعون عن تدبير المؤامرات والدسائس التى تستهدف تقوية نفوذهم فى الدولة على حساب السلطان.

كذلك حرص بلبن على تنظيم إدارة الدولة، وأعاد الأمن والنظام إلى ربوعها، ولتحقيق ذلك أعد جهازا قويا للجاسوسية، يحيطه علما بكل أخبار الإدارات والمصالح الحكومية، ويكتبون له تقارير عن سير حكام الولايات وسائر الموظفين، وهؤلاء الجواسيس يرلقبون كل مصالح الدولة بما فى ذلك الجيش وبلاط السلطان، حتى أبناؤه، وكان هناك جواسيس لمراقبة سير الجواسيس فى عملهم، وكان الجاسوس يتعرض لأشد أنواع العقاب إذا تهاون فى عمله أو فى تأدية الواجب المكلف به ولم يلتزم بالدقة فى جمع الأخبار، أو لا يصدق فى تبليغها، وبلغ من حرصه على إقرار العدالة، ومنع الظلم أن أحدا كان لا يجرؤ على إيذاء خدمه ومماليكه.

بعد أن أعاد بلبن تنظيم الدولة، وأعاد إلى حكومة دهلى هيبتها، اتجه على القضاء على الفتن الداخلية فى الدولة، فضرب بيد من حديد على أهل مواتى، وكان قد أخضعهم أثناء وزارته، فلما ولى السلطنة، قطعوا الطريق، وسرقوا المسافرين وألحقوا بهم الضرر والأذى وخصوصا فى بهار، ونهبوا القرى وقتلوا الأبرياء واقترب خطرهم وشرهم من العاصمة دهلى فخرج بلبن من دهلى، وسار على رأس جيشه لإخضاعهم وهاجمهم هجوما عنيفا، وما زال يتعقبهم حتى شتت شملهم، وأمر بتطهير البلاد من الغابات والأدغال التى كانوا يحتمون بها، وما زال يتعقبهم حتى استأصل شأفتهم، وقتل قائدهم. رأى ضرورة المحافظة على الأمن والسلام فى الدولة، فأقام الحصون فى مختلف البلاد، يقيم فيها شرطة لحماية الناس من عدوان اللصوص وقطاع الطريق، وحول المناطق التى استأصل منها الغابات إلى أراضى زراعية، يقيم فيها جند لحراستها من غيث العابثين، وبذلك استتب الأمن والنظام فى الدولة.

كذلك تعرضت سلطنة المماليك فى الهند لخطر آخر من جانب الهندوس فى دواب ذلك أنهم قطعوا الطريق بين دهلى والبنغال فقاومهم حتى ضعفوا ووهنوا، وقبض عليهم وأسرهم.

وواجه بلبن مشكلة أخرى من جانب المماليك الذين اعترضوا توليته الحكم وسعوا إلى الخلاص منه، وكان سلطانهم قد قوى فى عهد ألتمش وخلفائه الذين منحوهم الإقطاعات الكبيرة، فطردهم بلبن من الخدمة العسكرية، وأمعن فى عقابهم، وقتل كثيرا منهم، وتخلص من هذه الفئة كلية. وبهذه الجهود أصبح بلبن سلطانا قويا مهابا يرعى جانبه رجال الدولة، ويخشون بأسه.

لم يكد بلبن ينتهى من مشاكله الداخلية، حتى واجه خطرا خارجيا جسيما، ذلك أن المغول عادوا من جديد إلى تهديد الهند بعد أن زحفوا إلى بلاد العراق بقيادة هولاكوخان، واستولوا على بغداد - حاضرة بنى العباس - وقتلوا الخليفة المستعصم سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٤م، واعتزم المغول غزو الهند بعد أن سمعوا عن

ثروتها، فأعد بلبن العدة لصد الأعداء عن بلاده، وبقى فى دهلى لا يغادرها وترك لقواده أمر تعقب الخارجين على سلطانه، حتى لا تتعرض العاصمة لخطر المغول، ولا تقاسى ما قاسته بغداد من ويلات، وأعاد بناء القلاع على الحدود بسبب غزوات المغول السابقة، وأقام تحصينات جديدة مزودة بالجند والسلاح، كما زود جيشه بالأسلحة والمعدات، وأسند القيادات العسكرية إلى رجال أكفاء وعين ابنه الكفء الشجاع محمد حاكما على الملتان، ووضع ابنه الأخر بغراخان على حراسه سمنة وسنام.

وكان لخطته الدفاعية أثرها الكبير فى درء خطر المغول عن ديار الهند، فحين هاجموها سنة ١٢٧٩، تعقبهم محمد وهزمهم، ودفع خطرهم عن بلاد الهند. وبذلك سلمت المماليك فى الهند من خطر المغول وويلاتهم.

على أن انشغال الحكومة الهندية فى الذود عن البلاد أدى إلى بروز مشكلة أخرى داخلية، ذلك أن البنغال بقيادة واليها "طغرل" عادت إلى محاولة الاستقلال عن دلهى، ولقب واليها طغرل نفسه مغيث الدين، وأمر بإقامة الخطبة باسمه، ونقش اسمه على السكة بدلا من بلبن، فأرسل السلطان جيشا بقيادة أمير خان لإخضاع طغرل، وأعادت البنغال إلى الخضوع للحكومة المركزية، لكن طغرل هزم القائد الهندوكى، وغضب بلبن من قائده، وحمله مسئولية الهزيمة التى لحقت به، وحكم عليه بالإعدام، وأرسل جيشا آخر إلى التغال لسحق تمرد طغرل، لكن هذا الجيش لقى مصير سابقة، عندئذ لم ير السلطان بلبن بدا من المسير بنفسه إلى البنغال لإعادته إلى حوزته، وصحبه ابنه بغ راخان، وحينما اقترب السلطان من البنغال أخذ طغرل الجزع والفزع، وفر هو ورجاله إلى الغابات المجاورة شرق البنغال فى جاجنكر، وأرسل السلطان فرقه من الجيش لتعقب المتمردين، وعثروا عليهم فعلا، وشاهدوهم يشربون ويلهون والفيلة تتجول بين الأشجار، والخيول والمواشى تتغذى على النباتات، فباغتوهم على حين غفلة منهم، وما زالوا بهم حتى أفنوهم عن أخرهم وقتلوا زعيمهم طغرل.

بعد ذلك اتجه السلطان إلى لكهاونتى، وكانت تؤيد طغرل فى ثورته ضد دهلى فاختفى أغلب أعيانها خوفا من بطش السلطان، لكن بلبن لم يبرح البلدة إلا بعد أن نكل بالثائرين وبذلك إلى الولاة والطاعة للسلطان بلبن ولكى يضمهم بقاء البنغال على الولاء لدهلى، عهد إلى ابنه بغ راخان بكم البنغال وحكم بغ راخان وأعقابه البنغال أكثر من نصف قرن.

وجدير بالذكر أن البنغال سببت متاعب كثيرة لحكومة دهلى، فقد حاولت الاستقلال منذ أن حكمها الخليجيون منتهزين فرصة صعوبة المواصلات بين دهلى وبلادهم، فضلا عن بعد المسافة، وانتشار الأوبئة فيها. وبذل ألتمش جهودا كبيرة فى إخضاع البنغال وحذا طغرل - كما رئاينا - حذو الخليجيين فى محاولة الاستقلال عن دهلى منتهزا فرصة انشغال السلطان بلبن فى مشال الدولة الداخلية والخارجية.

على أن بلبن واجه كارثة أخرى مروعة، فقد توفى ابنه محمد وهو يقاتل المغول، ولم يحتمل صدمة موت ابنه، وتوفى بعدها فى سنة ١٢٨٧ بعد حكم دام أربعين سنة.

يعتبر بلبن من أعظم حكام الهند غى تاريخها الوسيط، فقد تغلب على الصعوبات الكبيرة التى واجهته، إذ وقف فى وجه الأمراء الهنادكة الذين حاولوا النيل من سلطانه، وقهر العصاة والمفسدين، وتمكن من درء خطر المغول عن البلاد، وأقر الأمن والنظام فى ربوع الدولة، واشتد فى معاقبة الخارجين على القانون والعدالة واتخذ بنفسه - كما ذكرنا - بلاد مهيبا له مراسم معينة، ورجال يرتدون أزياء معينة ومظاهر خاصة، واتخذ رجالا أكفاء فى إدارة شئون الدولة على انه لم يستطع توسيع رقعة دولته لانشغاله طوال حكمه بمشاكل الدولة الداخلية والخارجية، ولم يأل جهدا فى سبيل حماية الدين والمحافظة على الشريعة، وإقرار العدالة، وبنا دارا أسماها دار الأمن لرفع المظالم عن رعاياه، وتخفيف أعباء الحياة عليهم، وساوى بين رعاياه المسلمين والهنادكة أمام القانون وإذا كان قد أبعد

الهنادكة فترة ما عن مناصب الدولة الرئيسية، فإنه فعل ذلك بعد أن لمس منهم نزعاتهم الاستقلالية فى وقت تواجه الدولة فيه خطر خارجيا.

ولم يأل بلبن جهدا فى سبيل رعاية الفنون والأدب، وحرص على رفع شأن مجتمعه، فشجع الناس على التحلى بتعاليم الإسلام، وقد كان لعمله هذا أثر كبير على المجتمع الهندى حتى أن المؤرخين يغزون إليه ما يتمتع به الآن المجتمع الهندى من تقاليد رفيعة.

ومما يجدر ذكره أن هذا السلطان أكرم وفادة الشخصيات الإسلامية الكبيرة التى لجأت إلى الهند فرارا من بطش وجور المغول، وكان من بين هؤلاء فريق من بنى العباس ومن أمراء خوارزم وغيرهم، وقد أنزل كل فريق منهم فى حى خاص، سمى باسمه، مثل محلة عباسى، محلة خوارزمى، محلة ديلمى، محلة سنجر.. الخ.

لما شعر بلبن بدنو أجله عهد إلى ابنه بغراخان الحكم من بعده، لكن بغراخان رفض، وآثر البقاء فى البنغال، لذلك عهد السلطان إلى كيخسرو بن بغراخان بولاية عهده، وتولى كيخسرو السلطة فى دهلى سنة ١٢٨٧، وكان ضعيفا لا يستطيع القيام بأعباء الحكم، فأسند أمور الدولة إلى نظام الدين وكان رجلا طموحا استبد بأمور الدولة دون السلطان، وزين نظام الدين للسلطان الاستمتاع بمباهج الحياة واللهو والعبث، وأسند المناصب الرئيسية فى الدولة إلى رجاله المقربين إليه.

على أن بغراخان - حاكم البنغال - ساءه ذلك من علم من استبداد نظام الدين بأمور الدولة دون ابنه السلطان، وعقد معهم لقاء سريا حثه فيه على التخلص من نظام الدين ورجاله واستعادة نفوذهم فى الدولة، لكن الترك لم يمكنوه من ذلك بل عزلوه وولوا بدلا منه كيقباد - أحد أطفاله الصغار - على أن الخليجيين لم يمكنوا الترك من الاستبداد بأمر الدولة، فدخلوا دهلى، وأزالوا عنها حكم المماليك.

٢ - السياسة الداخلية لسلطنة دهلى الإسلامية فى العهد الخلجى

قيام الدولة الخلجية فى دهلى:

يرع البعض أن الخلجيين من أصل تركى، على حين يرى آخرون أنهم من أصل أفغانى ويؤكد بارالى أنهم ينسبون إلى قلبج خان - أحد أصهار جنكيزخان، نزل بجبال الغور بعد هزيمة شاه خوارزم، وحرف اسمه بعد ذلك إلى خلج، وقيل لورثته الخلجيون، وقد اندمجوا فى الحياة الأفغانية، واعتنقوا الإسلام فى عهد سلاطين بنى سبكتكين، وضم الجيش الغزنوى فرقا منهم ساهمت فى فتح الهند.

على أن نشاط الخلجيين اتضح فى عهده سلاطين الغور. فحينما ولى قطب الدين أبيك التركمانى الهند نيابة عن سلطان الغور، حرص على توسيع رقعة ولايته الجديدة فى بلاد الهند، فأسند هذه المهمة إلى قائده محمد بن بختيار الخلجى، فاستولى على بندنتبورى - عاصمة إقليم بهار - وكان يحكمها مولك أسرة بلا، ولم يلبس أن استولى على مملكة بلا بأسرها، وكانت الديانة البوذية سائدة بين سكان هذه المملكة، فحكم القائد الخلجى معابدهم وأصنامهم، ونشر الإسلام بينهم، وانضمت هذه البلاد إلى إمبراطورية الغور.

وأذن قطب الدين أيبك - نائب سلطان الغور فى الهند - إلى القائد الخلجى بمواصلة الفتح والتوسع، فاتجه محمد بن بختيار الخلجى إلى نادية - عاصمة البنغال الرغم من قلة عدد جنده، فإنه اقتحم نادية، وكان يحكمها لكمشن سنا من أسرة سنا ٥٩٥هـ/ ١١٩٦م، وفزع الملك الشيخ وجزع، ورأى أن لا قبل له بالغزاة المسلمين، فلاذ بالفرار من عاصمة ملكه، لا يلوى على شىء، وقد يسر ذلك للقائد الخلجى أمر الاستيلاء على نادية - عاصمة البنغال - فضمها إلى مملكة الغور، وأقام الخطبة فيها للسلطان الغورى، وقد مهد سقوط نادية فى أيدى الغور السبيل لهم لضم إقليم البنغال بأسره لدولتهم.

لم يكتف محمد بن بختيار الخلجى بما أحرزه من انتصارات رائعة، بل تطلع إلى المسير إلى التبت للاستيلاء على هذه البلاد، ففى سنة ٦١٣هـ/١٢٠٦م اتجه فى عشرة آلاف فارس إلى التبت،لكن حملته باءت بالفشل الذريع، وتعرض جنده لأهوال جسام أثناء انسحابهم، ولقى الكثير منهم حتفه فى عودتهم إلى "ديفكوت"،ولم يلبث هو كذلك أن توفى.

حرص خلفاء محمد بن بختيار الخلجى على بسط نفوذهم على بعض أقاليم الهند،فلما قامت دولة المماليك فى الهند، وولى شمس الدين ألتمش السطنة فى دهلى، تعرض لمشاكل داخلية تهدف إلى إطاحته من الحكم، وأثار هذه المشاكل رجال الدولة الذين انتهزوا فرصة الفوضى التى أعقبت وفاة قطب الدين أيبك، وقد مهدت هذه المشاكل للخلجيين أمر السيطرة على بهار والبنغال.

على أن الملوك المماليك لم يقفوا مكتوفى الأيدى إزاء نزعات الخلجيين الاستقلالية، فلما غادر جلال الدين منكبرتى بلاد الهند، وزال خطر الخوارزميين عنها، وبالتالى خطر المغول، تفرغ السلطان ألتمش لقمع الحركات الاستقلالية فى دولته، ومن أبرزها استقلال غياث الدين الخلجى فى البنغال عن دهلى حيث أقام الخطبة باسمه، ونقش اسمه على السكة، وتلقب بألقاب الملوك، وقوى أمره واشتد بأسه وامتد نفوذه على البلاد الواقعة شرقى دهلى.

عول السلطان ألتمش على سحق محاولة الخلجى الاستقلالية، وسار على رأس جيش كبير من البنغال، ولما رأى الأمير الخلجى عدم استطاعته التصديلسلطان دهلى، أعلن عودته إلى الولاء والطاعة ونبذ التمرد والعصيان، وتعهد بالعودة إلى دفع الأموال المقررة عليه، إلا أنه لم يكن صادقا فى تعهده، بل كان يزمع انتهاز فرصة أخرى تتيح له العودة إلى الاستقلال بولايته، فلما انتعد السلطان ألتمش عن البنغال أعلن الاستقلال، وسار إلى بهار، واستولى عليها، غير أنه لم يهنأ بهذا الاستقلال طويلا، إذ سار إليه ناصر الدين محمد شاه - إلى أودة - من قبل

السلطان ألتمش - وهاجم البنغال، وأوقع الهزيمة بالخلجى وأنصاره وبذلك عادت البنغال إلى حوزته سلطان دهلى.

لكن الأمير الخلجى لم يستسلم لانتزاع البنغال منه، بل عول على استرداد هذا الإقليم، فلما توفى ناصر الدين محمد شاه - والى البنغال من قبل أبيه سلطان دهلى - عاد إلى البنغال وحكمها.

ضعفت دولة المماليك بعد وفاة السلطان بلبن وقد عهد بالحكم لابنه بغراخان لكن بغراخان آثر البقاء، وأسندت السلطنة إلى كيخسرو بن بغراخان سنة ١٢٧٨م، وكان ضعيفا لا يستطيع القيام بأعباء الحكم، فأسند أمور الدول إلى نظام الدين، وكان رجلا طموحا استبد بأمور الدولة دون السلطان، وزين السلطان أمر الاستمتاع بما فى الحياة الدنيا من مباهج حتى يبعدوه عن الانشغال بأعباء الحكم، وأسند المناصب الكبيرة فى الدولة إلى رجاله المقربين.

على أن بغراخان - حاكم البنغال - ساءه استبداد نظام الدين بأمور الدولة دون السلطان، وعقد معه لقاء سريا حثه فيه على التخلص من نظام الدين ورجاله، واستعاده نفوذه فى الدولة، ومباشرة مسئولياته بنفسه، ونفذ السلطان مطالب أبيه وتمكن من التخلص من نظام الدين ورجاله، واسترد نفوذه فى الدولة.

لكن السلطان كيخسرو لم ينفرد بالسلطة طويلا فقد تآمر عليه الترك، وعزلوه وولوا بدلا منه كيقباد - أحد أطفاله الصغار - السلطنة حتى يتيسر لهم الاستبداد بالدولة دونه.

استاء الأمراء الخليجيون من استبداد الترك بأمور الدولة، وعولوا على تغيير نظام الحكم فى دهلى، فساروا إليها بقضهم وقضيضهم بقيادة زعيمهم "فيروز" وهزموا القواد الأتراك، وأحدثوا أقلابا فى دهلى أحاحوا فيه بالسلطان الطفل، وأعلنوا فيروز سلطان، ولقب بجلال الدين، وكان ذلك سنة ١٢٩٠م.

ولم يتقـبل أهالى دهلى حكم الخلجـيين فى بادئ الأمـر بالرضا والتـأييد، لكثرة مـا ألحقه جندهم ببلدهم من الخـراب والضمار، وارتكابهم حمـاقات ذهب ضحيتـها الكثيرون. على أن السلطان الخلجى الذى كان فى السبـعين من عمره - تمكن بحسن سياسـته وعدله ومودته أن يجتذب الناس إلى محـبته. وبذلك خضع أهل دهلى للملك الجديد والعهد الجديد، ووفد الناس على السلطان الشيخ زرافات ووحدانا يبايعونه ويقدمون له فروض الولاء والطاعة.

* * *

كياسة السلاطين والخلجيين فى توطيد سلطانهم

لم يأل السلاطين الخلجيون جهدا فى سبيل سحق حركات التمرد والعصيان، ومنع اندلاع ثورات ضدهم والحيلولة دون حدوث الحركات الاستقلالية والانفصالية فى الدولة، وأول هذه الحركات الثورية سنة ١٢٩٠ حينما أعلن جيجو - حاكم إقليم كره - الثورة ضد الحكم الخلجي وهو ابن أخى بلبن وكان يطمع فى استعادة عرش دهلى، وقوى أمره واشتد بأسه وكثر أنصاره، وانضم إليه الكثير من الأمراء والراجات وتعاهدوا وتعاضدوا على الوقوف إلى جانبه ضد نظام حكم جلال الدين فيروز شاه وأعلن جيجوا الاستقلال عن دهلى، بل أعلن نفسه سلطانا، وتلقب بلقب مضيف الدين، وضرب العملة باسمه وأمر بذكر اسمه فى الخطبة، وأعد جيشا كبيرا للزحف إلى دهلى وأملاكها، وإسقاط الحكم الخلجى.

لم يقف السلطان جلال الدين مكتوفى اليدين إزاء هذه الحركة الخطيرة التى تهدف إلى انتزاع الحكم منه، بل عول على إحباطها، فاستخلف فى دهلى ابنه الأكبر ولقبه خان الخانات ركن الدين، وسار هو على رأس جيش كبير، يتكون من عشرة آلاف مقاتل وقسمه إلى قسمين، قسم قاد "أركالى خان"، والثانى تحت قيادته هو، وباغت أركالى الأعداء على حين غفلة منه وهزمهم شر هزيمة. غير أن المتمردين لم يهنوا ولم يضعفوا بل أعادوا تنظيم صفوفهم، ودخلوا مع أركالى وجنده فى معركة أخرى، وما علم جيجوا باقتراب السلطان، أسقط فى يده، وترك ميدان القتال ولاذ بالفرار لا يلوى على شيء، غير أن أركالى خان اقتفى أثره، ولجأ جيجوا إلى قلعة قريبة من ولايته، واعتصم فيها، فحاصره أركالى، وشدد عليه الحصار، ومنع وصول الأقوات إلى القلعة، حتى استسلم جيجوا، ووقع هو وأنصاره فى أيدى جيش دهلى، أما السلطان فقد سار إلى كره، وطهر فى طريقة البلاد من المتمردين وعناصر الشغب، واستعاد كره، وسيق الأسرى المتمردين مكبلين بالسلاسل والأغلال. على أن السلطان الرحيم أمر بفك قيدهم، وان تكفل لهم وسائل الراحة، وبدلا من أن يحاكمهم بتهمة الخيانة والغدر، عفا عنهم،

وتغضى عن خطاياهم وآثامهم، وشملهم بعنايته ورعايته وعطفه، وحذره قواده من هذا التسامح الذى قد لا يؤدى إلى وقف حركات التمر والعصيان، بل ربما تزيد الثورات اشتعالا فى دولته. ولكن السلطان الشيخ استند فى عفوه وصفحه إلى روح الإسلام التى تدعو على تجنب إراقة دم المسلم، وكان يرى أنه فى شيخوخته يجب عليه أن يختتم حياته بالأعمال الطيبة الصالحة. ومهما يكن من أمر فقد أفرج السلطان عن عناصر التمر والفتنة، وأرسل جيجوا إلى الملتان فى ظل حراسه مشددة.

ظهرت حركات معارضة أخرى لحكم الخلجى من بينها حركة دبرها أمراء ونبلاء ألتمش، وتزعمها تاج كوشى، وعقدوا عدة اجتماعات وندوات تحدثوا فيها عن مساوئ الحكم الخلجى وعدم جدارته بتولى زمام الأمور فى الدولة وعدم صلاحية جلال الدين بالذات لعرش سلطنة دهلى، واتفقوا على العمل على إزاحة الخلجيين عن حكم البلاد، ونقل زمام الحكم من جلال الدين إلى تاج الدين كوشى، ودبروا مؤامرة لاغتيال السلطان الخلجى. غير أن تفاصيل هذه المؤامرة نمت إلى علم السلطان، فأرسل إليهم يهددهم ويتوعدهم بسفيه إن لم يعودوا إلى الولاء والطاعة، ويقلعوا عن التآمر والتمرد فخشوا مغبة عصيانهم، وأرسلوا إليه وفدا يعتذر عما بدر منهم ـ ويطلب من السلطان العفو والصفح ويعلن عودتهم إلى الولاء والطاعة، عفا السلطان الطيب عنهم. وبذلك أحبط جلال الدين هذه المؤامرة بالطرق السليمة.

وتعرض جلال الدين لمؤامرة أخرى كادت تقضى عليه، ورأس هذه المؤامرة "سيدى مولى" وهو درويش من بلاد فارس، لجأ إلى الهند عقب الغزو المغولى لها، وأقام فى دهلى إبان حكم بلبن، وعاش فيها زهد وتقشى وخشونة، يتبسط فى طعامه ويلبس الخشن من الثياب، ومن الغريب أنه يتعفف عن أموال الناس، فلا يقبل ما يعرض عليه من منح وهبات، ورغم ذلك كان يتفق عن سعة، وبنى

خانقاه عظيمة، ووفد عليه الناس من كل مكان بعد أن بلغ صيته الآفاق، وكان يستضيفهم ويكرم وفادتهم، ويدفع هذه النفقات الكبيرة من ماله الخاص، ودهش الناس وأخذتهم الحيرة لعدم معرفتهم مصدر هذه الأموال حتى اعتقد بعضهم أن له صلة بالجن أو معرفة بالسحر.

كثر أتباع هذا الرجل من الصوفية والفقراء والمساكن والنبلاء أيضا، ونظر جلال الدين إليه نظرة شك وريبة فحضر مجلسه متنكرا، وشاهد بنفسه التفاف الناس حوله، وأتضح أن سيدى مولى ليس درويشا ولا متصوفا، وإنما يتخذ من هذا المظهر وسيلة لتحقيق أغراض سياسة، فقد كان بكثير من الاتصال بالأمراء والنبلاء وقواد بلبن المعارضين لحكم جلال الدين، وبلغ من ازدياد نفوذه أن خان الخانات ركن الدين بن جلال الدين أصبح من مريديه، وتدخل الشيخ الدرويش فى النزاع الذى حدث بين ابنى جلال الدين حول ولاية العهد، وحاول كل منهما تقوية مركزه بضم الأنصار والأعوان له، ومن ثم ظهر حزبان فى دهلى، الأول موال لخان، ويضم المناهضين للدرويش، وحرص خان الخانات على أن يخاطب الدرويش، وحرص خان الخانات على أن يخاطب الدرويش بالأبوة حتى يكتسب إلى جانبه أنصار الدرويش.

حرصت الحركات المعارضة للحكم الخلجى على نيل رضا الشيخ الدرويش حتى أن أبناء أمراء العهد البائد تطلعوا إلى الشيخ للوقوف إلى جانبهم فى استعادة نفوذهم، وخلع السلطان الخلجى.

ومهما يكن من أمر فقد دبر هؤلاء المعارضون للحكم الخلجى مؤامرة لاغتيال السلطان جلال الدين وهو ذاهب لصلاة الجمعة فى مسجد دهلى الكبير، وبعدها يعلنون سيدى خليفة ويتزوج من ابنة السلطان ناصر الدين غازى كيلانى، ويحصل على لقب غازة خانه ثم يعين أبناء بلبن فى الوظائف الرئيسية فى الدولة، على أن هذه المؤامرة فشلت فشلا ذريعا، فقد علم السلطان بأنبائها ومخططها، وأمر بالقبض على جميع المتآمرون وأجبروا بالعنف والشدة على الاعتراف بتفاصيل

المؤامرة، وأمر السلطان بإعدام المتآمرين على حـياته - وعلى رأسهم سيدى مولى، وامر بنفي وجن المتآمرين الآخـرين، ولقد كان لمقتل سيدى مولى صـدى كبير فى دهلى فقد غضب أنصاره ومريده لمقتله، وبنادوا بالانتقام لمولاهم الذى قتل ومالت شهيدا حسب اعتقادهـم. غير أن ثروتهم أخمدت. وبذلك نجا السلطان ودولته من محاولة قلب حكومته.

لم تنته متـاعب السلطان الخلجى عند هذا الحد، بل واجه حركة اسـتقلالية عن دولته تـزعمهـا مدينة رانثـمبـهور، وجدير بالـذكر أن هذه المدينة كـانت قوية التحـصين حـتى أن الغوريين لم يستطـيعوا الاسـتيلاء عليـها، واسـتطاع ألتامش السيطرة علـيها سنة ١٢٢٦م، واسـتعادها الراجـبوتيون فى عـهد السلطانة رضـية المضطرب، ولما ولى بلبن السلطة استردها، ولكنهـا عادت إلى الثورة من جديد فى عهد جـلال الدين الخلجى. ولم يتغاض هذا السلطان عن هذه الحركة الانفـصالية فأنتـاب عنه فى دهلى، ابنه أركالى خان وسـار هو على رأس جيش كبيـر لإعادة الأمن والهدوء إلى هـذه المدينة فى مارس سنة ١٢٩١م، واجتـازت قواته صـحراء الثأر القاحلة الموحشة، وقاسى الجند لإعادة المن والهدوء إلى هذه المدينة فى مارس سنة ١٢٩١م، واجتازت قـواته صحراء الثأر القـاحلة الموحشة، وقاسى الجند فـيها ألوان العذاب واهلك العطش والجـوع الكثير منهم، وظلوا على الحال عـدة شهور أكلوا مـعظم دوابهم، ومهـما يكن من أمـر فقـد بلغ جلال الدين وجنوده مـدينة رانثمبهور، وأرسل فرقا استطلاعية لاختبار قوة المدينة وحشد جيشه على حدودها، ورأى السلطان أن يستولـى على مدينة غين jhaijn قبل رانثـمبهـور حتى لا يطعن جندة أثناء هجموها على رانثمبـهور، وباغت الجند الخلجى غين، وألقوا الذعر بى سكانها، وقتلوا الكثـير من سكانها، ولم يستطيع راجا هذه البلدة دفع الخليـجيين عن ديراه، وفر من نجا جلال "عـين" وضمها إلى حوزته، وأعجـبه جمال البلدة وروعة ما فيها من تماثل منقوشة من الحجر أو الخشب فى قصر الراجا، وزار معابد البلدة، وشاهد نقـوشها البديعة وتحـفها الذهبية والفـضية الرائعة، غـير أن جلال

الدين أمر بإحراق التماثيل والتحف لأنها ترمز إلى عبادة الأصنام، وأخذ قطعتين من البرونز من تمثال لبرهاما وأمر بتفتيتها إلى قطع صغيرة، ووزع بعضها بين ضباطه وجنوده وكبار موظفى دولته، وزين بالبعض الآخر بوابات مسجد دهلى الكبير.

وبعد أن استولى جلال الدين على غين، أرسل فرقا من جيشه إلى مالوا malwa وحطمت معابدها وعادت محملة بالغنائم والأسلاب. وقد مهدت هذه العمليات الحربية لشن الحرب على رانثمبهور، وإعادتها إلى حوزة دهلى، وكان صاحبها قد أعد جيشا كبيرا لصد هجوم جلال الدين، وانضم إليه عدد كبير من راجات البلاد المجاورة، وتعاضدوا جميعا على صد الجيش الخلجى، وحصنت المدينة خير تحصين، ولما نمى إلى علم السلطان قوة تحصين البلدة، واستعداد أهلها الكبير للدود عنها ودرء هجمات العدو، خشى إن اشتبك معه أهل رانثمبهور أن يقتل ويجرح الكثير من جنوده المسلمين، وهو كرجل مسلم يحرص على عدم إراقة دم المسلمين الذى يؤدى بالضرورة إلى ترميل النساء، وتيتيم الأطال، وهو أمر لا يحتمله، ويخشى وقوعه، لذا قرر هذا الشيخ الطيب الرحيم رفع الحصار عن رانثمبهور وأمر بانسحاب لنصيحة قواده ومستشاريه بسوء عاقبة هذا العمل وما ينجم عنه من ضياع هيبته بين سكان هذه البلاد. وفعلا كان لانسحاب جلال الدين أثر كبير فى تشجيع الحركات الانفصالية، فقد استردت غين استقلالها، وخرجت رانثمبهور من هذه المحنة ظافرة منتصرة، وتحقق أملها وحلمها فى الانفصال عن دهلى.

ومن أهم الأحداث الداخلية التى شهدتها سلطنة دهلى، تآمر علاء الدين على عمه السلطان جلال الدين، فقد كان هذا الأمير، طموحا يتطلع إلى العرش على الرغم من أن عمه الفسلطان قد أسند ولاية عهده إلى ابنه ركن الدين، وكان علاء الدين قد ولى من قبل عمه حكم إقليم كره سنة ١٢٥٤م، وأسند إليه قيادة بعض الغزوات فى أرجاء الهند كان آخرها الدكن، وأحرز من هذه الغزوة بعض

الانتصـارات، وعاد إلى كره محـملا بالغنائم والأسلاب، وحـينئذ واتته الفـرصة لتدبيـر مؤامرتاه ضـد السلطان، فأرسل إليـه يخادعه ويدعـوه إلى زيارته، ويزعم ولاءه ومحبته له، ولم يجد السلطان الشيخ غضاضة فى الاستجابة لدعوة ابن أخيه على الرغم من تحـذير رجـاله له، وسـار إلى كـره، وافلح عـلاء الدين فى إقناع السلطان بنزع أسلحة جنده منعا لحدوث صدام بين جند كره وحند دهلى، أما علاء فقد أعد جيشه وزوده بالأسـلحة والمعدات، وزوده بالخيل والفيلة، وركز جنده فى عدة مـواضع. ولما وفد السلطان على ابن أخـيه، وأدرك سوء نوايـاه، تاسقط فى يده، وأرك أنه لا محـالة هالك، وانصرف إلى قراءة القرآن، هنا أمـر علاء الدين بقـتل السلطان، ولما نفذت المؤامـرة أعلن عـلاء الدين بقتل السلطان، ولما نـفذت المؤامرة أعلن عـلا الدين نفسه سلطـانا، وركب جنده الفيلة، ورفعـوا رأس جلال الدين على حربة، وتجولوا بهـا وقد أدى موقف أركالى خان إلى تقـوية شأن علاء الدين، وزيادة الضـعف والانقـسام فى جـيش دهلى، وبالغ عـلاء الدين فى بذل الأموال والهدايا لأنصـاره حتى انضم إليه الكثير من جـند ركن الدين، فأسقط فى يده، واعتزل العرش، ومهد ذلك لعلاء الدين أمر توليه العرش فى دهلى.

دخل عـلاء الدين دهلى سنة ١٢٩٦م، وأعلن نفـسه سلطانا، وقـبض على ركن الدين إبراهيم، وسمل عينيه كما زج بأمه فى السجن، واستصفى أموال أصار الحزب الجلالى، ولقب بأبى المظفر السلطان علاء الدنيا والدين محمد شاه خلجى، وضرب العـملية باسمه، وأقـيمت الخطبة باسـمه، وفرض الهـدايا على النماس، وأقيمت الزينـات السرادقات فى كل مكان، وأقبل الناس عليـه كل صوب وحدب مـؤيدين ومبـايعين. وبـذلك تربع علاء الدين على عـرش سلطنة دهلى بعـد أن تلخصم عمه وابن عمه، وقوى من شانه وجذب الأنصار والأتباع له.

لما ولى علاء الدين السلطة، واجه مـشاكل داخلية وخارجية معـقدة، فبلاده هدف لغزوات المغول من الشـمال الغربى سنويا، وهذا الغزو يقتـرن عادة بالخراب والدمـار، واقتطاع أراضى من مملكتـه، كذلك انتـقم أركالى خـان - ابن السلطان

جلال الدين - من عــلاء الدين، فاســتقل بإقليم الملتان، وضم إلــى حوزته السند والبنجــاب ن وبذلك اقــتــطع من سلطنة دهلى بلادا واســعــة، وفى الــسند مملكة الكجرات الغنيــة ويحكمها الأميــر الراجيوتينى وبالقــرب من الكجرات تقع ممالك الأمراء الراجيبــوتيين فى صحراء الثأر، وكل إمارة مســتقلة عن الأخرى، وتحرص على الانفصال عن دهــلى، ولم يستطيع سلاطين دهلى من قبل إخــضاعهم، ومن ناحية أخــرى توجد ممالك مثل شيــتور ورانثمبــهور تقف من دهلى موقفــا عدائيا ـ يضــاف إلى أن بعض إلى بلدان سلطنة دهلى مــثل ملاوى ويوجــين لم تتأثر بعــد بالحضــارة الإسلامية، بل تنتــهز الفرصة المواتــية لاستقــال عن دهلى، وتقف منها عدائيــا عدائيا أمــا البنغال فولى حكمــها ناصر الدين مــحمود بن بلبن وأعــقابه، واستقلوا عن دهلى. وحكم الدؤاب وما جاورها أمــراء مستقلون عن دولة الإسلام فى الهــند. وبذلك ولى عــــلاء الدين السلــطنة، فى وقــت تفككت فــى الدولة الإسلامية فى الدولة الإسلامية فى الهند، وانفصل عنها الكثير من أقاليمها.

Baghela Ujjain Dhar chittor

ولى عــلاء الدين السلطنة فى وقت كــانت فى اشــد الحاجــة إلى رجل دولة مثله، فــالسلطان الجديد يختلف عن ســلفه جلال الدين فهــو يمتاز بقــوة البأس، والحزم وحسن التدبير، والكفاءة العــسكرية والإدارية، فقبض على زمام الأمور بيد من حديد، وبذل قصــارى جهده فى إعادة الوحدة إلى دولتــه، وإنقاذها ممن الهوة التى تردت فيها، ودرء الخطر الخارجى عنها.

وأبرز أعداء السلطان الجديد، وهم أبــناء جلال الدين ونبلاء دهلى، وهؤلاء يعــارضون العــهــد الجديد كــما أن الــراجات الذين اســتــقلوا عن دهلى فى أثناء الاضطرابات التى حدثت فى أواخر جلال الدين، وبعد مصرعه من واجبه إعادتهم إلى الولاء والطاعة له، وكــان عليه تنظيم إدارة البلاد، وتقوية الحكومــة المركزية، وضمان طاعة وولاه القادة العسكريين، والحكام المسلمين فى الولايات.

أعد عـلاء الدين جيشا فى سنة ١٢٩٦ لإخـضاع أركالى خان الذى اسـتقل بالملتان وغيرها - وسار هذا الجيش إلى الملتان ولم يستطع أركالى له دفعا بل قبض عليه وعلى إخوته قاربه وقادته وعوقبوا أشد العقاب وصودرت أموالهم وأمتعتهم، ونكل بهم أشد تنكيل. وبذلك استرد إقليم الملتان وبلاد البنجاب والسند، وضمها إلى حوزته.

لم يكتف علاء الدين بذلك، بل صادر ممتلكات نبلاء جلال الدين، والأمراء والملوك الذين عملوا تحت قيـادته - ولكن لا يطمئن إلى ولائهم، وحرص على لا التنكيل بكل من حامت حـوله الشبهات بعدم الولاء والطـاعة له، وذلك بالمصادرة والسجن والتشويه، وبذلك والولاء له، وجمع من المصادرات أموالا طائلة، مكنته من توسيع رقـعة دولتـه، ودر الخطر عنها، والتـصدى للحركـات الانفصـالية فى المملكة.

تتابعت انتصارات علاء الدين وفتح الكثير من البلدان، وضمها إلى حوزته، وحـالفه التـوفيق فى دفع الغـزو المغولـى المدمر عن الديار الإسـلاميـة فى الهند، فأخـذته نشوة النصر كل مـأخذ، وركبـه الغرور، وذهب عنه صوابه، فـتوهم أن باستطاعـته أن ينجز إنجـازات الاسكندر الأكبر من حـيث غزوه للعالم أو مـحاولة ذلك، وقهر الدنيا تحت سلطانه، بل ذهب إلى أبعـد من ذلك، فقد تصور أنه نبى لدين جديد وصـاحب لا رسالة الأربعة وبدأ يتـحدث عن إمكانية نشـر دعوته فى أرجاء الدنيا، واستطاع بقوة بأسه وقوة جيشه وجنده التبشير بالدين الجديد والرسالة الجديدة، واسـتهوته قـصص وأحاديث الشعراء والمـؤرخين والأدباء عن الاسكندر الكبر، والتف حـوله الانتهازيون الراغـبون فى تحقيق منـافع شخصيـة، فزينوا له صـحة مـا توهمه، وروجـوا دعوته، وهيـأ السلطان نفـسه لأن يصـبح الاسكندر الثانى. ومما لا شك فيه أن رجال البلاد والقادة المقربين إليه قد وافقوه لا اقتناع بل اتبعوه رهبة منه، وخوفا من قسوته وبطشه، فلم يسعهم إلا التعبير عن رضاهم.

تصور السلطان أنه على حق فـيما ذهب إليه، وجنون العظمـة إلى التمادى فى أفكاره وخيالاته وكان السلطان يقيم الحفلات الكثيرة، ويجمع فيها أكبار رجال دولته، ويـتحدث فـيهـا عن دعوته، وفى هذه الحـفلات حـذره عمه عـلاء الملك القاضى من خطورة ما ذهب ليه على ملكه، وعلى الوضع المال داخلى فى البلاد، ومن انتفاضــة الكثيرين من الغيورين على دينهم، فـقال: عن الدين يوحى به الله للخيار من عباده، ولا يمكن أن يكون يفعل أو يصنع إنسان وقال: إن الإسلام دين الحق يمكن القضاء عليه. حتى إ قهار العالم وجبابرتهم مثل "جنكيزخان"، أراقوا من دماء المسلمين ما أراقوا ولكنهم لم ينالوا من الإسلام شيئا، بل دخل المغول فى دين أفـواجا، وأوضح أن الناس إذا وجـدوا السلطان يشككهم فى مـعقـداتهم فن يسمعوا له ويطيعوا بل سيـدمرون ملكه، وبذلك تعم الفوضى البلاد، وينتهز أمراء الأقاليم فرصة هذه الفوضى، ويحقـقون أملهم فى الاستقلال عن دهلى. وأوضح علاء الملك للسـلطان أن النبوة لا تأتى الملوك، وإن كان بعـض الرسل قد أوتى من الملك نصـيبا، وأمـا عن فكرة قهـر العالم، فـقد أوضح عـلاء الملك للسلطان أن الظروف تغيرت، وإن الإسكندر كان يستند إلى حكم الحكماء مثل "أرسطو" الذى أوتى الحكمـة وفـصل الخطاب، وهو مـالا نظيـر له عند عـلاء الدين، كـمـا أن الاسكندر ورث عن أبيه فيليب المقدونى، دولة اليونان الموحدة ذات الإدارة القوية.

وختم القاضى نصـيحته للسلطان بقـصر جهوده وتركيـزها فى إخضاع بلاد الهند لسلطانه، وقهر الكفـرة فيها، والدعوة على الإسلام فـى غير وبلاد الإسلام وإصلاح البلاد، والقضاء على الفتن والثورات وحـماية البلاد من هجمات المغول، وقد لقيت نصيحة علاء الملك أذنا صاغة من السلطان فأقلع عن فكرة الدعوة لنبوته وتأسيس دين جديد والتـفرغ للغزو والفتح وإصلاح الـبلاد؟ وبذلك عدل السلطان عن دعـوته التى كانت سـتؤدى إلى ثورات وانـتفـاضات فى المملكة. قـد يذهب ضحيتها السلطان أو تفكك عرى الوحدة فى البلاد.

تعرض علاء الدين لمؤامـرة كادت تودى بحياته، وقاد هذه المؤامـرة ابن أخيه

سليمان شاه، وكان يشغل منصب وكيل الدار، وأراد بخطبته أن يسقى علاء الدين نفس الكأس الذى أسقاه لجلال الذين، ويتـولى هو - أى سليمان شاه - السلطنة، وكان علاء الدين قـد أرسل عدة حملات إلى نواحى الهند للفـتح والتوسع، بينما سار هو إلى رانثـمبهـور، وتوقف فى تلبات tilpat لبعض الوقت، وباعـته قواده الذين أنضموا إلى سليمان شاه فى مؤامـرته ورموه السهام فأصيب بجراح شديدة، وأعلن المتآمـرون مقـتله، وأعد سليمـان شاه العـدة لتولى السلطنة، وسـاد الذعر معسكر السلطان، وتفرق الجند السلطانى. وفى خضم هذه الفوضى. أخفى أنصار السلطان، السلطان، وضمدوا جراحاته، وعالجوه خير علاج وأنجعه. وحينما توجه سليمان شاه - رأس المؤامرة إلى المعـسكر السلطان مطالبا تسليمه له، رفض رجال علاء الدين ذلك، فـجأة حدث مـال يكن فى حساب المتـآمرين، فقد ظهـر علاء الدين فجـأة وإن كان ضعيـفا من ثار الجروح، فـأسقط فى أيدى المتآمـرين فلاذوا بالفرار بقيادة رئيسهم شاه لا يلوون على شىء إلى أفغانستان، وبذلك أحبطت هذه المؤامرة التى كادت أن تؤدى بالسلطان عـلاء الدين وتمهيد السبيل لتـولى ابن أخيه سليمان شاه سلطنة دهلى.

رأى علاء الدين ضرورة استئصال شأفة فأرسل فرقا من جيشه إلى أفغانستان للقبض على المتآمرين، وأدى الجيش مهمته فقبض على سليمان شاه وقتل وحملت رأسه إلى مـعسـر السلطان وانتقم السلطان شـر انتقـام من المتآمـرين فأمر بقـتلهم ومـصادرة أمـوالهم، وسبى نسـائهم وأطفالـهم، وتوزيعهم على القـلاع، وبذلك فشلت محاولة التخلص من علاء الدين، وخرج من هذه المحنة قويا.

على أن اغتـصاب علاء الدين العـرش من عمه سبـب له متاعب كثـيرة إذ أصبح واضـحا عدم، جود قـاعدة ثابتة لوراثة الملك وكان ذلك من أسـباب طمع سليـمان شاه فى اغـتصـاب العرش، واشـغل بعض أمراء الأسـرة ثورة فى دهلى منتهزين فرثة غياب علاء الديـن عنها، وطالبوا بعزل السلطان، وتولية واحد منهم الحكم مبررين تذمرهم بشدة السلطان وقسوته، واستبداد وجوره، وغير أن حكومة

دهلى قبضت على المتآمرين، وسيقوا إلى علاء الدين فى رانثمبهور، بأمر بسلمهم، وزجهم فى السجون، ونكل بأتباعهم.

ولم تنته متاعب علاء الدين عند هذا الحد، بل واجه حركه ثورية أخرى ضد نظام حكمه قادها "حاجى" مولى وهو رجل طموح واسع الاطماعه، كان يشرف على إدارة بعض الأراضى الملكية، ولقد بدأ حاجى مولى مؤامرته بالتصدى لتيرميزى Tirmizi، الذى عهدت إليه حكومة دهلى بإصلاح بوابة بادون، وعرف عن هذا الرجل شدة البأس والعنف والغطرسة، لذا أضمر أهل دهلى له السوء، وبينما صاحبنا يصلح بوابة بدون أحاط بمسكنه عدد من الأكواخ أقان فيها العمال الذين عهد إليهم بتشييد القلعة، وتوجه حاجى مولى إلى منزله، زعمال أنه يحمل إليه رسالة من السلطان، وبينما تيرميزى يتسلم الرسالة باغته حاجى ورجاله وقتلوه، واخرج من جيبه خطابا للناس نسبه إلى السلطان زعم فيه أن علاء الدين أمره بقتله، وقد أخذ الناس الجزع والفزع بعد هذا الحادث حتى أغلقوا منازلهم وانضم إلى حاجى مولى المتذمرون من علاء اليد، والجند الفارون من جيشه بعد أن أضناهم طول الغياب فى الحرب والقتال. وأفح حاجى مولى فى إشاعة الفوضى والذعر فى دهلى، والتمكين لنفسه، وقاد أتباعه إلى السجون، وأمرهم باقتحامها، والإفراج عن نزلائها، فكثر أتباعه وقوى أمره، واشتد بأسه، وأطلق لأتباعه العنان فنهجوا خزينة الدولة، ووزع الأسلحة والخيول والأموال على أصحابه وحصل على أموال طائلة من أعمال السلب والنهب التى قادها، واختار طفلا من سلالة ألتمش، وأعلنه سلطانا بدلا من علاء الدين الذى أعلن عزله، واعتزم أنه يحكم البلاد باسم هذا الطفل، وقد لقيت خطته قبولا من كثير من سكان المملكة إما رهبة أو كراهة لعلاء الدين، فوفدوا على السلطان الجديد وبايعوه وقدموا له فروض الولاء والطاعة.

كان طبيعيا ألا يقف علاء الدين مكتوف اليدين إزاء هذه الثورة التى هدمت دولته وملكه، فاتخذ الأهبة لإخمادها، وعهد بهذه المهمة إلى ملك حميد الدين،

وبلغ خان، وسار جيش السلطان إلى دهلى، اشتبك مع حاجى ورجاله فى عدة معارك، انتهت بهزيمة حاجى، وسجق قوات التمرد، وقتل حاجى مولى، وعلقت رأسه على حربة، ودار بها الجند فى شوارع دهلى، ثم أرسلت على علاء الدين فى رانثميهور، وحرص حميد الدين على استئصال الفتنة من جذورها،ـ فأمر بالقبض على أعوان وأنصار حاجى مولى، وصادر أموالهم، التى يسر حاجى لهم نهبها، وأودعت هذه الأموال فى خزينة الدولة، وانتقم حميد الدين من الثوار فقتل كل

من قبض عليه. وما لاشك فيه أن إخماد الثورات التى قامت ضد علاء الدين بالعنف والقسوة أدى إلى استتباب الأمر للسلطان، وإعادة الهدوء والسكينة إلى البلاد، وإخماد الفتن والثورات، وتوقف حركات التمرد والعصيان.

على أن كثرة الثورات التى حدثت ضد السلطان علاء الدين جعلته كثير الشك والريبة فى رجال الدولة حتى المقربين إليه، فيتهمه بعض المؤرخين بتدبير اغتيال يلغ خان أثناء سيره إلى دهلى لقمع حركة حاجى مولى، إذ خشى أن ينتزع سلطانه، ولكن باراتى يشك فى هذه الرواية التى رددها بعض المؤرخين، ذلك أن يلغ خان كان شديد الإخلاص للسلطان، وحزن عليه علاء الدين كثيرا،/ بل أمر بتوزيع الصدقات على روحه.

غادر السلطان الدين رانثمبهور، واتجه إلى دهلى، وتردد كثيرا فى دخولها، وبقى فترة من الوقت يجول ويصول فى ضواحيها، ولا يجسر على دخولها، لأن دهلى كثيرة الثورات ضد الحكم الخلجى، وزامر قواده بتطهير العاصمة الهندية من المتمردين، ولما اطمأن إلى استتباب الأمن والنظام فى دهلى، وخلوها من عناصر الثورة والفتنة دخلها، واخذ فى إصلاح أحوالها، وحل مشاكل الجماهير بها.

واستطاع علاء الدين بفضل ما بذله من جهد إعادة الأمن والطمأنينة إلى البلاد غير أنه لم يضع الحلول المناسبة التفادى المشاكل لتفادى المشاكل الناجمة عن عدم وضع قواعد ثابتة لوراثة عرش دهلى، الأمر الذى أدى إلى حدوث ثورات

وفتن حول اغتصاب الحكم. بأبعد عن البلاط كل أعوان وأنصار سيده علاء الدين، وجردهم من وظائفهم وأسندها إلى أعوانه وأنصاره.

على أن كافور لم تصف له الأمور، ولم تبتسم له الأيام طويلا، ولم يسعد بالسيطرة على سلطنة دهلى على الرغم من إجراءات العنف وسياسة البطش والقمع التى اتخذها ضد المشتبه فيهم، فقد تذمر منه الناس وترقبوا ساعة الخلاص من هذا الحكم الغاشم، وأحاطوا كل تحركاته بالتجسس، وبرت الكثير من المؤامرات للتخلص منه، وأخرها حدث حينما أرسل فريقا من جنده لقتل مبارك خان فى سجنه، ولما اقترب الجند من هذا الأمير، ألقى ما لديه من ذهب وفضة لهم وناشدهم عدم التعرض له، فاستجاب الجند لندائه، وتيقظ ضميرهم، ولم يكن غائبا عن أذهانهم أن كافور رجل ظالم مستبد، وين ألوان للتخلص منه، وتمردوا عليه، بل ساروا إلى قصره، وشنوا عدة هجمات على القصر، وتمكنوا من اقتحامه أخيرا، وقتلوه، وبذلك خلصوا البلاد من استبداد وبطش وجور كافور الغاشم الذى حكم البلاد خمسة وثلاثين يوما ارتكب خلالها أعمالا عدوانية بشعة ضد أفراد البيت الحاكم ورجال سيده.

لم يكتف الثوار بذلك، بل أفرجوا عن مبارك وعينوه نائبا للسلطان شهاب الدين بدلا من كافور، وقد بدأ حكمه للبلاد بداية حسنة، فأعطى النبلاء والقواد ورجاله أمانا على أنفسهم، ورد إليهم الأموال التى صادرها كافور منهم فطابت نفوسهم ورضوا عنه وناصروه والتفوا حوله وأيدوه، غير أنه عاد الاستبداد وأعمال العنف، وحديثه نفسه بالانفراد بالسلطة فنفى شهاب الدين عمر إلى جاوليار، وعزله عن العرض وولى هو السلطنة ولم يعد له منازع فى الحكم أو البلاط واعتزم تحطيم وتدمير كل مراكز القوى التى بالمملكة، والتى قد تضعف نفوذه أو تعرقل سياسته، وبدأ بالجند الذين أفرجوا عنه، وقتلوا كافور، وولوه بدلا منه فشتتهم فى البلاد، ورفض الاستعانة بهم فى إدارة دولته، وفى نفس الوقت تخلص من أنصار كافور، وكل من يخشى بأسه.

كان كافور خصم علاء الدين مقربا إليه وصاحب حظوة عنده، وكان طموحا يتطلع إلى السيطرة على مقاليد الأمور فى البلاد عقب وفاة سيده، فانتهز فرصة اشتداد مرض السلطان، وحمله على كتابة وصية بتولى ابنه الطفل عمر خان - وكان غرات صغيرا لا يتجاوز السادسة من العمر وفى نفس الوصية طلب السلطان من ابنه الأكبر خسرو خان التخلى عن المطالبة بالعرش، ولزوم الولاء والطاعة لأخيه الصغير، وعهد السلطان إلى كافور بالوصاية على ابنه الطفل، وبذلك حقق كافور على يد سيده السلطان ما كان يصبو ويتطلع إليه من الاستئثار والنفوذ فى سلطنة دهلى.

لما توفى علاء الدين سنة ١٣١٦م جمع كافور النبلاء وكبار رجال الدولة، وأظهر لهم وصية السلطان الراحل التى أودعها إياه والتى تتضمن تولية ابنه شهاب الدين عمر. وبذلك خلف هذا الطفل الصغير أباه ولقب شهاب الدين عمر خلجى. وبتوليته أصبح كافور سيد الموقف فى سلطنة دهلى بلا منازع.

ولكى يكتسب كافور احترام وتقدير الناس، وتزداد سيطرته على السلطان الطفل وعلى الحكم، تزوج من أمه راما ديفا Rama Deva وأمر بسمل عين خسرو خان الابن الكبر للسلطان علاء الدين وأخيه شادى خان، حتى لا يطالب أحد الأخوين بالعرش بعد أن فقدا الإبصار، ولم يكتف بذلك، وإنما جرد والدة خسرو خان من حليها، وأمر بنفيسها إلى جاوليار.

وشعر كافور أنه غير آمن عل نفسه، وفعلا اشتدت المعارضة له ولحكمه، واستنكر الناس فعله واستقبحوه، ولم يرضوا عن سيطرته على الحكم، فضلا عن تشويه وإذلال بعض أفراد البيت الحاكم، وعادت الفوضى والاضطرابات إلى البلاد، فسعى إلى حماية نفسه من أعدائه المتربصين به، فعمد إلى نفى كل من تحوم حوله الشبهات من الأمراء وقواد الجيش وكبار رجال الدولة، بل شوه بعضهم بالسهام، وصادر أموال معارضيه فضلا عن إلحاقه ويلاته بهم، وازدادت شكوكه.

أعلن مبارك شاه نفسه سلطانا في أبريل سنة ١٣١٨ وبدأ عهده كما فعل أسلافه من قبل بمنح الهبات والهدايا والألقاب لكبار رجال الدولة.

كانت البلاد في ذلك الوقت تمر بظروف حرجة للغاية وفي أشد الحاجة إلى حكومة قوية تنقذها من الهاوية التي تردت فيها، وترأب الصداع، وتعيد الأمن والطمأنينة إلى الناس، بعد أن فرقت بلادهم الفتن والثورات، وعمت فيها القلاقل والاضطرابات نتيجة للمنازعات والمشاحنات حول السلطة والنفوذ، وأدى السلطان الجديد في مستهل عهده دوره في إعادة الهدوء والسكينة إلى البلاد، وأثبت أنه رجل الساعة، وأصلح البلاد فاطمأن الناس إلى العهد الجديد.

وأفرج السلطان عن اللوف الذين زجوا في السجون بتهم التمرد - أو الاشتباه في ذلك - على كافور، ومنح الجند مكافآت مالية، وأغدق المال على المحتاجين من رعاياه، ووزع الأموال التي صادرها علاء الدين إلى أصحابها، وخفف عن الناس عبء الضرائب ومنع كبار موظفي الحكومة من استغلال الأهلين، وكان ينظر في الشكاوى والالتماسات التي يرفعها الناس له، ويضع بنفسه الحلول المناسبة لها، وألغى القوانين الصارمة التي وضعها علاء الدين على التجار، وكانت تحد أرباحهم فانتعش التجار، وراجت التجارة، وخفف عن الفلاحين ضريبة الأرض، ورفع أجور الموظفين. وباختصار تحسنت أحوال الناس المعيشية على اختلاف طبقاتهم. وإذا أضفنا إلى ذلك الحريات للشعب تستطيع أن تقول إن هذا السلطان حقق لبني وطنه ما لم يحقق لهم منذ سنوات طوال.

على أن رجال علاء الدين لم يرضوا عن السلطان الجديدة، لأنه أقصاهم عن مباشرة شئون الدولة، وعلولا على التخلص منه، وتزعم هذه الحركة أسد الدين، وقد انتقد هؤلاء المعارضون السلطان قطب الدين لسوء اختياره لموظفي الحكومة ورؤساء الدواوين ورجال البلاط، واتهموه بأنه يقضي وقته في اللهو والعبث والاستماع إلى الغناء، وقاد أسد الدين المعارضة في مؤامرة كبرى تهدف

إلى قتل السلطان قطب الدين وهو فى طريقه إلى دهلى، وتوليته أى تولية أسد الدين السلطنة.

لم يقدر لهذه المؤامرة النجاح فقد أخطر كبار رجال الدولة السلطان بالمؤامرة قبل تنفيذها، فتدارك الأمر فى أوله وتلاحقه فى ابتدائه قبل أن تضطرب نار الثورة، ويعم الكرب ويشتد البلاء، فأمر السلطان بالقبض على زعيم حركة الانقلاب المرتقب، وكل من اشترك وساهم فى محاولة قلب نظام الحكم من قريب أو بعيد، وأمر بقتلهم، وصادر لأموالهم، وكان انتقامه شديدا جدا من الثوار حتى أنه قتل أطفالهم، وشرد البعض الآخر فى شوارع دهلى لا مأوى لهم، ولا عائل يعزلهم، ولم يكتف بذلك، بل نصب المشانق فى دهلى وأقام مذبحة مروعة قتل فيها كل من ينتمى إلى البيت الحاكم بصلة وكل من تحوم حوله الشبهات باحتمال قيامه أو اشتراكه فى انقلاب ضده فى المستقبل، واستأصل الفروع والجذور من أسرة علاء الدين، وأسرف فى القتل وإراقة الدماء حتى نائبه الذى كان مخلصا له، واتهمه بالإهمال وعدم كشف المؤامرة فى حينها.

ولكن سياسة العنف هذه لم تقض على محاولة عزل قطب الدين عن العرش فقد ظهرت مؤامرة أخرى اختلف المؤرخون حول اسم السلطان الذى رشحه المتآمرون لتولى الحكم، وضربوا العملة باسمه، فيذكر مؤرخ متاخر أنه ابن خسرو خان بن علاء الدين، أما باراتى فلا يذكر ذلك وينفى اشتراك خسوخان أو أحد أبنائه فى المؤامرة، وعلى ذلك فإن الاسم الذى نقش على العملة، الملك شاهين - نائب السلطان على دهلى والذى قتله السلطان على أثر دخوله دهلى.

لم يكتف السلطان قطب عن أعمال العنف ضد أبناء علاء الدين لأنه كان يتوجس خيفة، ويخشى أن يتآمروا عليه، وينضم إليهم أنصار أبيهم، وهم خسرو خان، وشادى خان، وشمس الدين، وأمر بالقبض عليهم وإرسال أفراد عائلاتهم إلى دهلى، وهؤلاء الأمراء سملت عيونهم، وعاشوا فى المنفى فى شظف من العيش، وعمد السلطان إلى إذلالهم، فكتب إلى خسرو خان رسالة ذكر له فيها أنه

- أى خسرو خان - فقد بصره واعتلت صحته، وعرض عليه أن يفرج عنه، ويعينه حاكما على أحد الأقاليم، ويمنحه الألقاب والامتيازات المناسبة له، فى مقابل أن يتخلى عن زوجته دفال رانى التى قال إنه أصبح ذليلا لها، وطلب منه إرسالها إلى البلاط لتهدئة عاطفته نحوها وإعادتها إليه بعد ذلك جارية مطيعة. على أن خسرو خان قد حزن من هذه الرسالة، ورفض الإذعان لنداء السلطان، وتمسك بزوجته، بل آثر الموت على التخلى عن محبوبته، ورفض إجراءات السلطان له التى يهدف السلطان منها اغتصاب زوجته بالقوة، وقد تعرض خسرو خان فعلا للموت بسبب رفضه عرض السلطان فقد أمر باغتياله، وكان حدثا مروعا اهتزت له قلوب الناس فى كل مكان، ووصفه ابن بطوطة وعلم به مارمو بولو من بعض الهنود، ورواه غيره من الرواة. وأرسلت ديفال إلى دهلى، وأمر السلطان بقتل شادى خان، وشمس الدين وغيرهم واغتصب زوجاتهم، وشرد أطفالهم، وقد وصف لنا بارانى مدى استياء الناس من الجرائم التى اركبها قطب الدين ولكن على الباغى تدور الدوائر.

على أن أعمال العنف التى اتبعها السلطان مع أعدائه لم توقف المؤامرات ضده، ولم تخمد الثورات المعارضة لحكمه فى البلاد، بل زادت اشتعالا، وأبرزت هذه الانتقاضات ما قام به نظام الين أوليا، وهو رجل تقى ورع، طبقت شهرته الآفاق،ووفد إليه الناس من كل صوب وحدب للزيارة والتبرك، وكان علاء الدين يقدره ويعتز به، أما قطب الدين ناصبه العداء، وخشى من تجمع الناس حوله لما فى ذلك من خطورة عليه، إذا قاد هذه الجموع فى حركة غزو ضده فمنع النبلاء وكبار رجال الدولة من زيارته، وحاول إضعافه وإبعاد الناس على التفرق من حوله، كما حرض المشايخ الكبار فى الدولة عليه ولم يكتف بذلك بل أمر بقتله حتى يخمد ما قد يثيره هذا الشيخ من متاعب فى وجه هذا السلطان الظالم.

أدت سياسة السلطان الداخلية المتسمة باليقظة إلى توقف الحركات الاستقلالية فى الكوجرات ودكا، ولكن قسوته على خصومه وإسرافه فى إراقة الدماء،

واستبداده وعدم استماعه لنصح الناصحين، أدى إلى اشتداد كراهة الناس له، وتطلعهم إلى التخلص منه، وبذلك فقد ثقة الرعية به، وازداد بطشه بالناس، وقضى أيامه فى لهو وعبث ومجون بلاطه المغنين والمغنيات والراقصات.

لم تتوقف المؤامرات ضد هذا السلطان على الرغم من بطشه بأعدائه، فاندلعت ثورة ضده فى ديفاكيرى قادها يال لاخى Yaklakhi فعول السلطان على إخماد هذهى الفتنة وأرسل فرقة من الجيش لقمعها، ولكن الثائر لم يعد العدة الكافية لصد جيش السلطان، وكان يعتقد أن جند السلطان سينضمون إليه نظرا لحالة التذمخر السائدة فى البلاد، ولكن حدث ما لم يكن يتوقع، فهاجمه جيش دلهى، وخشى رجاله سوء العاقبة، فانفضوا من حلوه، وعندئذ ضعف أمر الثائر، فقبض عليه جند دهلى وأمر السلطان بقطع أنفه وأذنه، وبذلك فشلت هذه الحركة، واشتدت قبضة السلطان على الدولة، وتأكدت سيطرته الكاملة عليها من جديد؟

ولكن طغيان قطب الدين واستبداده لم يتوقف محاولات قتله واغتياله، فتعددت المحاولات للتخلص منه وكان أخرها مؤامرة وزيره خسرو، فقد نجح فى ضم بعض النبلاء إليه، وعاهدوه على النصرة والتأييد، وانضم إليه الكثير ممن لحقهم الضيم على يده.

بدا الوزير مؤامرته ضد السلطان، بأن أقنعه بأنه أى السلطان يخرج فى حروب كثيرة، ويجب فى غيابه أن يطمئن على الأمن والنظام فيدهلى، ولا يستطيع أى خسرو الاطمئنان لأحد فى هذه المهمة سوى رجاله المقربين من الكجرات، وأغدق عليهم خسروا الأموال، وأعطاهم خيولا وأسلحة وملابس، واستكثر خسرو منهم، حتى صاروا حوالى أربعين ألفا كلهم طوع أرادته ورهن إشارته. وبذلك عظم شان خسرو خان وقوى أمره، واشت بأسه، وعهد إلى رجاله بحراسة القصر، فأصبح هذا السلطان تحت رحمة وزيره، ودبرت المؤامرة، وكان من اليسير جدا نجاحها وتنفيذها وفقا للخطة المرسومة، فأمر خسرو رجاله

بقتل السلطان، فانهالوا عليه ضربا بسيوفهم حتى قتلوه وألقوا رأسه فى فناء القصر. وبذلك تجرع هذا السلطان من نفس الكأس الذى أسقاه للكثيرين فى ابريل سنة ١٣٢٠م. وخاب كل جبار عنيد.

وقد لحق الناس من السلطان قطب الدين الكثير من المظالم، على الرغم من أنه بدأ عهده بالعدل بين الرعية وإصلاح أحوال البلاد، ولكن المؤامرات العدية التى تعرض لها جعلته غير مطمئن على نفسه وعلى ملكه، فاشتد فى قمعها وقلب على شعبه ظهر المحن، فطغى وتجبر، بل أساء إلى مشاعر الناس الدينية، فأهمل المراسم الدينية كالظهور فى الصلاة، والاحتفالات فى رمضان والعيدين وأساء إلى الدرويش نظام الدين، وعلى الرغم من ذلك فقد لقب بألقاب لا يستحقها، مثل خليفة، الأعظم أمير المؤمنين.

ومهما يكن من أمر فقد عبر خسرو خان عن سخط شعب المملكة الهندية على سلطانها، وتخلص منه، لذا نادى به النبلاء ورجال الدولة، وتربع على عرش سلطنة دهلى، ولقب ناصر الدين خسرو شاه، وأمر بالدعوة له فى الخطبة وعلى أنه أمير المؤمنين.

ولى خسر وشاه العرش فى هذه الظروف العصيبة، ولما كان مدينا لبنى قومه من الكجرات فيما بلغه من جاه فقد خصهم بالمناصب الرفيعة فى الدولة، واعتمد عليهم فى شئون الحكم على أن هذا السلطان الجديد اتخذ سياسة تختلف كل الاختلاف عن سياسة أسلافه من الحكام المسلمين، فقد أباح لكفار الهنود إظهار نحلهم ومللهم والتعبير عنها علنا، فنصبوا أصنامهم فى كل مكان، وازداد الأمر خطورة، فاستفزوا شعور المسلمين، ومزقوا المصاحف، ووضعوا أصنامهم فى القصر الملكى، وهاجموا المساجد واقتحموها، ومنعوا المسلمين من تأدية شعائرهم فيها، بل نصبوا أصنامهم فى بيوت يذكر فيها اسم الله.

واغتصبوا البنات المسلمات. ومن الطبيعى أن يرضى كفار الهنود عن السلطان فالتفوا حوله وناصروه، ورأوا فيه خير كعين على المحافظة على شعائرهم

وإظهارها والانتقام من المسلمين، ولم يكتف هذا السلطان بالتغاضى عن إيذاء شعور المسلمين الدينى بل فرض عليهم الأموال، وأغدق عليهم.

وبرر السلطان تصرفه هذا بأنه انتقام من المسلمين الذين دمروا معابدهم، ودمروا أصنامهم، وأحرقوا كتبهم، لذلك يرى البعض أن حكم هذا السلطان مظهر الردة عن الإسلام، ونستبعد ما يذكره باراني بأن السلطان أراد أن يعيد الوثنية إلى الهند، ويعيد البلاد إلى حكم راجات الهنود، ذلك أنه دخل الإسلام وهو طفل صغير وعاش ونشأ فى الحياة الإسلامية وكان شديدا قاسيا حينما اشتبك فى دكا مع كفار الهنود قبل توليته الملك، بل كان أكثر قسوة من أى حاكم مسلم، وفى نفس الوقت ظل على دينه وعقيدته وإن ظل تاركا حركة اضطهاد المسلمين من كفار الهنود تسير فى مجراها دون أن يتدخل لإنهائها أو يشترك فى دفعها، وأبقى على الحكام المسلمين فى الولايات، وربما أراد السلطان بذلك كسب محبة وتأييد فريق كبير من الناس للوقوف إلى جانبه ومناصرته ضد حركات التمرد التى انتشرت انتشارا واسعا ضد هذا السلطان دهلى، ويقودها عادة كبار الدولة من المسلمين ضد هذا السلطان الوضيع الذى ينتمى أصلا إلى طبقة جامعى القمامة فى الهند الغربية، فقد عجل بنهايته بسياسة الغاشمة التى آذت شعور المسلمين، وساد التذمر بينهم، وأعدوا عدتهم للخلاص من هذا الحاكم - ناصر الكفرة الملاعين.

وقد قاد تغلق حركة المعرضة ضد السلطان، فزحف بجيش كبير يضم خيرة جند شمال غرب الهند وصناديدهم، إلى دهلى، فأرسل خسرو خان جيشا لصد عدوه، وقد تناقص جيشه بعد فرار الجند الغيورين على دينهم منه، وانضمام بعضهم إلى جيش تغلق، ومهما يكن من أمر فقد التقى الجمعان فى ديوبالبور De-opalpur وهزم الجيش الملكى، وتفرق الجند، ولاذوا بالفرار، بل فر قائد الجيش الملكى، تاركا الأسلحة والخيول والفيلة والأموال ومهمات الجند واستحوذ جيش تغلق على هذه الغنائم، ثم زحف تغلق وجنده إلى دهلى، وانتظر السلطان مصيره المحتوم وقدره الذى حدده بسياسته الغاشمة.

سار تغلق وجنوده إلى دهلى لا يعترض طريقهم معترض، ولما اقترب تغلق منها نصب معسكره، ودعا الناس فى دهلى إلى طاعته، ولقيت دعوته من أهل دهلى الذين كرهوا خسرو خان الذين أذى شعورهم ومعتقداتهم ثم دارت المعركة الفاصلة سنة ١٣٢٠ بين جيش تغلق وجيش السلطان انتهت بهزيمة جيش السلطان ومقتله أى السلطان وألقيت رأسه فى فناء القصر، كما ألقيت رأس مبارك شاه. وبذلك انتهى حكم خسرو خان بعد أربعة أشهر وبنهايته انتهى حكم سلاطين الخلجيين فى بلاد السند.

***

٣ - الأحداث الداخلية فى سلطنة دهلى الاسمية فى عهد بنى تغلق

ينسب آل تغلق إلى نصر تركى، وكان يقيم فى الهند منذ زمن طويل، وأول من حكم سلطنة دهلى من هذه الأسـرة، غياث الدين تغلق شـاه، قدم بلاد السند فى خدمة بعض التجار فى أيام السـلطان علاء الدين، ودخل فى خدمة أولو خان - أمير السند إذ ذاك فظهرت شجاعته، وتدرج فى سلك الفروسية، حتى صار أمير الخيل، وكـان اولو خان يعـده من كبار الأمـراء، وسمى بالملك الغـازى لأنه صد الكثير من غزوات المغول وهجماتهم، وحاصرهم ونكل بهم، ولما ولى قطب الدين ولاه مدينة دبال وأعـمالها، وعهد إلى ابنه مـحمد تغلق بإمارة الخـيل وظل يشغل وهذا المنصب فى عهد السلطان خسرو شاه، فلما استاء تغلق من خسرو شاه الذى اغتصب الـعرش، وقتل السلطان، وأباح للهنود الوثنيـين إظهار نحلهم، والتنكيل بالمسلمين، وأظهر أمورا منكرة منها النهى عن ذبح البـقر على قاعدة كفار الهنود، وأعلن - أى تغلق - الثورة والخـروج على الطاعة، وكان له ثلاثمائة مـن أصحابه الذين يعتمد علـيهم فى القتال، وكتب إلى كشلوخان - أمـير الملتان - يطلب منه القيام بنصـرته والأخذ بثأر قطب الدين لسابق فضله وإخلاصـه، ولكن كشلوخان اعتـذر لأن ابنه فى خدمة السـلطان فى دهلى، فحرض تغلق ابنـه باصطحاب ابن كشلوخان، والهرب معا من دهلى، فلحق الرجـلان بتغلق، وحينئذ واتت الفرصة تغلق، فحشد أنصاره، وأعد العدة، والتـف حوله الكثير من الناس، فقوى أمره، واشتد بأسه، وانضم إليه كشلوخان وزحف الجيش الثائر إلى دهلى - كما أوضحنا - وهزم تغلق جيش السلطان بقيادة أخيـه - خان خانان - واستولى على خزائنه، وشتت شـمل جنده، وقصد تغلق دهلى، وخـرج إليه خسـروخان فى عسـاكره، وفرق الأموال على أنصاره، ودارت رحى معركـة بين الفريقين انتهت بهزيمة تغلق غير أن الجند السلطانى انشـغل عقب المعركة فى جميع الغنائم فبـاغتهم جند تغلق على حيـن غفلة منهم، وهزمـوهم شر هزيمـة، ولاذ من نجا من العـدو بالفرار،

فدخل جند تغلق دهلى لايعترضهم معترض، ولا يعوق عائق، ودخل تغلق القصر الملكى، وجلى على السرير الملك، وقدم لناس لمبايعته، وبذلك انتقل حكم سلطنة دهلى من الخلجيين إلى بنى تغلق.

لم يقدر لسلطنة دهلى الإسلامية الهدوء والاستقرار فى عهد بنى تغلق، وإنما كثرت القلاقل والاضطرابات فى الدولة وتعرض سلاطين هذه الأسرة للمؤامرات التى تستهدف بالدرجة الأولى انتزاع كرسى الحكم منهم، بل تآمر الابن على أبيه، كما حدث سنة١٣٢٥، ذلك أن محمد بن تغلق ثار على أبيه، وكان الأب ينقم على ابنه تقربه للوالى نظام الدين البذوانى، وساءت منه أمور منها استكثاره من شراء المماليك وإجزاله العطايا واستجلابه قلوب الناس، فلما عاد تغلق من سفره، أمر ابنه بإقامة قصر فى الطريق إلى دهلى، وأقام محمد بن تغلق القصر ومعظم بنائه من الخشب، وصمم هذا القصر بحيث إذا وطئته الفيلة، وقع ذلك القصر وسقط، ونزل السلطان بالقصر، وأطعم الناس وتفرقوا، واستأذنه ولده فى أن يعرض الفيلة بين يديه وهو مزينة فأذن له، فلما وطئت الفيلة القصر، سقط الكشك على السلطان وولده محمود، ولقى السلطان حتفه، ودفن بخارج البلدة التى سميت باسمه، تغلق آباد، وبها كانت خزائن تغلق وقصوره، وبها القصر الأعظم، واستولى محمد على هذه الكنوز، وولى السلطنة، ولقب أبو المجاهد محمد شاه.

كان السلطان محمد بن تغلق غريب الأطوار، فهو أحب الناس إلى إغداء العطاء، وإراقة الدماء، فلا يخلو بابه من مغن يغنى أو حى يقتل، وله حكايات كثيرة فى الكرم والشجاعة، والفتك والبطش بذوى الجنايات، وهو أشد الناس مع ذلك تواضعا، وأكثرهم إظهارا للحق والعدل ويتشدد فى تأدية الفرائض الإسلامية، ويعاقب تاركى الصلاة وفاطرى رمضان.

رأى السلطان محمد بن تغلق نقل حاضرة دولته إلى مدينة ديوكور لحصانتها وتوسطها مملكته الواسعة المترامية الأطراف، ولكى يأمن من خطر المغول الذين

يهاجمون دهلى من وقت لأخر، وأسمى العاصمة الجديدة دولت أباد، وأمر سكان دهلى بترك بلدهم، والهجرة إلى العاصمة الجديدة طوعا أو كرها، وشق الطرق المؤدية إلى دولت أباد، وحمل سكان دهلى أمتعتهم، وهاجروا من مدينتهم الحبيبة إلى قلوبهم كارهين، وساروا إلى مقرهم من مدينتهم على كره منهم فى رحلة شاقة ذاقوا ألوان العذاب، وهلك كثيرون منهم، وخربت دهلى بهجرة أهلها منها، وأصبحت بلدة موحشة، تبكى قصورها ودورها من شيدها وبناها صرحها. أما المهاجرون من ديارهم وبلدهم، فلم يستطيعوا المعيشة فى المدينة الديدة، وقاسوا ويلات الجوع والحرمان، لأن سبل المعيشة فيها غير متوافرة وغير كافية للقادمين الجدد وقد ارتكب السلطان خطأ جسيما لأنه لم يراع الشروط الواجب توافرها فى تشييد المدينة الجديدة، فيجب أن تقع فى بقعة زراعية تكفل لسكانها العمل والعيش، أو على طريق تجارى، يضمن لأهلها المعيشة من عمليات البيع والشراء فضلا عن طيب الهواء للسلامة من الأمراض.

ومهما يكن من أمر فقد تراجع السلطان عن قراره بعد أن أدرك فشل مشروعه، وأمر أهل دهلى بالعودة إلى بلادهم، غير أن دهلى قد تطرف إليها الخراب والدمار، ولم تعد تصلح للحياة، فشيد السلطان لهؤلاء القوم الذين قاسوا الشدائد من سياسته الغاشمة، مدينة قرب دهلى، كفل لهم فيها أسباب الحياة الميسرة، والأمن الغذائى.

لم تستقر الأمور فى سلطنة دهلى فى عهد محمد بن تغلق فقد قامت ضده عدة ثورات، وحركات استقلالية، واضطربت الدولة اضطرابا شديدا فغادر السلطان دهلى - على الرغم مما كانت تقاسيه من مجاعة - إلى إقليم الدكن، لقمع ثورته، لكنه اضطر إلى العودة إلى دهلى بعد أن فتك الوباء بجنده سنة١٣٣٥م، كما أعلنت البنغال الاستقلال عن دهلى بقيادة فخر الدين، ولم يستجب أمراء البلدان المجاورة للبنغال لأوامر السلطان بالخروج إلى البنغال، وقمع الثورة مما يدل على أن سلطان دهلى قد فقد نفوذه فى تلك البلاد.

وعمت الفتن والاضطرابات لاهور وديوكور وغيرها من الولايات الهندية، ولم يستطع السلطان القضاء على هذه الفتن، وتوفى سنة ١٣٥١م بعد أن تدهورت سلطنة دهلى، واستقلت معظم ولاياتها.

لم يكن للسلطان محمد بن تغلق وريث يخلفه، لذا ولى ابن عمه فيروز تغلق الحكم من بعده، وقد حكم هذا السلطان بالعدل، وسار فى الناس سيرة حسنة، غير أنه واجه المتاعب الداخلية، فقد ظلت البنغال على تمردها وتزعم الحركة الانفصالية فيها "حاجى إلياس"، لذا لم يتغاض هذا السلطان عن هذه الحركة، وعول على إعادة البنغال إلى حوزته، وأرسل منشورا إلى الأهلين يدعوهم إلى الاستسلام والعودة إلى الولاء والطاعة إلى الولاء والطاعة إلى سلطان دهلى، ووعدوهم بالعفو والصفح، ورفع الضرائب عنهم سنة كاملة إن استجابوا لندائه، وأذاع فى منشوره بأنه مفوض من قل الخليفة العباسى بالقاهرة، وأن الخروج عليه خروج على الإسلام، وسار هذا السلطان إلى البنغال، وطهر البلاد من طريقه من المتمردين، ودخل إقليم "جنجنكر" ودخل الراجا فى طاعته، بل اعتنق الإسلام، كما أن حكام المدن المجاورة، أقبلوا على السلطان معلنين إسلامهم، والدخول فى طاعته.

كذلك عاد "الزط" فى لاهور وما جاورها إلى التمرد والعصيان، فعهد فيروز شاه إلى أحد قواده لقمع حركة الزط، فدخل معهم فى معركة حاسمة، أدت إلى هزيمتهم، وأسر زعيمهم.

أما عن الدكن فقد اتجه أهلها إلى الاستقلال عن دهلى، وتمكنوا منه فعلا منتهزين فرصة انشغال السلطان بمتاعبه الداخلية والخارجية، وقد تعددت الثورات فى الهند التى نتج عنها ضياع مساحات كبيرة من الأراضى من السلطة دهلى.

على أن هذا السلطان كان محبوبا من رعاياه، فقد كان بارا بالفقراء وأنشأ ديوان للخيرات لمساعدة الفقراء على قضاء ضروريات حياتهم، وتقديم معونات للفتيات فى حالة الزواج، وإعانة الأطفال اليتامى العجزة والشيوخ.

لكن سلطنة دهلى ظلت مسـرحا للقلاقل والاضطرابات. ففى أواخـر عهد السلطان فـيـروز شاه، فـوض هذا السلطان أمـور دولتـه إلى وزيره خـان جهـان ظفرخان، ولكن هذا الوزير أخل بالثقة التى منحا لها السلطان، واعتزم الاستحواذ على العرش، وإزاحـة ولى العهد، "محـمد بن فيروز" من طريقـه حتى يخلوا له الأمر، وضم إليـه فعلا بعض الأمراء ورجـال الدولة، وحرض السلطان على خلع ابنه من ولاية العهـد بتهمة أنـه يتآمر عليه مع بعض أعـدائه، ولكن السلطان فطن إلى سوء نواياه وزيره، وعـزله، ومن ثم انفرد محمـد بن فيروز بأمور سـوء بأمر البـلاد بلا منازع، ولكن هذا الأمـيـر كان سيئ السيرة، قـاد البـلاد إلى الدرك الأسفل، وعكف عـلى اللهو والعبث، بل اعـتـمـد على عناصر السـوء فى البلاد وخارجـه، فثار عليـه الأمراء ورجـال الدولة، والتفوا حـول ابنى أخى السلطان، "بهاء الدين وكمـال". وبذلك أصبح فى دلهى فريقان يتنازعـان السلطة والنفوذ، وتصدى كل فريق لـلآخر، وتدهور الوضع فى البلاد تبعـا لذلك، ودارت معارك دامية فى شـوارع دهلى بين الفريقين، فلم ير السلطان الشـيخ بدا من الخروج من عزلتـه، وظهر للنـاس، وأقنعهم بلزوم الطاعـة والهدوء والسكينة، والتـوقف عن أعمـال الشغب، وكان النداء هذا السلطان الطـيب تأثير كبـير فى قلوب الأهلين، فهدءوا واستكانوا، وكفوا عن إثارة الفوضى والفتن.

عزل السلطان ابنه مـحمد من ولاية العهـد لأنه من عوامل الاضطرابات فى دهلى، وأسند ولاية عهـده إلى حفيـده غياث الدين بن فـتح خان، ولم يلبث أن توفى السلطان الشـيخ، وولى حفيـده الشاب الحكم. على أن السلـطان الجديد لم يكن جديرا بتولى مهام الحكم، وهو من غضاضـة الشباب، فقد انصرف إلى اللهو والعبث وأغفل مـشورة الأمراء وأهل الحل والعقد فى الدولة، فثـاروا ضده، وكثر المعارضون له، وقاد الحملة ضده ابن عـمه أبو بكر، وهاجم الثوار القصر الملكى، فلاذ السلطان بالفرار منـه، على أن الثوار لحقوا به، وقتلوه بعـد أن حكم البلاد ما يقرب من خمسة أشهر، وولى أبو بكر السلطنة.

على أن محمد بن فيروز لم يتغاض عن حركة ابن عمه أبى بكر، واغتصابه العرش، فجمع حوله الكثير من الأنصار فى الدؤاب وقوى أمره، واشتد بأسه، ودخل دلهى واقتحمها، وقبض على السلطان الجديد أبى بكر سنة ١٣٩١، وولى هو السلطنة. على أن البلاد لم تهدأ فى العهد الجديد، وإنما ظلت مضطربة متوترة، وتناقش الأمراء ورجال الدولة حول السلطنة والنفوذ، وانقسم الناس إلى أحزاب وشيع، حتى جنح كثير من حكام الولايات وأمراء الهنادكة إلى نبذ سيادة دهلى والاستقلال بما فى أيديهم من بلاد وحصون.

وظلت سلطنة دهلى فى هذا الوضع المضطرب حتى آخر سلاطين آل تغلق سنة ١٤١٢ ونصب أعيان دهلى دولت خان - من الأسرة اللودية - حلكما على البلاد، وتعرضت سلطنة دهلى للغزو التيمورى فى الفترة من ١٣٩٨ حتى ١٤٩٠م الذى أهلك الحرث والنسل، وأتى على الأخضر واليابس، وأقام الخضر خانيون - الذين خلفوا آل تغلق - دولتهم فى دهلى فى ظل الدمار، وكان خضر خان أول أفراد هذه الأسرة من أمراء فيروز شاه التغلقى، وكان واليا على الملتان، ولما توفى محمود شاه التغلقى أعلن استقلاله.

* * *

الإمارات المستقلة فى عهد الهند عن دهلى

لم يكن سلطان دهلى طوال العصور الوسطى قادرا على السيطرة على الولايات التابعة للملكته، ومن ثم استقلت بعض الولايات عن دهلى وخصوصا البعيدة النائية عنها، حتى اندمجت نهائيا فى إمبراطورية المغول، وهذه الإمارات "Jaunpur Mandu" وكشمير والبنغال، واستقلت كذلك مملكة "الكجرات" سنة ١٤٠٠وشيد السلطان أحمد شاه ١٤١١ - ١٤٤١مدينة أحمد آباد لتكون عاصمة لمملكة الكجرات، وتقع فى وسطها، وتشتهر هذه المملكة بثرائها، وتقدمها فى صناعة المنسوجات الحريرية والقطنية، وتتصل بالبحر بسهولة ويسر، وقد أشاد الزوار الأجانب بمدينة أحمد آباد، وذكر بعضهم أنها من أجمل مدن الأرض وشبهها آخرون بالبندقية.

ومن أشهر سلاطين الكجرات" "محمد بيجارها" (١٤٥٠ - ١٥١١) وكان له تأثير كبير على الزوار الأجانب مثل الرحالة الإيطالى Ludovico varthema، ومظهر هذا السلطان أثار الدهشة، طويل القامة، له شنب كثيف، ولحية تتدلى إلى وسطه، ويتخذ أدوية تحصنه من السم.

ولى محمود العرش فى سنة الثالثة عشرة، ورغم صغر سنه استطاع أن يسيطر على البلاد وتغلب على خصومه، وسيطر على البلاد المجاورة وتغلب على دولة Champanir الهندية ودخل خلفائه فى حروب مع الراجيوتيين فى وسط الهند، وفى سنة ١٥٣٤ استولى السلطان محمود (١٥٢٦ - ١٥٣٧) على "شيتور" ولاذ أميرها بالفرار، وألقت النساء فى هذه البلدة بأنفسهم فى النار حتى لا يقعن فى الأسر، وتعرض رجال شيتور لسيوف المسلمين، ومزقوا شر ممزوق. على أنه فى العام التالى هزم سلطان دهلى "هيمايون" سلطان بهاور، ومن ثم سادت الفوضى والحروب والأهلية إمارة الكجرات حتى امتلكها الإمبراطور المغولى أكبر سنة ١٥٧٢.

واشتهرت العاصمة "أحمد آباد" بجمال مبانيها، وشيد بها العديد من المساجد، تميزت بارتفاعها ورشاقة مآذنها. وشيد السلطان محمود بجوارها قصرا على ضفاف بحيرة صناعية فى سارخيج، وتقع على بعد أميال قليلة من المدينة. على أن أهم إنجازاته العمرانية، المساجد الجامع فى شامبانير وبه قبة رائعة ومآذن وأعمدة، ومزين من الداخل، ونقشت على جدرانه آيات قرآنية، ويعد من أجمل المنشآت الدينية وأبهاها فى غرب الهند.

وفى سنة ١٣٤٧ خلال حكم محمد تغلق، انتهز ضابط أفغانى يسمى "حسن جانجو" الفرصة ليكون دولة مستقلة عاصمتها Culbaragae فى جنوب غرب الهند وتيمى دولة حيدر آباد، واستمرت مملكة "البهمانى" من سنة ١٣٤٧ حتى سنة ١٤٨٢، وامتدت فى إبان قوتها من البحر إلى البحر، واشتملت على حيدر آباد ومنطقة فى جنوب مدارس، وجزء من منطقة بومبى، ومن الطبيعى أن يدخل أمراء حيدر آباد فى حروب مع الحكام الوارثين انتزعوا منهم الحكم. وأشتمل بلاط ملوك البهمانى على مواطنين وأجانب. وقد تحيز ملوك البهمانى إلى الأجانب دون المواطنين الذين عمدوا إلى إضعاف شأنهم، وانتهجوا سياسة دعوة فريق من المغامرين من العرب وفارس وبلاد الأفغان، وأسندوا إليهم المراكز الهامة فى البلاد. وأدى ذلك إلى أحقاد عميقة. وزاد الأمر سوءا أن القادمين إلى البلاد من الشيعة. أما المواطنون فسنيون.

انقسمت مملكة البهمانى إلى أربع ولايات، تتمتع كل منها بقدر من الاستقلال، ولكل حاكم من حكام الولايات جيشه، ومن حقه فرض الضرائب وجبايتها من ولايته ويعين الموظفين الذين يساعدونه فى حكم الولاية. وبالجملة كان يشرف على الشئون الإدارية والمالية والدفاعية لولايته. أما السلطان فيساعده ثمانية وزراء، كل مسئول عن اختصاصه مثل المالية أو الشئون الخارجية، القضاء، الأمن . . . إلخ ونظم ملوك هذه الأسرة الجيش أحسن تنظيم.

لما توفى مؤسس هذه الأسـرة سنة ١٣٥٨ خلفه ابنه محـمد الأول وبدأ هذا الملك حكمه بأن حصل على تقليد بالحكم من الخليفة العباسى بالقاهرة حتى يضفى على حكمه الصفة الشرعية.

نشبت حـرب بين مملكة بهمـانى ومملكة Vijayanagar، تقدم فـيهـا جيش بهمـانى عبر أراضى العدو، ولكنه لم يسـتطع مهاجمـة أراضيها. وانتـهت الحرب بعقدة اتفاقية سلام بين الطرفين.

وولى "محمد الثانى" العرش سنة ١٣٧٨، وكان حاكما عادلا مصلحا شجع العلوم والآداب، ودعا إلى بلاطة الشاعر "حافظ بن شـيراز"، وشيد مدارس لأبناء المسلمـين اليتـامى، وحاول بكل مـا يستطيع تقـديم العون وتخـفيف المعـاناة عن الأرامل والفـقراء من النساء. ومـن سلاطين هذه المملكة الأقـوياء "فـيـروز شاه" (١٣٩٧ - ١٤٢٢) كان حاكمـا مستنيرا ومصلحـا. وبلغت المملكة فى عهده أوج عظمتـها وازدهارها. ولقد فـرض السلام على مملكة Vijayanagar بعد أن لقـنها درسا قاسيـا على الرغم من قسوة جيشهـا وضخامته، فقد دبـر أحد ضباطه خطة ناجحـة بأن عهد إلى بعض جنده بالتنكـر فى زى مشعوذين، واسـتطاعوا اقتـحام مـعسكر العـدو، وألقـوا الذعـر بين الجنود الهنود، وفى خـلال ذلك تمكن الجند المسلمون من مهاجمة العدو، وهزموهم شر هزيمة.

وانتهت الحرب بين الفريقين بعقد معـاهدة سلام تعهد فيها راجا -Vijayana gar نتـقديـم فيلة ومـبـالغ من المال للسلطان فـيـروز شاه. وقـد له إحـدى بناته ليتزوجـها. وتزوج السلطان من ابنه الراجا. غيـر أن هذا الزواج لم يؤد إلى إرساء سلام بين المملكتين المتنافرتين.

ولقد شيد السلطان فيروز المنشآت الضـخمة فى مملكته، وكان يحب ويشجع العلوم والآداب والموسيـقى، واهتم بالدراسات الدينيـة فى مخـتلف الأديان، كان قصـره يضم نساء أوربيـات وهنديا، واستطاع السـلطان التفاهـم معهن بلغـاتهن. وانتهت حيـاة هذا السلطان بمؤامرة دبرها أخوه أحمـد الذى خلفه فى الحكم ونقل

هذا السلطان عاصـمة بلاده إلى بدارBidar، وتقع فى نقطة هامة ترتفع عن سطح البحـر قدر ٢٠٠٠ قدم، وإلى غربـها سهل منبسط يضـم أشجار المانجو والتـمر هندى.

وآخر من حكم مملكة البـهمانى، " محمـد شاه الثالث" (١٤٦٣ - ١٤٨٢) ويرجع ما حققـه من نجاح فى سياسـته إلى وزيره "محمـود جوان"، وينتمى إلى أسرة فارسيـة عريقة، وعرف عنه المهارة القتاليـة والحنكة الإدارية والعدالة والمقدرة السياسية والمالية، وكان يعيش حـياة زهد وتقشف، وأسس مدرسة فى بدار، مثاها ضخم مرتفع، وغرف المحـاضرات مضيئة وتشتمـل مكتبة المدرسة على ثلاثة آلاف مجلد، وبالمدرسة غـرف للأساتذة والطلاب ومسجد، والواجهـة نقش عليها آيات قرآنية.

على أن السلطان قلب ظهـر المجن على وزيره، فـقد اتهـمه بمحـاولة خلع السلطان، وتنصيب نفسه حاكما مـستقلا على المملكة. ولقد سعى حكام الولايات وكبار الموظـفين إلى بث الوقيعـة بينه وبين السلطان لأنه تشدد فى مراقبـتهم، ولم يتهـاون مع واحد منهم، فضـلا عن أنه فارسى الأصل، وما زالوا بـالسلطان حتى خشى من تأمر وزيره عليه، ووجه إليه السلطان تهمة الخيانة العظمى، ودافع الوزير عن نفسه، وأنكر التـهمة، وحاول إثبات براءته، فـحذر الوزير "جوان" السلطان من مغبة وعاقبة قتله ظلما، لأن ذلك سيـؤدى إلى فقدانه لشخصيته وضياع ملكه. وقتل الوزير المصلح وهو فى الثـانية والسبـعين من العمر، وبعـد أن خدم المملكة بإخلاص خـمسة وثلاثين عامـا. وبعد فترة من الوقت اكـتشف السلطان أن وزيره قتل ظلما، فشعر بالذنب، وظل يتناول الشـراب من الخمر، وهو يردد أن محمود جوان سيقطعه إربا وما زال يشرب حتى توفى.

أخذت المملكة فى الضعف والتدهور بعد وفاة هذا السلطان وعمت الفوضى البلاد، وساد القتال فى الشـوارع بين المواطنين الهنود والوافدين الأجانب، وحكم البلاد ملوك كانوا ألعوبة فى أيدى القواد الأتراك. وظل الأمـر كذلك حتى استعان

أخر ملـوكها بسـلطان المغول فى دهلى - بابر - لإنقـاذه من الفوضى السـائدة فى البلاد. ودخلت المملكة فى حوذة دهلى، وتوفى آخر ملوك البهامانى سنة ١٥٢٦ .

نشأ مجتمع جديد فى المملكة البهمانى من تزاوج العناصر الأجنبية بالعناصر الوطنيـة. أما الفـلاح فى القرية فلم يطرأ جـديد على حيـاته إلا فى عهـد الوزير جوان، فقـد حقق الزراع دخلا كبيرا نتـيجة لسياسـته الاقتصادية واستتباب الأمن والنظام فى البـلاد، وعم العمـران حتى تشابكـت القرى، ولقد وصف لـنا رحالة روسى "أثناسيوس"Kikitin (١٤٧٠ - ١٤٧٤) محـمود الثانى بأنه فى العـشرين من عمره، وعنده جيش ضخم يتكون من كشاة مسلحين وفيلة مهيأة لركابها، وفى كل قريـة مسجـد يتعلم فـيه الأطفـال القرآن الكريم، ويديرهـا القاضى بمقـتضى الشريعـة الإسلامية، وفى المدن مـدارس لتعليم اللغتين العـربية والفارسيـة، ولها أوقاف ينفق مـن ريعها على إدارتهـا، وأضف من شأن ملوك البـهمـانى، إدمانهم للشراب، الأمـر الذى تسبب فى ضـعف الإدارة الحكومية والـتدهور الاقتـصادى والإدارى وكثرة الحروب الأهلية.

وملوك البهـمانى، اهتمـوا عمومـا بالعمارة، ويتجـلى ذلك فى القلاع التى شيدوها فى طوال البلاد وعرضها، وأدى اختراع البارود إلى تقوية القلاع وأحيطت بأسوار ضخمة، أشهرها قلعة "دولت آباد" .

قلنا إن مملكة البهمانى انقـسمت إلى أربع ولايات، ولما ضعفت هذه المملكة تطلع الولاة إلى الاسـتقـلال بولاياتهم، ومن أقوى هؤلاء الولاة " يوسـف عادل شاه" حاكم بيجابور، أعلن استقلاله سنة ١٤٨٩، وكان عبدا اشتراه الوزير جوان، وهو الابن الأصغر للسلطـان التركى مراد الثانى، حيث هرب فى وقت اسـتخلاف أخيـه وهرب من القتل، وتعرف جـوان على مقدرته وأسند إليـه وظيفة رئيسـية. وأثبت يوسف عادل شاه أنه حاكم قدير ومستنيـر، استفاد من أستاذه جوان، وترك المذهب السنى، واعتنق المذهب الشـيعى، وتزوج امرأة من Martha وأخلص لها، واستعـمل لغة المارتا فى المخاطبة، وكان ذلك من أسـباب تقرب الجنود له، وأسند

المناصب الرسمية للهنود، وبصفة فرشته بالحكمة والفصاحة والنجابة وكان موسيقيا بارعا وأديبا فذا، وحرص على بث الفضيلة بين وزرائه ورجال دولته وضرب المثل بنفسه، وحثهم على التعامل مع الأهلين بالعدالة والحكمة، وجلب إلى بلاطه رجالا أكفاء من فارس وتركستان والروم، وفنانين من مختلف البقاع والأصقاع، وكفل لهم الحياة الكريمة الهنيئة، ووضع لخلفائه المبادئ والأسس التى ينبغى للحاكم أن يتحلى بها.

ومن أبرز حكام بيجابور إبراهيم الثانى (١٥٨٠ - ١٦٢٦) واصل سياسة أسلافه الحكيمة، وشجع التجارة مع القوى الخارجية، وجلب إلى بلاطه الفنانين والأدباء، وتعاطف مع المسيحيين، ومنحهم أراض لإقامة كنائس، وأوجد مدينة Naurasbur كمركز أدبى ودينى، وآخر حكام بيجابور العظام، السلطان محمد عادل شاه (١٦٢٦ - ١٦٥٦) خضع للمغول مضطرا سنة ١٦٣٦م.

ومدينة بيجابور تقع على ألفى قدم فوق مستوى البحر، وبها أسوار دفاعية هائلة وعليها أبراج نصبت مدافع، وتمثل هذه المدفعية مهارة وسائل الدفاع، واشتهرت هذه المدينة بمدارسها وأساتذتها، ومن أشهر أساتذتها، محمد قاسم فرشته، قدم من إستراباد، واستقر فى أحمد ناجار، ولجأ إلى بلاط إبراهيم عادل شاه الثانى فى سنة ١٥٨٩ . وتاريخه عن الإسلام فى الهند فريد من نوعه، كتاب فيه الأصالة والنقاوة، بعيد كل البعد عن التأثر ببلاط السلطان، والكتاب مرجعنا الرئيسى عن تاريخ الإسلام فى الهند فى الفترة ما قبل سنة ١٦١٢ وترجم إلى الإنجليزية بواسطة الكولنل j. Briggs سنة ١٨٢٩ .

* * *

المراجع

د. عصام الدين عبد الرؤوف الفقى: بلاد الهند فى العصر الإسلامى منذ فجر الإسلام حتى الغزو التيمورى، دار الفكر العربى ١٩٩٦.

د. عبد الله محمد جمال الدين: التاريخ والحضارة الإسلامية فى الباكستان أو السند والبنجاب إلى آخر فترة الحكم العربى، دار الصحوة، القاهرة ١٩٩١.

د. عبد الله مبشر الطرازى: موسوعة التاريخ الإسلامية والحضارة الإسلامية لبلاد السند والبنجاب (باكستان فى عهد العرب)، عالم المعرفة، جدة، ١٩٨٣.

فهرس الكتاب